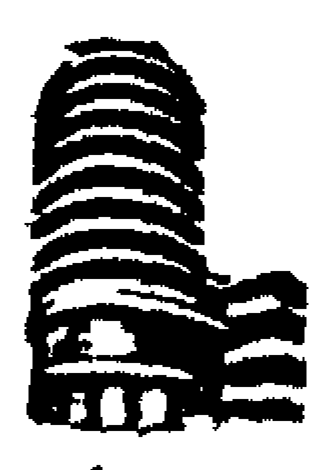

كتاب اليوم
عشاق
مصر
نعمان عاشور

« كم ذَا يُكَابِدُ عاشقٌ ويلاقى
فى حُبِ مِصر كثيرة العُشاق »
حافظ إبراهيم

عشاق مصر

بقلم نعمان عاشور





كلمة

قد يبدو من الوهلة الأولى أن ليس هناك ما يجمع بين أصحاب هذه الوجوه غير صفحات مثل هذا الكتاب . ولكن الحقيقة أن الرابطة بينهم قوية ومتلاحقة . . تبدأ من مولد عمر مكرم عام ١٧٥٠ ، وتنتهى إلى ما بعد منتصف القرن العشرين . . أى طوال حقبة تزيد عن قرنين من الزمان تفترشها أرضية تاريخية شاسعة . وهى الأساس أو المنبع الذى كنت أستقى منه دائما إمتدادات شخصياتهم وأدوارهم التى لعبوها فى مختلف المجالات السياسية والعسكرية والفكرية والفنية أيضا . .

وسبب ذلك أننى لا أرى أن التاريخ من خلال وقائعه المثبتة مجرد سجل للأحداث التى إنطبعت على واقع الأيام . . وإنما هو شكل من أشكال الحياة بتكويناتها الاجتماعية وتياراتها الفكرية وأبعادها الفنية لأنه هو الحياة الدائبة المتصلة التى تدفعها حركة الجماهير ومسيرتها ، كحياة قد لا تكشف عنها إلا سيرة بطل ، أو موقف زعيم ، أو نضال مفكر ، أو صلابة فنان ، أو إصرار ثائر .

وهذا بالفعل ما عشت أنقب لكم عنه فى ثنايا هذه الصور . . بين الصفوة النادرة من عشاق مصر . . وما أكثر عشاقها .

● **نعمان عاشور**

الشخصيات

ميلادية

■ عمر مكرم	١٧٥٠ ـ ١٨٢٢
■ عبد الرحمن الجبرتى	١٧٥٤ ـ ١٨٢٥
■ رفاعة رافع الطهطاوى	١٨٠١ ـ ١٨٧٣
■ جمال الدين الأفغانى	١٨٣٨ ـ ١٨٩٦
■ أحمد عرابى	١٨٤١ ـ ١٩١١
■ عبد الله النديم	١٨٤٣ ـ ١٨٩٦*
■ عبد العال حلمى	١٨٤٥ ـ ١٨٩١
■ محمود سامى البارودى	١٨٤٠ ـ ١٩٠٤
■ الشيخ محمد عبده	١٨٤٢ ـ ١٩٠٥
■ مصطفى كامل	١٨٧٤ ـ ١٩٠٨
■ محمد فريد	١٨٦٨ ـ ١٩١٩
■ سلامة حجازى	١٨٥٢ ـ ١٩١٧
■ محمد تيمور	١٨٩٢ ـ ١٩٢١
■ مصطفى لطفى المنفلوطى	١٨٧٧ ـ ١٩٢٤
■ بيرم التونسى	١٨٩٣ ـ ١٩٦١
■ لطفى السيد	١٨٧٣ ـ ١٩٦٦

عمر مكرم

١٧٥٠ - ١٨٢٢

إنعطفت كوكبة من الفرسان فى سرعة خاطفة نحو الطريق المؤدى إلى الجامع الكبير . كانوا قد هبطوا من القلعة بأوامر مشددة . وفى أقل من دقائق أخلى لهم الناس الطرقات . والجياد تصهل راكضة بهم نحو زاوية المقياس بالروضة . وتلفتت العيون متسائلة فى لهفة إذ كان الوقت قبل الغروب بقليل . . وكان كل شىء هادئا ساكنا عند ساحل أثر النبى . حتى مياه النيل . . إختفت أمواجها وإستطالت على السطح جثثا هامدة وسريعا ما أخلى المكان . . ووقفت كوكبة الفرسان حول أركان الدار الأربعة وفى الطرقات الموصلة بينها وبين



الساحل . . ترى ماذا دهى الباشا . . وهل إضطربت الأمور من جديد ؟

كان ذلك عام ١٨٢٢ بعد أن إنقضت عشر سنوات على إستتباب الأمور . . وإنتهى عهد الفتن والثورات والمذابح . ودان كل شىء لسلطان محمد على ومن لف حوله من أهله وأتباعه ولم يعد أحد بقادر على أن يفتح فمه . . ترى ماذا دهى الباشا ؟

كان الناس يهزون رءوسهم عجبا فقد بعدت الشقة بينهم وبين مثل هذه الحملات المفاجئة . وإنصرف كل إنسان إلى السعى وراء معاشه لا يفكر إلا فى قوت يومه .

وأحس أهل الدار بما كان يجرى حولهم . وأطلوا على المشهد الغريب الرهيب وقد أحاط الفرسان بسور الحديقة ووقف قائدهم عند بابها يطلب الدخول .

وفى أول الأمر علت الوجوه فرحة عابرة . كانت قد جاءتهم الانباء بالأمس أن الناس تجمعوا فى الأزهر . وأن المشايخ رفضوا الاستجابة لهم وأنهم لما يئسوا من المشايخ هتفوا عاليا بإسم صاحب الدار . . وباتت القاهرة تنتظر الغد وقد خلت طرقاتها من المارة .

وجاء الغد فإذا الناس عند الأزهر مرة أخرى . . عدد قليل ينقصهم من قتل ومن سجن ومن لا يعرف أهله له مكانا . . ولكنه عدد كاف ليفزع الباشا الذى إستتب له ملك الكنانة قاصيها ودانيها . . فقد كان الباشا على سطوته يخاف دبيب النمل . . فما بالنا بمائة أو مائتين يهتفون عاليا بكل ما حوى الماضى من إرادة شعب يرغب فى الحياة ويرغب فى المستقبل . والباشا يقبض بكلتا يديه على عنان هذا المستقبل ويسد على الشعب منافذه لتحكم أسرته وتسود . . أجيالا متعاقبة .

وفى داخل الدار كان الشيخ الهرم قد طال به النوم فى قيلولة الظهر . . وإنتظر قائد الفرسان فى الحديقة حتى إستيقظ . . ثم دخل إليه فى حجرة نومه . . وكانت الأوامر التى يحملها تقضى باللين والسماحة . . وفى كلمات قصيرة فهم الشيخ كل شىء . . إن الباشا لا يرتاح لاقامته هنا فى مصر القديمة ويأمره بالعودة إلى طنطا قبل حلول الليل . . وهز الشيخ رأسه وأمر أهل بيته بالاستعداد . . وعند الغروب رست سفينة قادمة من ميناء بولاق على النيل أمام رصيف الساحل فى أثر النبى . . ونزلوا إليها محاطين بكوكبة الفرسان .

لو أن الجبرتى كان لا يزال حيا يسجل التاريخ . . ترى ماذا كان يقول هذه المرة أيضا ؟ أما كان يسجل نفى السيد عمر وهو فى السبعين إلى طنطا كما سجل نفيه قبل ذلك بثلاث عشرة سنة إلى دمياط .

« قام السيد عمر وركب فى الحال وشيعه الكثير من المتعممين وغيرهم وهم يتباكون حوله حزنا على فراقه . وكذلك إغتم الناس بسفره وخروجه من مصر لأنه كان ركنا وملاذا ومقصدا للناس ولتعصبه على نصرة الحق . . »

ثم يتبع ذلك بفقرة قاسية يدينه بها :ـ

« أما السيد عمر فإن الذى وقع له بعض ما يستحقه ومن أعان ظالما سلط عليه ولا يظلم ربك أحدا » . .

لو عاش الجبرتى حتى هذا التاريخ لأسرع إلى مدوناته فكشط منها هذه الفقرة الأخيرة . . لكن الجبرتى قتل من أجل إصراره على تدوين مثل هذه الفقرات .

كان الجبرتى يكره محمد على كراهية التحريم فلما إستتب له الحال لم يكن بقادر على إخفاء حقده . فنسى فى لحظة غضب حقيقة نضال عمر مكرم . ذلك

أنه لم يعن الباشا على شيء مما فعل بعد أن خادع الشعب وإستولى على زمام مصيره ليسد أمامه مسالك مستقبله ولعل في حادث النفى الأخير الذى رويناه ما يثبت خطأ الجبرتي .

فبعد تسع سنوات من الاقامة في دمياط ثم في طنطا سمح محمد على للسيد عمر أن يذهب إلى الحج . ولما عاد لم يمانع بعد أن رآه قارب السبعين أن يقبع تحت نظره في القاهرة ، وكان محمد على قد قضى شوطا بعيدا في تنفيذ سياسته . . فأحال البلاد إلى ضيعة له ولأهله لا يشاركه في ملكها أحد . حتى إذا زادت حاجته إلى المال راح يفرض الضرائب بغير حسيب ولا رقيب .

وكان من بين مغارمه للناس أنه فرض ضريبةعلى المساكن في القرى . . فلما لم يجد مقاومة من الفلاحين حاول آن يجرب فرضها على القاهرة . . وسرعان ما أحس بعد سنوات من الهدوء والطاعة أن هناك بقية من النار خابية تحت الرماد . . ولا عجب . . فمنذ عشرات السنين وأهل القاهرة في صراع متصل وثورات متتابعة ضد المماليك وضد الفرنسيين وضد ولاة العثمانيين وضد الغزاة الانجليز بل وضد محمد على نفسه .

. كره أهل القاهرة تلك الضريبة وراحوا يقاومون جباتها فإصطدم جنده ببعض سكان باب الشعرية وثار الناس وضجوا وأقفلوا الحوانيت . . وعادت ريمة لعادتها القديمة ، فالثورة دائما كامنة في نفوس الأهالى لايمكن آن تنطفيء أو تستكين مادامت هناك حياة . وسرعان ما إستعان سكان الأحياء الشعبية تقاليدهم العتيدة . . فإرتفعت الأيدى بالنبابيت وعلت الحناجر بالصراخ . . وتوجه الكل وهم يلبسون السواد إلى مشيخة الأزهر وتدخل المشايخ والأعيان .

لكن اليوم كان غير الأمس . . ففى البلاد حاكم لايعرف الشفقة . . ومع هذا لم يسكن الاضطراب ولم تهدأ الضجة وظلت النفوس هائجة حتى إرتفع صوت ينادى بالتوجه إلى بيت السيد عمر مكرم النقيب في مصر القديمة . . وهنا تحرك الباشا ونزلت جنوده إلى الميدان وتفتت الشمل ليلتئم في اليوم الثاني على هتاف الناس بإسم عمر مكرم .

كانت ثغرة كسم الخياط . . لو نفذت منها الجموع هذه المرة لعادت السلطة إلى أصحابها الحقيقيين . . وإرتد للشعب ما ظل الشعب يكافح في

سبيله منذ أواخر القرن الثامن عشر . أن يكون سيد نفسه « حسبما رسم السيد عمر مكرم والعلماء » . . يوم حاصروا الوالى خورشيد فى القلعة فوقف النقيب يقول لرسله :

« هذا الحاكم الذى أرسلكم ما هو إلا رجل ظالم خارج على قانون البلاد وشريعتها . فلقد كان لأهل مصر دائما الحق فى أن يعزلوا الوالى إذا أساء ولم يرض الناس عنه . على أننى لا أكتفى بذكر ما جرت عليه عادة البلاد منذ الازمنة القديمة . بل أذكر لكم أن السلطان أو الخليفة نفسه إذا سار فى الناس سيرة الجور والظلم كان لهم عزله وخلعه . . »

من أجل هذا أرسلت كوكبة الفرسان فأيقظته من قيلولة الظهر وهو شيخ فى السبعين ليركب السفينة بالليل ويرحل إلى طنطا منفيا من جديد . وهدأت ثائرة الناس بالبطش بعد أن كادت تهتز يد الباشا « القوللى » وهو يسد فجوة المستقبل بيد من حديد أمام الجموع .

إن قصة صراع محمد على للاستيلاء على حكم مصر معروفة واضحة لم يخفها أشد المؤرخين تعصبا لبراعته وحنكته وتدبره . وفى جميع كتب التاريخ التى حفظناها عن ظهر قلب فى المدارس ما يثبت مقدرة الباشا الالبانى وسعة حيلته ودهائه ، بل فيها ما يشيد بفضله فى بناء صرح الدولة العلية التى كانت مباركة . أكثر من ذلك أن أغلب المؤرخين لم يحاولوا إخفاء الدور البطولى الذى لعبه السيد عمر مكرم فى مواقفه منه .

لكن الشىء الوحيد الذى فات تأكيده أن عمر مكرم لم يكن إلا مجرد معبر إعتلى سطح الموجات العالية من موجات الثورة الشعبية الضخمة التى ظلت تتلاحق بها الحياة المصرية منذ قرون . فأرغت وأزبدت وتطاولت بالجموع إلى السطح حتى تحطمت على صخرة طموح الباشا .

لهذا وجب ألا ينتزع الشعب من مجرى تاريخه .

فإذا نحن عدنا إلى أواخر القرن الثامن عشر ، وجدنا الشعب المصرى وقد ظل قرونا طويلة يعيش بعيدا عن المشاركة فى أمور السياسة قصيا عن النظر فى أحواله العامة يهب سنة بعد أخرى ليقف فى وجه ظالميه . فتنشب الثورات كالشرر المتطاير ثم لاتلبث أن تخبو على يد مملوك أو حاكم تركى . حتى إذا تضاعف الظلم وبلغ أقصى منتهاه هب الشعب عام ١٧٩٥ فأحاط ببيت الشيخ

السادات يطلب « العدل ورفع الظلم والجور » فلما أرسل الوالى كتخداه ومعه وكلاء إبراهيم ومراد يأمرونهم أن ينفضوا . . إجتمع أهل الأطراف من العامة والرعية وباتوا بالأزهر « وظل الناس على إعتصامهم بالجامع حتى أجبر مراد على ترك الجيزة والسعى إليهم يحاول تهدئتهم بالخداع . ولكن الرعية ظلت على موقفها حتى إجتمع مجلس العلماء والوالى التركى فى بيت إبراهيم بك » ، « وإنحط الأمر على أنهم باتوا ورجعوا والتزموا بما شرطه العلماء عليهم ، وأن يكفوا أتباعهم عن إمتداد أيديهم إلى أموال الناس ويسيروا فى الناس سيرة حسنة » .

وكان القاضى حاضرا بالمجلس فكتب حجة عليهم بذلك وفرمن عليها الباشا وختم عليها إبراهيم بك وأرسلها إلى مراد بك فختم عليها أيضا » .

وكانت هذه أول وثيقة إستطاع الشعب أن يحصل عليها من براثن حكامه . . ومن بعدها وضع الشعب قدمه على عتبة مصيره . فلما جاءت الحملة الفرنسية وبلغت أخبار الغزو أهل القاهرة هبوا للذود عن حياضهم وبدأ الشعب يدخل ساحة النضال الوطنى يصارع ضد الأجنبى المحتل بنفس القوة التى حاول أن يصرع بها حكامه المستبدين .

وتتوالى الثورات على عهد الحملة الفرنسية ، فلا يكف الشعب عن الثورات المتتابعة فى القاهرة وفى بقية البلاد . . حتى إذا خرج آخر جندى فرنسى من الديار كان الشعب قد بلغ من بعد هذا التأهب الطويل مرحلة من النضج تبيح له أن يسعى إلى حكم نفسه بنفسه والامساك بدفة مصيره . وفى هذه السلسلة من الهبات الشعبية المتتابعة يستحيل الفصل بين نضال الشعب وسيره المعبر الحقيقى عن إرادته وأمانيه .

تتحدد سيرة عمر مكرم بمواقفه الصادقة من رغبات الشعب ومدى صلابته فى الاستجابة لهذه الرغبات ومسايرته لها حتى أقصى أبعادها . ولن نحاول أن نستطرد طويلا فى بحث تفاصيل حياته . فنحن نسمع عنه أول ما نسمع عام ١٧٩١ إذ خرج من أسيوط إلى القاهرة موفدا من قبل إبراهيم ومراد وسيطا لدى الوالى التركى ليسمح بإشراكهما فى الحكم ممثلا لرغبة أهل البلاد . . ثم نراه وقد نجح فى مسعاه يعرف بحبه للعامة ويحتل مكانة سامية فى نفوس الناس فيقلد نقابة الاشراف . وشيئا فشيئا يأخذ فى إحتلال مقامه بين الرعية

كخير من يستطيع الوقوف إلى جانبهم والوساطة بينهم وبين حكامهم .

فإذا كان يوم تحرير وثيقة بيت إبراهيم بك التى مر ذكرها اختفى إسم السيد عمر من الأحداث ، ذلك أنه كان معروفا بصداقته للمملوكين . ومن أجل هذا نأى بنفسه فى مبدأ الأمر عن مناوأتهم . . حتى إذا نقضوا العهد الذى قطعوه على أنفسهم هب صارخا فى وجوههم فجاءهم فى لمة من الناس يطالبهم بالوفاء بما فى الوثيقة التى وقعوا عليها . ووقف يرد على عتابهم .

« إننا لانرضى الظلم ولا نسكت عليه لا دفعا لضرر خاص بنا . بل حبا فى الرعية . ومرادنا من أوله إلى آخره نصرة الحق من غير إبتغاء منفعة » .

ولكن المماليك لم يرتدعوا عن ظلمهم حتى وقع الغزو الفرنسى . وفر إبراهيم ومراد بجنودهما وتركا الشعب الأعزل يذود عن حماه . وهنا تبين له أن هؤلاء الأمراء لايحسنون القيام بالفروض الواجبة عليهم للرعية . ودعا الشعب لحماية نفسه فراح يحرض الناس ويحسهم .

ونزل من القلعة إلى بولاق والناس من حوله الوفا مؤلفة . يحملون العصى والنبابيت وهم يهللون ويكبرون ومعهم الطبول والزمور . وتحت راية العلم الذى رفعه هذا الجيش الأعزل اشتعلت المقاومة من أول يوم ضد الغزاة الفرنسيين فكانت المقاومة الشعبية الشاملة فى القاهرة وبقية البلاد وهى تلك المقاومة التى عرفت بحركة « البيرق النبوى » .

ولكن ما أن احتل بونابرت المدينة ونادى بالأمان حتى كان السيد عمر أول من غادرها مفضلا التشريد والنفى عن الاذعان لطاعة المحتلين . ولجأ إلى يافا وظل مقيما بها حتى غزاها بونابرت فأعاده إلى بلاده . ومع ذلك رفض أن يشترك مع العلماء فيدخل الديوان ويسترجع مكانه فى نقابة الأشراف فيخدم الغاصب الأجنبى . إلى أن رحل نابليون ووقعت ثورة سنة ١٨٠٠ . ثورة القاهرة الكبرى ضد كليبر فكان على رأس القيادة الشعبية لاتفتر له حركة ولايخفت له صوت . . يقيم المتاريس مع الأهالى ويبنى الحصون والخنادق ومعامل البارود والفشنك . حتى إحتل كليبر المدينة بعد تسعة وثلاثين يوما كاملة من المقاومة المجيدة فخرج السيد عمر من البلاد مع من آثروا الخروج مفضلا الفقر والتشريد . ولما عاد مرة أخرى بعد جلاء الفرنسيين كان قد أصبح رجل الشعب الأوحد وزعيم جهادى .

سيرة عمر مكرم إذن هى سيرة النضال الوطنى فى الشعب فى أوج حدته ، ولا غرو بعد ذلك أن ارتفع صوته وقوى ايمانه وتبلورت مبادئه حول أقدم العقائد . . وهى إعطاء الشعب الولاية على نفسه بنفسه .

ولقد كانت السنوات التى تلت خروج الفرنسيين سنوات اضطراب وشدة . تنافس فيها على إمتلاك الشعب وحكمه أمراء المماليك وولاة الترك وقادة جنودهم . ويطول بنا الحديث لو حاولنا أن نستقصى ما فعله الألفى والبرديسى وما قام بينهما وبين الولاة العثمانيين من مشاحنات ومعارك . بل قد نفضل ألا نستطرد فى شرح الأساليب التى إبتدعها محمد على للوصول إلى الحكم وهى معروفة . الشىء الجديد الذى نحب أن نثبته أن عمر مكرم لم يكن هو الذى إختار محمد على بمحض إرادته وطبقا لصادق رغبته « فأعان ظالما على الظلم » على حد لمحة الجبرتى .

أما الذى حدث بالفعل أن الحان كال قد وصل بالبلاد إلى نوع من الاضطراب كادت تضيع فيه كافة مكاسب النضال الطويل الذى خاضه الشعب فى سبيل الوصول إلى السيطرة على أموره . ولم يكن هناك من سبيل إلا أختيار أهون الشرور . . قادر يتعهد للناس بأن يحفظ لهم حريتهم ويصون حقوقهم ويسوس أمورهم بإشراف منهم . وهذا هو ما فعله محمد على فى بداية أمره بشهادة الجبرتى ، إذ الواقع أن عمر مكرم لم يناد بمحمد على حاكما . وانما أخذه بكلمته ووعده ورفض أن يحدد اقامته بشخصه على الولاية ولو كان هناك آخر لرشحه السيد عمر مثلما رشح محمد على . إنما الذى دفع الجبرتى إلى هذا الزعم رغم اكباره للسيد عمر ولفضله انحيازه على طول الخط لمن كان يصفهم بالأمراء المصريين وهم طوائف المماليك .

لقد كان القصد من البداية ابعاد القادة العثمانيين والولاة الظالمين بجنودهم الدخلاء وشراذم عساكرهم ثم اعادة الامور لسلطة يقرها الناس ويحاسبونها على أفعالها . ولم يكن الوقت يتحمل أدنى امهال خاصة بعد أن رفض الالفى أن يتعهد بالاذعان لمشيئة الرعية . ثم أن منطق محمد على فى القبول كان « ألا يفعل أمرا الا بمشورة الرعية وانه متى خالف الشروط عزلوه وأخرجوه وهم قادرون على ذلك كما يفعلون الآن » بتوليتهم له .

أيا كان الامر وسواء خدع عمر مكرم فى محمد على حتى أنه أجبر على

أختياره . . فالذى حدث بعد ذلك يؤكد أنه لم يكن على أستعداد لان يفرط فى المبدأ الاساسى الذى وقف يذود عنه من بداية توليه الدفاع عن حقوق العامة . فحين جاءت حملة فريزر الانجليزية ووقع الغزو الاجنبى من جديد هب الشعب ليفتدى أرض بلاده بدمه ، غير أن محمد على رفض آن يسمح للشعب بالنضال . ومن يومها بدأ الصراع رهيبا بين الرجلين .

كانت خطة محمد على وقد استولى على الحكم أن يبعد الشعب ابعادا تاما عن الاشتراك فى توجيه السياسة العامة لبلاده والاستئثار من دون العلماء وغيرهم من ممثليه بالسلطة المطلقة . غير أن هذا كان هو الجوهر الاساسى الذى قام عليه صراع الجموع منذ سنين . ومن أجله توالت الثورات والمنازعات والفتن وسرعان ماوقع الجفاء وانصرف السيد عمر نهائيا عن مجلس الباشا وارتد إلى أحضان الشعب .

كان الناس قد تحملوا كثيرا من الاعباء على أول عهدهم بمحمد على . وطالما سرت بينهم همهمات السخط . لكنهم ظلوا صابرين فى أنتظار أن تنجلى الأمور بعد هزيمة الانجليز وابعادهم عن غزو البلاد . وكان الباشا قد أثقلهم بالضرائب والمكوس الاستثنائية ، فلما أنتهت الحرب شرع ينظم هذه الضرائب فجعلها أساسية واجبةالجباية . . أكثر من ذلك أن الناس تعوذوا على طول العهد بالتمرد أن ينحازوا إلى جانب الوالى أو ضده . . فلا يقف معارض عند حد فى معارضته لأفعاله . ولكن حدث أن وقف أحد رجال العامة وهو « غريب البقلى » يندد بأساليب محمد على وجنوده فقبض عليهالجنود وأودعوه السجن من غير محاكمة .

أذن فقد بدأ الباشا يزاول سلطته المطلقة فى غير تحرز . وراح يهدر الحريات والحقوق التى كسبها الناس على مر السنين بالتضحية والبذل والفداء . . يقول الجبرتى عن هذه الأحداث « حضر المشايخ بالازهر على عادتهم لقراءة الدروس وأجتمع المشايخ بالقبلة وأرسلوا إلى السيد عمر النقيب فحضر اليهم وجلس معهم . . ثم كتبوا عرضحالا إلى الباشا يذكرون فيه المحدثات من المظالم والبدع » .

بدأ محمد على يخرج عن وعده ويتنكر لما أشترطه عليه العامة يوم ولوه أمورهم وجاءهم رسول الباشا يحمل اليهم العرضحال وحاول اقناعهم بالتشفع

لديه والذهاب اليه « فقالوا بلسان واحد لانذهب اليه أبدا مالم يفعل هذه الفعال فان رجع عنها وأمتنع عن احداث البدع والمظالم عن خلق الله رجعنا اليه وترددنا عليه فاننا بايعناه على العدل لا على الظلم والجور » . . وعند ذاك أخذ محمد على يستعمل أساليبه فبدأ بالملاينة ثم عمل على التفرقة وزعزعة الوحدة بين الزعماء . . وفعلا أستطاع أن يستميل إلى جانبه نفرا كبيرا منهم .

ولكن السيد عمر رفض أن يذهب اليه ليفاوضه فى تفاصيل الشكوى أذ كان الخلاف من وجهة نظره خلافا على مبدأ لا يقبل جدلا . . أن الباشا إنما يغير نظم الحكم فيعتدى على ماكسبه الناس قبلا من ضمانات لحرماتهم ويفرض عليهم من الضرائب مايشاء بدون حسيب أو رقيب . ومن جديد « أجتمع المشايخ ببيت السيد عمر مكرم وتكلموا فى شأن الطلوع إلى الباشا ومقابلته فحلف السيد عمر مكرم أنه لا يطلع اليه ولا يجتمع به ولا يرى له وجها إلا إذا أبطل هذه الأحدوثات وقال أن جميع الناس يتهموننى معه ويزعمون أنه لايتجزأ على شىء يفعله إلا باتفاقى معه ويكفى مامضى فهو مهما يتقادم يتزايد فى الظلم والجور » وتكلم كلام كثيرا . .

فلما طلعوا اليه « آخذ يلوم السيد عمر فى تخلفه وتعنته ويثنى على الباقين ويقول :أنه فى كل وقت يعاندنى ويبطل أحكامى ويخوفنى بقيام الجمهور » .

ولم تطلع شمس اليوم التالى حتى أمر بكتابة فرمان بخروج السيد عمر ونفيه من مصر يوم تاريخه . . . « ولم يقبل فيه شفاعة العلماء » . أما السيد عمر فإنه على مايقول الجبرتى أيضا . قال لما ورد خبر نفيه وخلعه من منصبه « أما منصب النقابة فانى راغب عنه وزاهد فيه . . وأما النفى فهو نهاية مطلوبى وأرتاح من هذه الورطةولكنى أريد أن أكون فى بلدة لم تكن تحت حكمه . وإذا لم يأذن لى فى الذهاب إلى أسيوط فليأذن لى فى الذهاب إلى الطور أو إلى ورنه » ورفض الباشا الا أن ينفيه فى دمياط .

وهكذا أخطأ الجبرتى حين وصفه يوم نفيه هذا بأنه « أعان ظالما » .

لقد كان عمر مكرم فى صلابته يمثل روح شعب فتى أزهقها طاغية فأوقف نماءه وتطوره لأجيال عدة قبلنا . . ولاعجب بعد ذلك أن يرتعد محمد على من مجرد وجوده فى القاهرة وهو فى سن السبعين لايقوى على الكلام والحركة فيخرجه إلى النيل منفيا مرة أخرى بكوكبة من الفرسان . . حيث مات هناك بعدها بشهور

الجبـــرتي

١٧٥٤ - ١٨٢٥

رفع المشايخ عقيرتهم بالبسملة وقد أخذت الدهشة بمجامع قلوبهم فما عادوا يدرون إلى أى ناحية يتجهون . . ووقفوا فى وسط القاعة الفسيحة يتقارعون الاعجاب والحمد والثناء وكل منهم يطمع فى أن يستحوذ يوما على ما استحوذ عليه هذا « المنهل البحر » من خزائن « الدر والياقوت » . وأقسم بعضهم أن هذه الخزائن لا وجود مثلها فى مصر . فأضاف ثان أن لا وجود لمثلها فى السلطنة كلها . وقال ثالث : . . أنهـا تضـارع مكتبة الأزهر الشريف ذاتها ، ففيها نسخة من القاهستانى الكبير . وفيها فتوى الانقورى وفيها مصاحف

غالية ومجلدات ضخمة ونفائس لا تقدر بمال . . وكان عليهم تبعا لنصيحة الشيخ عبد ربه . أوصلهم قربى بصاحب الدار أن يرفعوا سباباتهم عما تلامسه من الصفحات . لأن الشيخ عبد الرحمن لا يطيق العبث بأسفار المرحوم والده .

ثم خرج تلامذة الجبرتى من مكتبته ونزلوا الدرج الصغير إلى صحن البيت انتظارا لملاقاة الشيخ حين يهل ببهى طلعته عليهم .

كان الوالد الجليل . الشيخ حسن الجبرتى الكبير . قد توفاه الله . وكانت هذه هى الدار التى بناها ولم يتمها قبل انتقاله إلى جوار ربه . . وكان للشيخ حسن دار أخرى فى « خطة الصنادقية » بجوار الأزهر الشريف . حباه الله فيها بولادة ابنه عبد الرحمن ، فلما اشترى هذا الموقع الذى أقام عليه داره الجديدة على النيل فى بولاق . أفرد للبيت القدم وقفية خاصة بين أوقاف الجبرتية . . واشترط على وارثه أن يتركه رواقا يسكنه طلاب العلم . كما اشترط أن تنقل من هذا البيت خزائن الكتب حتى يضمن سلامتها من يد الفضول والغواية . . فلما توفاه الله كان أول ما فعله وريثه الراشد أن أتم دار بولاق ونقل إليها كنز النفائس ثم رحل إلى الوجه البحرى لضبط العقارات والأملاك التى تركها الوالد له ولأهل بيته . . فزار ابيار وفوه وصعد إلى دمياط . ثم عرج على ادكو حيث يوجد مسجد أوقاف الجبرتية ، ولما ارتد إلى المحروسة لم تكن دار بولاق قد تم بناؤها . « وكنت فى كرب لوفاة الوالد وكان لابد لى من أن أنسى فطوفت بالصعيد لأعرف مواقعها وأتعرف على علمائها وأزور مساجدها ومشاهدها » .

وكان الشيخ قد وجد تلاميذه بعد أن خرجوا من قاعة الكتب فى انتظار أوبته وقوفا فى صحن الدار فصحبهم إلى الحجرة الواسعة التى ينتظره فيها صفوة صحبه وخلانه .

ودارت أقداح القهوة على الحضور . والشيخ عبد الرحمن يحكى لهم عن رحلته فى الديار المصرية التى لم تكد تنتهى الا بالامس . . حى إذا عتم الليل دعاهم إلى لقمة خفيفة . . فكان أسبقهم إلى رد الدعوة الصديق المفضال اسماعيل الخشاب وتلاه الشيخ الدلجى والشيخ القريزى والشيخ عبد الله الدرويش وبقية المشايخ من أساتذة الأزهر وطلابه . . وكانت حجتهم « أن

● الجبــرتى



الشقة بعيدة والطريق قفر والأرض بين الأزهر وبولاق تعج فى الليل بشياطين المماليك » .

رغم أن ضوء بركة الأزبكية كان فى هذة الليلة بالذات يشع عاليا .

فقد كانت هذه هى الليلة التى اختارها الأمير رضوان كتخدا ليقيم نصبته على البركة فى أمسية مليحة من أمسيات المماليك . . إذ اشترى دار الشرابى . . وأقام الفرحة ودعا كافة التجـار ومن بينهم السيد اسماعيل الخشـاب . . سر تجار المحروسة . . وأبان الخشاب أن الدعوة بالنسبة له انما هى لضريبة المجاملة وليست لمتعة النظر . .

وامتد بهم الحديث إلى المماليك . . الذين لم يعد يقدر عليهم إلا الله وحده . . حتى إذا هم الدلجى واقفا تبعه الجمع فى وقار والشيخ عبد الرحمن يودعهم على باب داره وهو يهز رأسه . . « اذهبوا غير محزونين . . لقد صبر الناس طويلا على مظالم الأمراء . . وسكت العلماء كثيرا على مجون أتباعهم ومواليهم . لكن الله يمهل ولا يهمل . . الله يمهل ولا يهمل . . »

ومرت الأيام فى تثاقل . وكان الشيخ عبد الرحمن قد بدأ يعود لدروسه وتلاميذه فى الأزهر . . إلى أن كان يوما وهو فى طريق إلى زيارة مسجد الحنفى . . فإذا به يلقى السيد مرتضى الزبيدى . . وكان السيد مرتضى عالما مخضرما من الصوفية الكبار « وآخر من تبقى من السلف الصالح » . فأوقفه وعتب عليه لأنه لا يحضر إلى منزله فى « بخاته الصاغة » حيث كان يجتمع بتلاميذه من صفوة المشايخ : السادات والمهدى والشرقاوى والأمير . . ووعده أن يحضر .

وبعد الدرس الأول أصبح يلازمه كظله فلا يكاد يفارقه لحظة حتى كان

اليوم المشهود » فانتحى به السيد مرتضى جانبا وقال : يا حبيبنا أنت تعلم أن همنا لا يعدو خدمة العلم والعلماء . وانى لأريدك أن تترجم لأعلام المائة المنصرمة من مصريين وحجازيين وأن تضع كتابا فى التاريخ تلم فيه بأهل العصر وأحداثه » .

وبلا مقدمات رسخ هذا القول فى ذهن الشيخ عبد الرحمن الجبرتى وأخذ عليه المسالك .

فلما أصبح الصباح وجد نفسه على ظهر بغلته يعبر « سويقة اللالا » فقابله سميره الشاعر التاجر اسماعيل الخشاب وفاتحه فى الأمر . فوقع هذا القول موقعا طيبا فى نفسه لأنه يتفق وميوله ورغائبه وتستجيب له ملكاته ومواهبه « لكن التأليف عندنا كله شروح على متون ونحن لم نتعود أن نكتب التاريخ » ومع ذلك فقد أشار عليه صديقه أن يقبل المهمة « أنت من بيت علم وصلاح ولك اتصالات برجالات مصر وأمراء وكبراء . . لقد اختارك الشيخ لما فيك من حدب على العلم والتحقيق . وأنت معروف بشدة ملاحظتك وعمق بصيرتك . ثم انك جوبت آفاق مصر وتعرف أهلها وطبائعهم ولا غيرك يقدر على ذلك يا جبرتى » . .

وكأن للنصيحة الصادقة سحرها ، فسرعان ما تزاحمت فى رأس الشيخ « الأحداث والوقائع » ولكنه لم يكن يدرى من أين يبتدىء وماذا يؤخر . ولذلك ارتد إلى الشيخ الزبيدى يسأله المشورة . فأوصاه بألا يتعجل . . « وأعلم أن ليس كل من نبه ذكره عظم فضله ، فقد ينبت الفضل فى الصدور المجهولة وتغمر الدنيا أصحابه فيجب التنقيب عنه والتنقير عليه » . .

وفعلا كان أول ما فعله الجبرتى أن راح ينقر وينقب فى خزائن كتبه . وبمعونة الخشاب وبقية أقرانه وتلاميذه انشغلوا فى مراجعة « الصكوك والحجج ودفاتر الكتبة والمباشرين » وبلغ الحال انهم كانوا يزورون القرافات ويقرأون النقوش على القبور « لتحقيق سنين وفاة الأعلام » . ثم راح الجبرتى يدونها مرتبة مؤرخة ويعدها فى كراريس ودفاتر حتى انتهى تاريخ المائة سنة التى انقضت .

وإلى هنا كان الشيخ الزبيدى قد مات ، ولكنه وجد النصيحة مرة أخرى

عند صديقه الصدوق الشاعر اسماعيل الخشاب « الجور أعمى فعليك قبل أن تبدأ بتسجيل تاريخ اليوم أن تتحرز كما وعدت » ولم يكن تاريخ اليوم بالأمر العسير . . « فهي أمور نشهدها وأناس نعرفهم وأشياء باقية » ورغم ذلك فقد طالما نبهه الخشاب « لن تعدم الاعداء ، فالذمم مخفورة والضمائر فاسدة وغرائز الشر لا كابح لها ولا وازع فلا تأمن لصراحتك » . وكان رد الجبرتي على هذه النصيحة ما خطه في تاريخه الخالد المسمى « عجائب الآثار في التراجم والأخبار » .

قال الجبرتي موضحا خطته في تسجيل التاريخ (اللهم أنى راسخ اليقين سليم الضمير لن أترضى عظيما ولا أميرا بل ستكون نصيحتي لأرباب الأمر أقامة العدل وحسن السياسة وخدمة العباد مع استشعار الرحمة للضعفاء ونشدان النصفة للناس أجمعين) .

وصدق الجبرتي وعده فأخرج تاريخه كله على هذا النهج الواضح القويم . « وفي شهري رجب وشعبان من عام ١٢٠٥ هجرية وقع « طاعون مهلك وجلفت مع المجفلين . وكانوا ينعون إلى في كل يوم صديقا والطاعون منتشر يجرف الناس إلى القبور وقد وقع الرعب في النفوس فانفضت مجالس العلم وأقفرت حلقات الدرس وتشتت الشمل واشتد الجزع وأصبح كل امرىء مشغولا بنفسه عن سواه . فكومت ما عندي من الكتب والدشتات وخزنتها في دفاتري وأرسلتها إلى ابيار خوفا من دوام الطاعون » .

« وبعد شهور كان الطاعون قد زال بأثاره بعد أن خرج عن حد الكثرة وملت به مالا يحصى من الأطفال والشبان فرجعت إلى التدوين والتحرير والتنسيق لخدمة التاريخ » .

ما خطه الجبرتي مازال إلى اليوم وسيبقى أبد الدهر سجلا ناطقا عن احداث عصره وأناسه . فليس من يجادل في قيمة هذا السفر الحافل النابض بالحياة التي عاشها شعبنا في عصره . . ولكننا نحب أن نزيل ظلامة عن هذا الوجه المشع الذي يلقانا باسما متالقا كلما تلفتنا إلى غابرنا القريب .

أن أغلب الذين تناولوا الجبرتي أجمعوا على أنه كان منحازا بميوله وعواطفه إلى « الأمراء المصريين » أى أن الجبرتي كان يفضل حكم المماليك .

وأصحاب هذا الزعم يستشهدون برواياته المشايعة لبعض أمرائهم . وهذه الفرية لم يقلها إلا نوع معين من المؤرخين يجب أن ينتهى وجودهم وتعدم آثارهم . وهؤلاء هم الذين درجوا على تمجيد ملوك أسرة محمد على وكتبوا تاريخهم مزورين نضالنا وكفاح شعبنا فى ظل رعاية « دوحته العلية » فالحقيقة التى ينطق بها تاريخ الجبرتى أنه لم يكتب الأحداث وهو بعيد عنها وإنما كتب الأحداث وهو مساهم فيها بقدر كبير . فالجبرتى لم يكن ذلك المؤرخ الذى يشهد الأحداث ليسجلها وهو جالس فى مكتبه من بعيد لينتظر العطاء . وإنما كان يؤرخ لوقائع عاشها واشترك فيها بل وطورها .

وإذا كان الجبرتى قد أظهر بعض العطف على المماليك فهو أنما كان يعبر عن روح الشعب حين دهمه « غزو الفرنسيين » إذ من الطبيعى أن ينحاز إلى الأمراء المصرلية . . كما كان يسميهم مهما كانت مظالمهم بدلا من أن ينحاز إلى « عساكر بونابرتة مهما كانت وعودهم » .

وهذا هو الصدق فى أجلى معانيه . . صدق المؤرخ الذى يكتب تاريخ الشعب ليعبر عن حياته والآمه وعواطفه ويرسم ميوله وآماله .

ولا سبيل هنا إلى أن ننقل عن الجبرتى الكثير مما أورد فى تاريخهم المشئوم ولكننا نكتفى بالقليل من لمحاته وهو الذى وصف حكم المماليك فقال « لقد أفحشوا فى الظلم حتى بلغوا الاذقان وسدوا الحناجر » . ووصف تطاحنهم على الحكم « هذه المآسى لا دواء لها إلا أن يجرد الباب العالى جيوشه فيقضى بها على هؤلاء الطغاة » أو كلامه على دوام سلطانهم « لقد أصبح يتزايد عددهم كلما تزايدوا فى افناء بعضهم البعض كأن هناك مفارخ تخرجهم على غير موعد وبدون نظام » . وهذا لون من تعليقاته على عبثهم بمقدرات الحكم « كل هذا يضاعف من حوادث التقتيل والتشريد وعزل الولاة والسخرية بالمراسيم السلطانية » .

بمثل هذه الروح كان يكتب عن المماليك . . وكأى مؤرخ موضوعى كتب عن الفرنسيين « عجيب أمر هؤلاء الفرنسيس جاءوا يحاربون ويغتصبون وأقاموا ليلهوا ويلعبوا ومع هذا أحضروا معهم العلماء والعارفين ولم يقصروا يوما فى البحث والتنقيب واجراء التجارب . . ورغم ذلك فقد وقف فى وجه

احتلالهم من أول دقيقة . . « انهم يتقنون التقرب من الناس ورئيسهم بونابرتة يظهر للمصريين أنه راغب فى خدمتهم وقضاء مصالحهم ولكن الناس لن ينسوا لهم هدم البيوت والمصاطب وقلع الأشجار . أن عمر الغاضب قصير ولو كثر جنده وأشتد بطشه » .

وانتهت الحملة الفرنسية على مصر والجبرتى عضو فى مجلس العلماء . وبدأ محمد على يحيك مؤامراته المعروفة للاستيلاء على السلطة فأوقع بالمماليك فى مجزرة القلعة . ثم شتتهم ، فخادع الشعب ونفى السيد عمر مكرم وأوشك على الانفراد بالحكم فراح العلماء يمالئونه وكل يحافظ على مركزه ومكانته !

وجاء العلماء إلى الجبرتى . الشيخ المهدى والشيخ الشرقاوى ومعهم (المعاريض) ليوقعها باقرار ولاية محمد على . وكانت الفتنة لا تزال قائمة فى البلاد ولم يستتب الأمر بعد للباشا القوللى (نسبة إلى مسقط رأسه فى قوله) وأشار الشيخ المهدى بأنها أمنية الكافة أن يتولى محمد على حتى تسكن الفتنة . فرد عليهم قائلا : « إن الفتنة قائمة منذ أشهر وحصار القلعة مستمر والقنابر تنهمر على الناس ولكن الناس لم تنخلع قلوبهم خوفا لأنهم تعودوها أيام الفرنساوية » . ولكنهم أصروا على ضرورة التوقيع : لأن الناس تريد عزل خورشيد باشا بعد أن أرهقهم بما فرضه عليهم من مغارم وسامهم من مظالم . وكما حاولوا إقناعه « وقبطان باشا رسول السلطان راض عما حرره عموم المشايخ والكبار والأعيان على لسان الرعية فليس أقل من أن توقع المعاريض ونحن راضون كل الرضا عن محمد على ورجاله » .

واضطر الجبرتى إلى التوقيع لأنها كانت المرة الأولى التى ترى فيها أحد الباشوات تنادى به الرعية للولاية .

وعاصر الجبرتى محمد على . ودون تاريخه بنفس نهجه الصادق الذى استنه من البداية . وكان أمينا كل الأمانة فى موقفه من الأحداث حتى أسخط الباشا عليه واضطره إلى الكيد له . وهناك روايات كثيرة عن العداء السافر والمستتر الذى قام بين الجبرتى وبين محمد على . وأبرز هذه الروايات ما يقال عن أن الجبرتى دون تاريخا سريا للفترة التى عاشها من ولاية محمد على واخفاه . وقد أقر أكثر من باحث بوجود هذا الكتاب . ولكن أحدا لم يتقدم

للكشف عنه ونشره . ربما لأن الكتاب قد أعدم . وربما لأنه قد هرب إلى خارج الديار . وهناك احتمال ألا يكون له وجود أصلا .

على أن تحت يدنا نسخة من تاريخ الجبرتى طبعت على نفقة حضرة حسين أفندى شرف الكتبى عام ١٣٢٢ هجرية ـ سنة ١٩٠٣ ميلادية ننقل منها فقرات مما خطه الجبرتى عن حكم محمد على .

ومنها يستبين إلى أى حد كان الجبرتى صريحا فى موقفه من رواية الأحداث .

فى الجزء الثالث صفحة ٣٦٨ يتحدث الجبرتى عما كان يفعله جنود محمد على فيقول :

وذهبوا يوم السبت أول رمضان إلى امبابة ونهبوا ما وجدوه مع الفلاحين وتزيوا بزى المصريين فى ملابسهم وركبوا الخيول المسومة وأحدق بهم الخدم والاتباع ووصل كل صعلوك منهم لما لا يخطر على باله أو يتوهمه أو يتخيله فى عالم الرؤيا مع انحراف الطبع المركب وعمى البصيرة والفظاظة وعدم الدين والحياء . . الخ . .

وفى نفس الجزء صفحة ٣٧١ يتكلم عن محمد على « وفى الخامس عشر من شوال سنة ١٢٢٠ هـ وصلت قوافل التجار من السويس فأرسل محمد على وفتح الحواصل وأراد أخذ بضائع التجار وفروق البن فانزعج التجار بوكائل الجمالية وغيرها ولكن الباشا صمم ولم ينتطح فى ذلك شاتان (أى لم يستطع أحد أن يقف فى وجهه) .

وفى نفس الجزء أيضا صفحة ٣٧٦ عن أسرة محمد على « أذن الباشا لولده الكبير بالذهاب لزيارة سيدى أحمد البدوى فى طنطا وقرر له دراهم على البلاد ألف ريال . وكذلك سافر حريماته وعساكره وخدم وحشم وفراشون وفرضوا لهم أيضا مقررات على البلاد وكلف ونحو ذلك ، أن هذه المحدثات من أهوال القيامة » .

تلك فقرات عابرة مما أورده الجبرتى فى هذا الجزء سقناها لنوضح مدى صراحته فى رواية الأحداث فى ظل حاكم أقل ما قيل عنه أنه كان « يستسهل سفك الدماء » .

وهذه فقرات أخرى من الجزء الرابع من نفس الطبعة :

يقول الجبرتي راويا موقف محمد على يوم رفض السلطان قبول ولايته وأرسل موسى باشا على « الدنمة » ـ الأسطول التركي ليأخذ مكانه ـ صفحة ١١ . . « وشرع الباشا في عمل آلات حرب وجلل ومدافع وأجمعوا الحدادين بالقلعة واصعدوا باحتياجات ومهمات وظهر منه علامات العصيان وعدم الامتثال ورجع إليه كبار العسكر وشاورهم وتناجى معهم فوافقوه على العصيان لأن ما من أحد منهم إلا وصار له عدة بيوت وزوجات والتزام بلاد وسيادة لم يتخليها ولم تخطر بذهنه ولا بفكره ولا يسهل به الانسلاخ عنها والخروج منها ولو خرجت روحه » .

ولعل أبلغ صورة في هذا الجزء وهي الصورة التي تعبر بجلاء عن صراحة الجبرتي ووقوفه في وجه محمد على ووصفه لاعتقال محمد على الزعيم الشعبي السيد عمر مكرم النقيب حتى انتهى الأمر بنفيه إلى دمياط (من صفحة ١٠١ إلى صفحة ١٠٦) غير ذلك فهناك في هذا الجزء الكثير مما يكشف عن صلابة الجبرتي ودقته وجرأته في كتابة تاريخ محمد على .

يقول واصفا أحد الأحداث موضحا كيف كان ينظر إلى مصر كضيعة خاصة له ص ٩٣٢ « واستهل شهر ذى القعدة يوم الأربعاء ١٢٢٥ هـ . وفي ثانية سافر الباشا إلى ثغر الاسكندرية ليكشف عن عمارة الأبراج والأسوار ويبيع الغلال التي جمعها من البلاد في الفرض التي فرضت عليهم وكذلك ما أحضره من البلاد القبلية فجمعوا المراكب وشحنوها بالغلال وأرسلها إلى الاسكندرية لبيعها على الأفرنج فباع عليهم أزيد من مائتي أردب بمائة قرش وسعرها بمصر ثمانية عشر قرشا وهو لم يشترها ولم تكن عليه بمال بل أخذها من زراعات الفلاحين من أصل ما فرضه عليهم من الظلم وتطفيف الكيل والمغارم .

ولعله من الطريف أن نذكر بالمناسبة أن مثل هذا النهج من جانب محمد على كان بعض مؤرخينا الأفاضل يصفونه بأنه ضرب من اشتراكية الدولة التي كان لجد « فاروقهم المفدى » فضل السبق في تطبيقها في مصر .

لكن مثل هذه الأمثلة وأدل منها . . كثيرة متواترة عند الجبرتي ولو طاوعنا القلم لأتينا على كتاباته كلها لما تضمنته من حقائق عميقة واعية . ولذلك نكتفي بهذا القدر .

ولم يكن من المعقول قطعا من حاكم في جبروت محمد على أن يسكت أو يغض الطرف عن مثل هذا المؤرخ . غير أن مكانة الجبرتي بين الناس في مصر وشهرته بين العلماء وبين المستشرقين في أوربا لم تمكن محمد على من أن يوجه إليه ضربته المباشرة . كان من المحال قتل الجبرتي كما يقتل غيره . ولكن لم يكن من الصعب التضييق عليه ومحاربته . وقد أشار الجبرتي إلى ذلك تلميحا إذ يقول مؤرخا لعام ١٢٢٥ هجرية .

« وانقضت السنة بحوادثها التي قصصنا بعضها إذ لا يمكن استيفاؤها للتباعد عن مباشرة الأمور وعدم تحققها على الصحة وتحريف النقلة ونقصهم في الرواية فلا أكتب حادثة حتى أتحقق من صحتها بالتواتر والاشتهار » .

لقد ظل محمد على يضيق عليه الخناق حتى أبعده عن الحياة العامة ومخالطة الناس فلم يعد يأمن « لتحريف النقلة ونقصهم في الرواية » يقول الجبرتي « وربما أخرت قيد حادثة حتى أثبتها ويحدث غيرها وأنساها فأكتبها في طيارة حتى أقيدها في محلها إن شاء الله عند تهذيب هذه الكتابة وكل ذلك من تشويش البال وتكدر الحال » . على أن هذا العنت الذى لاقاه لم يمنعه الى آخر لحظة من أن يسجل التاريخ بعين فاحصة دقيقة ويذكر الحقائق بغير مواربة أو استكانة أو خوف من بطش .

وأخيرا لم يجد الباشا مناصا من أن يوقف هذا القلم .

وفي ذات صباح روع الجبرتي وأهل بيته بدخول « لمة من الناس » يحملون ابنه خليل بين الموت والحياة . وكان خليل يشتغل فلكيا في سرايا محمد على بشبرا فهاجمه الأشقياء ليلا واثخنوه جراحا حتى قضى نحبه .

ومن بعدها طوى الشيخ الكبير كراريسه وحطم محابره وفاض دمعه حتى كلت أبصاره إلى أن جاءته « قاصمة الظهر » بوفاة ولده الأثير إلى قلبه . فقبع في داره أعمى لا يقرأ ولا يكتب . . وكان قد فرغ منذ شهور من تهذيب كتابه الخالد وانشغل بعدها في تدوين كتاب عن أحداث « الثورة اليونانية » .

وتحقق انتقام محمد على . فكان انتقاما رهيبا . لكنه لم يستطع أن يحرم أجيال مصر . . بل أجيال العالم أجمع من أروع الصفحات التي سجلت عن تاريخ بلاد النيل ومهد الحضارات .

رفاعة رافع الطهطاوى

١٨٠١ - ١٨٧٣

كثر اللغط وتبادل الناس الهمس فى رحاب الجامع الكبير بعد الصلاة . وكان الجو قائظا حارا على عادة الجو فى طهطا . فما كاد الناس يفرغون من الصلاة حتى قاموا فرادى لتحية الرجل الذى اخترق صفوفهم وهم جلوس ينصتون الى خطبة الجمعة . . وفى صدر المقام وقف رفاعة رافع يستند بظهره الى الحائط الجامع الذى يضم رفات جدة الشيخ أبى القاسم الحسينى .

كان الامام الشاب يقف خاشعا بجوار خاله الشيخ فراج الانصارى وعلى رأسه عمامة ثقيلة وهو يهزها فى ابتسامة هادئة ويخطف كفه فى

استحياء غريب من بين الايدى التى أمتدت لتقبيلها . . وبعضهم يمسح على كتفه والبعض يهمس فى أذن خاله . . حتى اذا خلا الجامع الكبير وأغلقت ابوابه . . كانت طهطا بأسرها قد عرفت الحقيقة .

تعود أهل طهطا فيما تعودوا على بداية رمضان المعظم من كل عام أن يترقبوا مزار الشيخ رفاعة الصغير ليستمعوا الى ما يلقيه عليهم من دروس وليفقههم فى دينهم الحنيف طوال الشهر المبارك حيث يحلو السهر لسماع كلام الله وذكر سيرة رسوله حتى مطلع الفجر عند السحور ، عندما يتبين الخيط الابيض من الخيط الأسود .

ولكن رفاعة زارهم هذا العام فى غير موعده ، اذ كنا لا نزال فى شهر رجب وتناقل الناس الخبر فى استغراب . . فما السر يا ترى ؟ !

لقد جاء الامام الصغير فى أجازة قصيرة ليودع أهله ثم يرتد الى بلاد الغربة النائية بأمر من الباشا .

كان رفاعة بعد أن أمضى ثمانية اعوام فى الأزهر قد عين اماما فى الجيش للفرقة التى يرأسها حسن بك المانسترلى . . وداوم على الخدمة فاذا به يظفر بتزكيات الكثيرين . . فلما فكر الباشا محمد على فى ارسال أول بعوثه الى اوربا اختاروه ليرافق البعثة الموفدة الى باريس أماما شرعيا لها .

ومرت ايام عليه فى طهطا . . وذات مساء تجمع الناس أمام بيت الشيخ فراج الانصارى حتى وافاهم رفاعة فى جمع من أهله . . وصلوا العشاء . . وكانت هناك وليمة أقامها بيت الانصارى لوداعه قبل السفر . . وكان لا بد أن يقف ليكلم الناس بفصاحته . . وهو سيد الفصحاء فى طهطا .

« يا أخوانى . . لا يشق على قدر فراقكم ولكن لابد مما ليس منه بد ، وسارحل غدا بأذن المولى الى المحروسة وذلك قبل أن يحل شهر رمضان المبارك . . ثم انحدر فى النيل لابلغ الاسكندرية فى خمسة من رمضان أن شاء الله . . ومنها سنمتطى سفينة حرب تقطع بنا البحر . . ونبعا لرغبة الباشا ولى النعم سنسافر الى مارسيليا من ثغور فرنسا فى رحلة تستغرق ثلاثة وثلاثين يوما . . لقد تركت خدمة الجيش وإمامة الجند لأرحل مع البعثة المصرية العلمية التى انتخبها الباشا . . لقد رأوا فينا الأهلية واللياقة لوظيفة الامامه وسأرافق الطلاب الى باريس » .

● الطهطـــــاوى



وهتف الناس وهللوا وكبروا . آعجابا بنابغة طهطا ، حتى اذا رفع يده من جديد ساد صمت مفاجىء « أنا أن تركت وطنى فانما اتركه بجسمى لا بروحى فحب الوطن من الايمان ومن طبع الاحرار الحنين الى الأوطان ، ومولد الانسان على الدوام محبوب ومنشؤه له مرغوب ، والكريم لا يجفو أرضا بها قوابله ولا ينسى دارا فيها قبائله .

يا اخوانى . . أنا وأن البستنى المحروسة نعما ورفعت لى بين أمثالى علما فمازلت أتشوق الى الوطن الخصوصى . ولا اساوى بطهطا الخصيبه سواها فى القيام بالحقوق وأكرام مثواها .

منـــازل لست أهـــوى غيـــرهــا ، سقيت
حيـا يـعــم وخصـت بـالتحيـات

وعاد الناس يهتفون مهللين مكبرين . . وانصرف الجميع فى وجوم . . حتى اذا اصبح الصباح تجمع البسطاء من أهل طهطا عند جسر النيل . . وركب كبارهم بالزاد والزواد الى اسيوط ، والقلوب كلها تهتف وراء ابن طهطا وهو فى سيره الى البحر الكبير .

وهناك فى باريس عاش رفاعة خمس سنوات طوالا . وذات صباح كانت أجراس الكنائس تدق احتفالا بالرابع عشر من يوليو عيد الثورة الفرنسية ، وكان الأمام الشاب يجلس واجما لا يطيق مكابدة الشوق والحنين لارض مصر . . ودخل عليه شاب من اعضاء البعثة يريد أن يصحبه فى جولة حول مدينة النور . . ولكنه أبى « فما عاد يشغلنى بعد كل ذلك . . الا الحنين الى طهطا . . » وجاء طالب آخر ومعه تقرير البعثة . . وكان موعد العودة قد تحدد بعد شهور . . ووقف الطالب يقرأ عليه ما جاء فى التقرير خاصا به .

— « اسمع يا رفاعة ما يقوله عنك المسيو جومار وهون عليك » .

ولكن رفاعة ظل صامتا والطالب يقرأ :

« وممن امتازوا بين هؤلاء الشبان الشيخ رفاعة الذى ارسل مع البعثة اماما فأتقن الترجمة ، والشيخ رفاعة هذا رجل مثقف فهو لا بد أن ينجح فى ترجمة الكتب التاريخية وقد ذكرنا ما للشيخ رفاعة فيه من التفوق . وأنا لنقول بلا خشية من هذا القول . أنه سيكون من الذين ينفعون مصر فيما بعد اعظم نفع . . »

ورفض الشيخ أن يخرج معهما . . وفضل أن يبقى لمراجعة مسودة كتابه عن باريس . . « تلخيص الابريز الى تخليص باريس . . » حتى اذا قارب الغروب طرق عليه الباب استاذ من اساتذته هو المسيو جوزيف اجوب وكان يحمل اليه بشرى كاد يطير لها فرحا .

اخيرا . . جاء وقت الرحيل . . وحانت فرصة العمر وتقررت عودة البعثة الى مصر بعد اسبوعين . . وانطلق الطائر الحبيس يغرد :

أحن الى ارض الصعيد وأهله
ويزداد وجدى حين تبدو قبابها
وتذكرها فى مهجة الليل مهجتى
فتجرى دموعا اذ يزيد التهابها
بلاد بها كان الشباب مساعدى
على نيل آمال عزيز طلابها
وما صعبت يوما على ملمة
وشاهدتها الا وهانت صعابها
مواطن أهلى ثم صحبى وجيرتى
وأول ارض مس جلدى ترابها

وفى يوم السفر أهدى هذه القصيدة بأبياتها العامرة الى استاذه الفرنسى ليترجمها « تذكارا بمناسبة تركنا باريس » .

وعاد الى مصر . فعينوه ناظرا لمدرسة الالسن . . وانصرف الى جمع التلاميذ لها من الاقاليم والبقاع . . وهو على ما هو . . صبور مثابر قوى

العزيمة عالى الهمة يزهد فى النوم والراحة زهد العابد فى الملاذ . . واتسعت مدرسة الالسن وشملت بملحقاتها ادارات واقلاما حتى ضاقت بها رحاب سراى الدفتردار . . وكان الشيخ رفاعة لا ينى ولا يهدأ . . « يعقد الدرس بعد العشاء أو عند ثلث الليل الاخير » . . وكان أحيانا ما يلقى الدرس على طلبة الترجمة فيستغرق اربع ساعات يقطعها واقفا على قدميه فلا يجلس .

كان رفاعة الطهطاوى يؤمن بأهمية التربية الوطنية . . وقد لخص مبدأه فى آخر خطبة القاها على تلاميذه فى مدرسة الالسن . . أن خدمة مصر ، فريدة العصر ، دار هجرة الفهم ، المبرزة لكل شهم ، من خير ما أفتى به اللبيب وافتن واعتنى به واقتناء ذخيرة للزمن ، بل هو فرض على كل من كان من بنيها أو مستوطنا فيها .

ولما تولى عباس الأول الحكم كان الطهطاوى قد اقدم على ترجمة « دستور فرنسا » ونشره مفسرا معه ما جاء فيه من بنود عن « حقوق العوام » وبوشاية من بعض المشايخ المتعصبين أوغروا صدر عباس على الشيخ رفاعة وكان دليلهم هذا الكتاب وهدفهم ابعاده عن التعليم خوفا على طرائقهم من المدرسة التربوية الحديثة التى كان يبشر بها فى مدرسة الالسن التى ما لبث أن اغلقها عباس هى الاخرى فيما اغلق من مؤسسات كثيرة . . واذا بعباس ينتزعه من مدرسة الالسن ويختار له نظارة المدرسة الابتدائية فى الخرطوم وأبعده الى السودان . . وهناك عاش اربع سنوات « فو الله ما حصل لهمتى فتور ولا قصور فى مدى الثلاثين سنة الماضية . . لكن هذه الاربع السنوات التى قطعتها فى الخرطوم كادت تلاشى جلدى » . . اذ أن مدرسة الخرطوم « كانت اسما بلا جسم من غير الخوجات » . . ولكن وجوده فى الخرطوم رغم ما لاقاه من صعوبة فى العيش وتحقيق الغرض لم يمنعه من أن يخفف من حدة تشوقه الى مصر . . اذ كان يرى فى السودان أهله وعشيرته . . لو تألفت القلوب من ولادة أرباب صداقة وعفاف وعدل وانصاف لزالت من السودان وسائل الوخامة ودخلت أهاليها بحسن الادارة فى دائرة الاستقامة ولصارت هى وديار مصر فى العمار توأمين وفى ايناع الاثمار صنوين حتى ينشد لسان حالهما :

نحن غصنان ضمنا عاطف الوجد
جميعا فى الحب ضم النطاق
فى جبين الزمان منك ومنى
غرة كوكبية الانفساق

فقد كان الطهطاوى يرى أن السودان ومصر قطر واحد يكملان بعضهما البعض . وبعد وفاة عباس الاول وتولى سعيد بسبعة ايام فقط صدر أمر بالغاء مدرسة الخرطوم وقفل رفاعة عائدا الى مصر بعد أن توسط له فى العودة صديقة ادهم باشا .

وعاش فى القاهرة فى أول الامر لا يجد ما يفعل حتى عين ادهم باشا مفتشا عاما للمهمات والمدارس وكان يرغب فى نشر التعليم الاهلى على نطاق واسع فلختار صديقه رفاعة لمعاونته . . يقول الطهطاوى « وكانت غايتنا نشر التربية الاهلية وادخال المعارف فى افراد مراتب الرعية على اختلاف درجاتهم والتسوية بين الاعيان والرعاع فى مادة التعليم الاهلى . . وطبيعى أن يكون أول خطاه انشاء مكتب اهلى للتربية فى طهطا « الحبيبة » ولكنه ما كاد يشرع فى ذلك حتى نقل ادهم باشا محافظا للقاهرة . .

« وبقيت أنا مدة طويلة بلا عمل يوكل الى حتى ضاق بى العيش فالحقنى ادهم باشا تحت رئاسته مترجما فى مجلس المحافظة » .

ولكنه لم يطق الاقامة مدة طويلة على هذه الحال فسعى ادهم باشا له مرة ثانية حتى وقع عليه الاختيار ليكون ناظرا للمدرسة الحربية بالحوض المرصود التى كان قد تقرر نقلها الى القلعة . . ودخل عليه ادهم باشا ذات صباح فى ديوانه بالمحافظة فقبله وهناه « أمنيتك وغايتك يارفاعة . . هذا منصبك الحقيقى نريد أن تجدد به عهد مدرسة الالسن فتبذل همتك المشهورة فى ذلك وترتب لها من الانظمة ما يجذب الاهلين اليها وتختار من المدرسين كل من لك به ثقة من أهل العلم والمعرفة التامة المدربين على تعليم العلوم وافادتها » .

وعلى عهد اسماعيل كان رفاعة الطهطاوى قد اصبح موجه التعليم الحقيقى فى مصر .

فهو الذى كان يرأس ديوان المدارس وينظم المكاتب الاهلية ويمتحن الشيوخ والفقهاء ليختار منهم الاكفاء لوظائف التدريس . . هذا الى جانب اشرافه على التفتيش فى المدارس الأجنبية . . ولا سبيل الا القول أنه بذلك أقصى جهوده فى نشر التعليم وتمدين البلاد وهو الذى كان يؤمن بالمعرفة كمفتاح لتقدم وطنه .

على أن أهم ما يجب أن يقال أن رفاعة الطهطاوى كان أول داعية للقومية المصرية الحديثة . . وهى تلك القومية التى أنبتها كفاح الشعب المصرى وتبدى أول ظهورها فى اختيار الشعب بنفسه لحكامه . . وقد كان سبيله الى ابراز هذه القومية فيما حاوله من ترجمات لامهات الكتب الأوربية التى تجلب التمدين وتعمل على رقى أهالى البلاد . . ولعل خير ما نختتم به هذه الصورة العاجله من حياة رجلنا الكبير قطاف من بعض مقال له فى مجلة روضة المدارس . . وهى المجلة التى أنشأها لتكون تتمة رسالته فى نشر العلم والتعليم . . فالجرنالات هى مدرسة الرعية التى تقول ما يخطر لها وتستحسن وتستقبح ما تراه حسنا أو قبيحا فى تدبير أمور الدولة بحيث توجد الادمغة المفكرة . . يقول عن مصر :

« مصر جديرة بالحب لخصبها وخيرها وهى بلد العلم والحكمة من قديم الدهر وحديثة » .

ويقول عن دور المواطن فى خدمة وطنه :

« أن الله سبحانه وتعالى قد اعد الناس للتعاون على اصلاح وطنهم ، فالوطن انما هو منزل آبائهم وأمهاتهم ومحل مرباهم فليكن ايضا محلاً للسعادة المشتركة بينهم » .

أما الوطنية فتتمثل عنده فى أن « الوطنى المخلص فى حب الوطن هو الذى يفدى وطنه بجميع منافع نفسه ويخدمه ببذل جميع ما يملك ويفديه بروحه ، وصفة الوطنية لا تستدعى فقط أن يطلب الانسان حقوقه الواجبة له على الوطن بل يجب عليه ايضا أن يؤدى الحقوق التى للوطن عليه » .

وهذا قليل من كثير مما خلفه الرجل الذى ضمت مكتبته الخاصة أربعة آلاف وخمسمائة كتاب من مختلف فنون الثقافة . . وترجم هو وتلاميذه من أمهات الكتب ما يقارب الألف كتاب .

الافغانى

١٨٣٨ ـ ١٨٩٦

من سنوات وأنا أتردد على شخصية الافغانى وحياته وسيرته . . أحاول أن التقط له صورة من تلك التى شغفت بالتقاطها من بين صفحات التاريخ . . لكنه كان دائما صعب المنال . . فالذى كتب عن الرجل والذى سجله هو نفسه أقل من أن يفى ادراك الابعاد الشاسعة التى يمثلها أو التى تتمثل لنا عادة عنه كلما قلبنا تاريخ الحقبة التى ظهر فيها . . ذلك أن الافغانى لم يكن من الرجال الذين تصنعهم الاحداث . . وأنما خلق ليصنع الاحداث . . فقد خرج من باطن التطور الانسانى فى ظل المرحلة التاريخية التى بدأت



بأضخم احداث عصرنا الحديث . . وخرج فى ظروف وأوضاع تجعله يبدو وهو من عمالقة التعبير . . وكأنه وليد احداث زمانه وليس مولدها أو على اقل تقدير مشعل نارها ومؤججها !

والذى يكشف لنا مدى ضخامته اطـار الاحـداث التى احـاطت بعصره . . لانه ولد فى اوج ازدهار الامبراطوريات الرأسمالية . . مواطن من ابناء الشرق الاسلامى الذى كان على اواسط القرن الماضى يتملص بقومياته الجديدة الوليدة من بين براثن الامبراطورية التركية المحتضرة ليقع فى قبضة السيطرة الاستعمارية الفتية المتوثبة . . وطنا بعد وطن . . وفى نشأته وشخصيته ومواهبه . . كل الصفات التى تؤهله لان يكون من كان . . عالما دينيا ومفكرا انسانيا ومصلحا اجتماعيا وخطيبا وكاتبا وفيلسوفا . . لكنه قبل هذا وفوق هذا كله سياسى من الطراز الأول . . وليس مجرد سياسى وانما على حد ما وصفه أنجب تلاميذه الشيخ محمد عبده « يتمع باقصى ما قدر للبشر غير الأنبياء من قوة الذهن وسعة العقل ونفاذ البصيرة . .هذا فضلا عن شخصيته ذاتها » ففيه طاقة روحية ومغناطيسية تكفل له السيطرة الكاملة على كل من حوله . . مع جرأة ومهابة وطموح مباشر الى مقصده السياسى .

شخصية الأفغانى اذن هى الأساس فى عبقريته . . هذه الشخصية لا تتكامل صفاتها ولا تكشف عن نفسها الا فى مجال الزعامة السياسية . . ومن أجل هذا كان لا بد أن يرتطم الافغانى بأعنف الاحداث السياسية فى وطنه فنراه يوم يتم للانجليز التدخل الفعلى فى افغانستان يغادر بلاده الى الهند بعد أن تخلى الامير الذى كان يناصره عن مقاومة الانجليز . لكنه ما أن يصل الى

الهند حتى تصدمه السيطرة الأنجليزية على الهنود وخضوعهم العجيب فى حين أنهم على حد وصفه « ملايين من البشر ولو كانوا ملايين من الذباب لكاد طنينهم يصم آذان بريطانيا » والحق أن الاحداث فى الهند مثلما هى فى أفغانستان كانت أقوى من أن يتوقف الافغانى لمقارعتها . . وسرعان ما تراه يولى وجهه حيث لا تزال الاحداث بكرا لم تتبلور ولم تنضج ، وليس من العسير أن تكون له يد فى توجيهها . ويصل الى مصر عن طريق السويس فما يكاد يقيم بها أياما حتى يكتشف أن مجالها أضيق من أن يتسع لطموحه السياسى ، ولأن القوم فى مصر نظروا اليه من الزاوية الدينية . . فسارع الى الاستانة وقد نبت فى ذهنه أن عاد الى مصر أن يبعد بنفسه عن محافلها الدينية . . ولهذا لم يدخل الأزهر طوال الاعوام الثمانية التى قضاها بعد ذلك الا زائرا ومصليا ولم يحاول أن يلقى فيه درسا واحدا . . وبالمثل كان مسلكه فى أول زيارة لتركيا فقد تركز احتكاكه فيها على رجالات السياسة وكان له الفضل فى وضع البذور الاولى للدعوة الدستورية التى نمت بعد ذلك هناك . . ورغم هذا فانه لم يسلم من حقد رجال الدين والرسميين منهم خاصة . . مع أنه رفض التقيد بأى منصب دينى وابتعد عن مجالاتهم كلية ففضل أن يكون من رجال التعليم واشتغل فى مجلس المعارف . . ومع كل فقد اضطر الى مغادرة تركيا بدورها لتعارض آرائه السياسة مع رجال الدين . . فقد وقف الافغانى يخطب فى دار الفنون مشيدا بالصناعات والفنون وما حققته للناس من منافع ووصل به الاطراء الى حد مقارنة أعمال الفنون بما يشبه معجزات النبوة فاذا بشيوخ الاسلام يتهمونه بالالحاد وينادون بمغادرته للبلاد . . وترك الاستانة غير آسف وهو يندد بهم صارخا : « جمود المتعممين سيضر بالاسلام والمسلمين » واتجه الى الحجاز ولكن صحته لم تساعده على الأقامة فيها .

وصف الافغانى مصر بأنها أحب بلاد الله الى نفسه . . ولهذا فلا عجب أن عاد اليها لتكون مستقره وأن يصلها فى علم ١٨٧١ وهى انضج ما تكون حاجة اليه . . فالبلاد على عهد اسماعيل تحاول الاخذ بأسباب التقدم العصرى . . ومعالم نماء قوميتها الجديدة تتكشف عن شعب عريق حى غارق فى أشواك الاستبداد . . ثم أنها من الوجهة الدينية وفيها جامعة الأزهر تمثل خير منطلق

لكل دعوة اسلامية متفتحة . . ليس فيها التزمت الرسمى القائم فى استامبول ولا الشكليات التى تفرضها ظروف الحجاز . . وأنما يستطيع الافغانى أن يرفع صوته فى خدمة القضية الاسلامية عن الطريق الوحيد الاكيد لاعلاء شأنها وهو نهضة العالم الاسلامى على اسس من الحضارة الحديثة . . ثم أن مصر بظروفها القائمة ميدان بكر لدعوته السياسية . . وهكذا كانت البداية عنده فى مصر عن طريق الصحف لانها أقرب الى عقول العامة . مع الاحاديث فى المجالس والخطابة فى المحافل لا يقاظ الهمم الراكدة وتحريك العزائم الخامدة . . ولم يلبث الافغانى فى دعوته أن اكتشف فى الرعية المصرية طاقة على التحمل والصبر فى قبول الذل والضنك ومقدرة لا تدانيها مقدرة على مقابلة المصائب بالمرح والابتسام . ولم يكن هذا شأن المصريين خاصة . . فهى خصال ينبتها الركون الى الاستبداد ، وكما حددها الكواكبى « أن من طبائع الاستبداد أنه يخلق التواكل والاستخفاف فى الرعية » كانت هذه هى سمة العصر بل الصفة الغالبة على شعوب الشرق كافة . . ولذلك لم يتوان الافغانى فى الاندفاع مباشرة نحو السياسة العملية ، وتاريخ الثمانى سنوات التى اقامها فى مصر يشهد بأنه كان وراء كل انبعاثة سياسية شهدتها البلاد . . ابتداء من الجمعيات الدينية والماسونية الى تأسيس الحزب السياسى الوطنى . . ولعل ابرع من ادرك اهمية دوره لورد كرومر نفسه حين نعته بالدرويش الذى يحرك أربعين تابعا . . وهو يقصد تلاميذ الأفغانى .

وقد بلغ من جرأته أنه لم يقنع بمن حوله من المثقفين فنزل الى مخاطبة الفلاحين بعنف « عجيب لك ايها الفلاح تشق الارض بفأسك باحثا عن رزقك . . لماذا لا تشق بهذه الفأس صدور ظالميك » وطبيعى أن ينتهى الحال بنفيه بعد اتهامه . . لا فقط بالالحاد أو الافساد . . وأنما بمحاولة الاتجاه بالبلاد نحو النظام الجمهورى .

أخرجت بريطانيا الاسد الهائج من مصر لتكتب عليه النفى فى الهند فتحددت اقامته هناك سنوات ثلاثا ولم يسمح له بمبارحة كلكتا الا بعد تصفية الثورة العرابية . . لكن . . لم يكن من السهل على الرجل بعد تحريكه الاحداث فى مصر أن يقبل الصمت فى الهند فكان سبيله الوحيد الى مناجزة

وهنا نراه ينبرى باصالة لمحاولات المستعمرين زعزعة العقيدة الاسلامية والفت فى عضد المسلمين بنشر رسائله فى الرد على الدهريين . . وخلاصتها بيان الدور الحيوى للاديان السماوية والاسلام خاصة فى تأكيد قيمة الانسان « كأشرف مخلوقات الارض . وحامى حمى وطنه والساعى الى الارتقاء بالحياة الدنيا الى أعلى المستويات اللائقة بخير الاحياء » وتكشف رسائله عن نفاذ بارع فى النظرة الى افاق الصراع السياسى الذى اصبحت تفرضه طبيعة الاستعمار كنظام توسعى عالمى لابد من مقارعته مقارعة جماعية . وذلك ما جعل الافغانى يقبل عن طواعيه مغادرة الهند والسفر الى أوربا . وأن لم يطق الاقامة فى الهند وفضل الرحيل الى باريس لبدء مرحلة جديدة من نضال سياسى أشمل للدفاع عن قضايا الشعوب الشرقية ، كافة واتسم هذا النضال بالمباشر العملية اذ رفض منهج الشيخ محمد عبده الذى لحق به هو الاخر منفيا الى باريس . . فى محاولة تكوين كادر من الزعماء للدعوة الى الاصلاح التدريجى المدروس . . فالاصلاح الحقيقى لا يكون بالغفله عن ايجابيات العصر وأنما بالمباشرة الفورية الناجزة . واتهم تلميذه بأنه « مثبط اذ يعتمد على فوات الوقت » ثم شرع توا فى تكوين الجمعية السرية التى عرفت بالعروة الوثقى وارسالها داخل حدود الاقطار الشرقية المغلوبة على أمرها « لاحياء الامل فى النفوس والأخذ بالافكار الصحيحة القائمة على المعلومات الاكيدة والتجارب الثابتة ، وهذا النهج العلمى الواضح يتفق تماما مع عقلية الأفغانى ويبدو أثره جليا فى مقالاته التى كتبها أيلمها لدحض المفتريات حول خضوع المسلمين واستسلامهم الاعمى للقضاء والقدر . . لقد كثر لغط المغفلين من الافرنج حول مغبة الجبر عند أهل الاسلام وأنه يسلبهم القدرة على التقدم ومسايرة باقى الامم العصرية . . ونسوا أن مآل اليه حال الشرقيين انما مرجعه الى اطماع الافرنج ذاتهم وما يطبع امراءهم وحكامهم من جراثيم الفساد الذى هو منشأ الضعف ومجلبة القنوط والشقاء » .

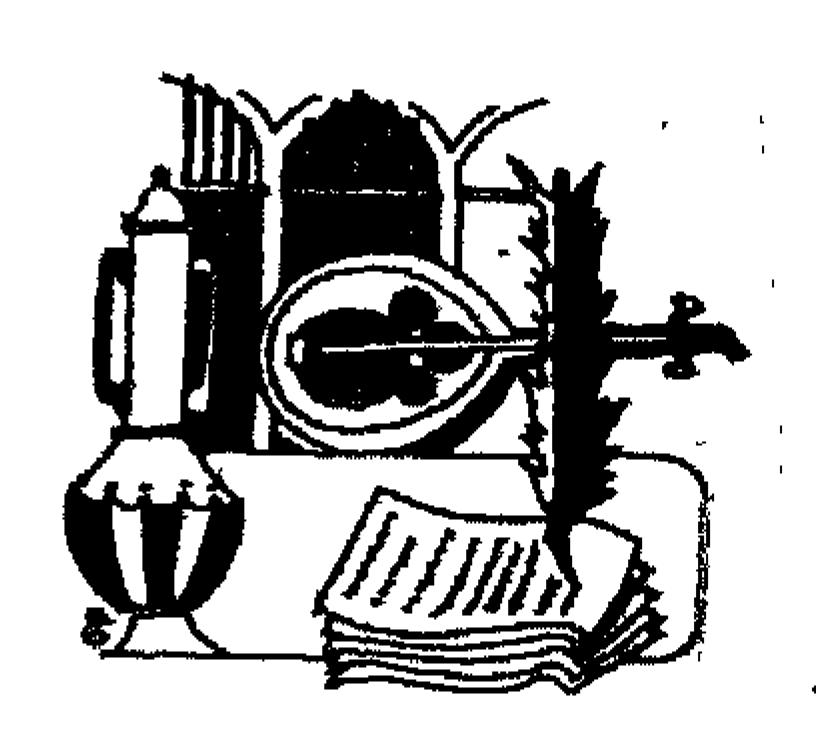
وكان من الطبيعى أن يقلق وجود الافغانى ونشاطه الدوائر الاستعمارية فى فرنسا مثلما فى انجلترا فتعرض أعوانه لشتى ألوان الاغراء وانتهى المال

بمعظمهم في مدى سنوات قليلة الى اليأس أو الخنوع والتردى في حبائل المستعمرين ، وقد بلغ الامر حد محاولة رشوة الأفغانى نفسه فعرضت عليه الحكومة الانجليزية بواسطة اللورد سالسبورى نظرا لما كان يتمتع به من نفوذ في الدوائر الاسلامية أن يعاونها على قمع فتنة المهدى ويتولى العرش في السودان وقبول السلطنة والقيام بالاصلاحات التى يريدها هناك . . ولا عجب أن يكون جواب الافغانى السخرية المريرة من العقلية الاستعمارية التى لا تؤمن بأن في الدنيا رجالا احرارا « ليس من شواغلهم استجلاب المنافع الشخصية » ثم أن السودان ليس ملكا لبريطانيا حتى تتصرف في أهله على هذه الصورة وقد ضاق الرجل بالحياة في اوروبا بعد ذلك وكر راجعا الى الشرق . . وكان في نيته بداية الهجوع الى مسقط رأسه . . لكنه فوجىء بشاه ايران يدعوه الى بلاده . . وهناك كان لابد أن يقع الخلاف بينه وبين الامبراطور العجمى حول الكثير من المسائل وابرزها تغلغل النفوذ الانجليزى في مملكته . . وبعدها مباشرة . . ارتحل الافغانى الى روسيا وفي ظنه كسب قيصر بطرسبورج الى جانبه في مقاومة النفوذ الانجليزى المسيطر على الشرق . . اذ كانت الامبراطورية القيصرية أيامها في أوج تنافسها الاستعمارى مع امبراطوريات الغرب الرأسمالية . . وطوال السنوات الاربع التى عاشها هناك . . حاول الافغانى ما وسعه الجهد أن يركن الى مناصرة ملايين المسلمين الرؤس في وسط آسيا . . وفعلا نجح في خلق رأى اسلامى موحد يعاضده في تلك الاصقاع الممتدة الى حدود ايران . وكان لذلك وقعه وصداه على الشاه الفارسى نفسه فما أن أمر القيصر بابعاده من الارض الروسية حتى تابعه الشاه بالدعوة الى الاقامة في ايران نظرا لما كان يتمتع به من سمعة طيبة بين أهلها كزعيم اسلامى ومصلح اجتماعى . ولم يغير الأفغانى نهجه ولا موقفه بل ظل على عناده السياسى في محاولة اقناع الشاه باقامة حكمه على اساس من الدعائم الدستورية ومشاركة الشعب ، وكان منطق الافغانى في محاوراته للشاه أن الامة الايرانية تستطيع أن تعيش بغير ملك . لان هناك كثيرا من الامم استغنت كلية عن ملوكها ولكن الشاه لا يستطيع أن يكون ملكا اذا لم تكن له رعية من أمته . . ولم يحل عام ١٨٩١ الا وكان

الأفغانى ق طرد ثانية من ايران وقذف به الى البصرة « مهلهل الثياب يرتجف من شدة البرد وقد تحطم بدنه ووضعت فى يديه السلاسل » وهناك لم يعدم وجود « هدايت باشا » وهو من الولاة الاتراك المستنيرين . فاستضافه وأكرمه حتى شفى تماما من مرضه . . وظل فى البصره على صلة بأحداث فارس يحرض أنصاره داخلها على مقاومة الشاه ويكشف لهم عن نوايا الانجليز . والفضل يعود للأفغانى فى أقناع الزعماء الشيعيين بتحريم التدخين والقضاء على احتكار الانجليز للتبغ واجبار الشاه على فسخ عقود الشركة الانجليزية . . وله فى ذلك كلمات عميقة يحلل بها حقيقة الاستعمار وأصله « لانه يقوم على المغانم الاقتصادية التى تدفع بأصحابها الى المحافظة عليها بالوسيلة الوحيدة الفعالة وهى الاحتلال الضامن للسيطرة والاستحواذ ثم تكوين الثروة بمداومة الاستغلال المأمون الجانب » .

وكان من المحال أن يستمر الافغانى مقيما بالبصرة خاصة بعد أن أرسل السلطان عبد الحميد يعترض على سفره الى الحجاز . ومن سوابقه فيها تكوين جمعية أم القرى وهى النواة الاولى التى بذرها الأفغانى لفكرة الجامعة الاسلامية . . ولكنه استطاع بمعاونة والى البصرة المتحرر أن يحصل على أذن بالسفر الى انجلترا تحت ستار المعالجة الطبية من مرض مهلك . . وافلت الى هناك قبل أن يرجع الصدر الاعظم عن موافقته . وفى لندن التف حوله بعض اذناب الاستعمار لاقناعه بما وصفوه بأنه تحقيق السلام والمحبة بين أهل الشرق والغرب . . وعانوه بالفعل على اصدار مجلة شهرية باسم « ضياء الخافقين » استغلها الافغانى لفضح اساليب الشاه فى حكم ايران . . وحاول أن يجعل منها اللسان المعبر لجماعة تركيا الفتاة وأنصارهم من دعاة الاصلاحات الدستورية فى تركيا . ولما تنبه السلطان العثمانى بعث فى طلب الافغانى ليكسبه الى جانبه فوجدها الرجل فرصة مناسبة ليتخلص من براثن الانجليز وفى نفس الوقت يبذر دعوته فى التربة التى مهدها دعاة الاصلاح من الاحرار الترك . . واشترط قبل السفر الى استانبول قيام ميثاق سماه ميثاق الرقى والتعاون يقر فيه السلطان دعوة الامم العربية الى « مد يد الاخاء بعضها الى بعض لتنهض بالصناعة والعلوم فى ظل الاستقلال القومى والاتحاد الاسلامى »

وفى أول الامر رحب السلطان عبد الحميد بدعوة الافغانى بل سمح له بأن يجمع الانصار حوله ويروج لها . . ذلك أن الدعوة فى ظاهرها كانت خير ما يمكن أن يسند ظهر الخلافة العثمانية وهى على مقعد الاحتضار . وظل الافغانى على مدى عامين كاملين يهز جنبات الاستانة ونجح فى التأثير على السلطان حتى اصبح من اقرب خاصته فلما اكتشفت محاولات اعضاء حزب تركيا الفتاة وحركاتهم الرامية الى فرض الحياة النيابية بدأت المناورات تحاك حوله وحول موقفه من السلطان نفسه . فأتهم بأنه يخاطب السلؤان قلخجة غريبة ويلعب بالمسبحة فى حضرته . . وانه حين سئل عن ذلك قال « أن جلالة السلطان يلعب بمقدرات الملايين من الأمة على هواه . . وليس من يعترض . . أفلا يكون من حقه أن يلعب بمسبحته كيف شاء » . . وتدرج الاتهام الى حد رجمه بالالحاد ثم معاداة الخلافة والنزوع للجمهورية . . وحين جاءت الانباء الى تركيا بأن شاه ايران قد اغتيل وأن القاتل الذى اغتاله هتف باسم جمال الدين الأفغاني وهو يطعنه . . أبعد الأفغانى عن حظيرة السلطان . . وكانت السلطة مواتية للسيد أبى الهدى (الحاكم الحقيقى لتركيا) لكى يجبره على ملازمة داره مثلما فعل مع النديم . . فعاش الاعوام الثلاثة الباقية من حياته فى عزلة تامة . ومات فى ٩ مارس علم ١٨٩٧ وكأن القدر كان يعد له أقسى سخرياته ، مات باصابة سرطانية فى فمه وهو صاحب الفم الذى يجيد النطق بثمانى لغات . . وصاحب أقوى لسان عرفته شعوب الشرق الاسلامى فى تاريخها الحديث .



احمد عرابى

١٨٤١ - ١٩١١

« لقد خلقنا الله احرارا . ولم يخلقنا تراثا وعقارا . . فوالله الذى لا اله الا هو أننا سوف لا نورث ولا نستعبد بعد اليوم » .

« اننا انما نسعى لخدمة ذريتنا من بعدنا لتتمتع بحكم الحرية بعيدا عن أوزار الاستبداد . . »

لعل ثورة فى التاريخ لم تتعرض لما تعرضت له ثورة عرابى من اتهامات . أما عرابى نفسه وشخصيته وما احيط به من مطاعن وما قوبل به من جحود ونكران خاصة مع نهاية عمره . . فمأساة فاجعة ربما لم تتكرر بالنسبة لزعيم من الزعماء . .



لقد حاول الاستعمار الانجليزى طوال احتلاله لارض مصر أن يطمس حقيقة الثورة العرابية ويهدر قيمتها وحاولت الاسرة المالكة الباغية أن تلغى اثارها على مدى السنين من تاريخ وطننا ونضال اجيالـه المتعاقبة .

ورغم ذلك فقد عاشت الثورة العرابية بذكراها و آثارها وظلت باقية ساطعة دامغة ولا تنمحى ولن تزول من وعي شعبنا مهما تقادم بها العهـد . . وبعدت الشقـة بـين أجيالنا . . بل أنه كلما انصرم جيل ازداد احتضانه لها فى اعزاز واعتداد وأكبار . .

ولقد كان اضخم اتهام وجه الى ثورة عرابى انها كانت ثورة فاشلة . . والواقع الذى ينطق به التاريخ الحقيقى عن شخصية عرابى وثورته . انها ثورة لم تفشل . . ولكنها اوقفت وطمس امتدادها بفعل عوامل تاريخية وبفضل ظروف دولية وتطورات حضارية ساحقه ما كانت لتسمح ابدا بأن تتيح لعرابى أن يعرف على حقيقته ولا لثورته أن تأخذ تصيبها الفعلى من التقدير والانصاف .

يقول ولفرد سكونت بلنت :

كانت فكرتى فى البداية عن عرابى انه رجل جامد متعصب الفهم يحركه الحقد الاهوج . . فاذا بى بعد عشر سنين اكتشف فيه . . فطنة سياسية . . وتحررا فكريا وروحا انسانية ويقظة عملية تعز على معظم القادة . . ويبهرنى بمعرفته لتاريخ الثورات وفهمه للحرية . . فلقد كان على علم دقيق غير هين بالثورة الفرنسية ومبادئها ويعرف الكثير عن المبادىء التى تحرك السياسة الاوربية القائمة . .

ويضيف فى استكمال هذه الصورة :

لم يكن عرابى يخطو خطوة واحدة بدافع الطمع الشخصى . وقد

تجلى ذلك فى حرصه الشديد الذى هو من صفات الزعامة الصادقة على قضية مصر وهو فى محنته . . فلكم عاش شديد الاهتمام بأن يرد على كل مطعن يوجه الى الثورة دون أن يعنى قليلا أو كثيرا بما يقال عن شخصه . . تلك كانت حقيقة عرابى . وتلك كانت حقيقة ثورته كما نطق بها واقع الاحداث . . تبدأ القصة منذ اللحظة التى احتمى فيها الخديو توفيق باسطول سيمور فى عرض البحر . . فقد جاء الانجليز بسفنهم الى الاسكندرية وهم يترقبون اليوم الذى ينزلون فيه بجنودهم الى البر . . فما أن حل يوم ١١ يوليو سنة ١٨٨٢ حتى بدأ احتلالهم للبلاد . . لكن الخديو توفيق كان من البداية فى كنفهم . . وكان يعيش فى ظل حرابهم وتحت سلطة وجودهم وقوتهم منذ يوم عابدين ووقفة الضباط فى وجهه بزعامة عرابى . . بل أنه كان اسيرا للانجليز من يوم خلع والده الخديو اسماعيل وتعيينه نيابة عنه « خديوا جديدا على البلاد » .

لكن كيف ظهر عرابى . . ولماذا برز بالذات ؟؟

كانت أول بادرة للثورة العرابية المذكرة التى قدمها الضباط المصريون فى الجيش للمطالبة بعزل عثمان رفقى . . الضابط الشركسى . . الذى كان يضطهدهم ويسعى الى عزلهم . . بل ويدبر الامر لقتلهم بالفعل . . وكان الذى وضع العريضة الضابطان عبد العال حلمى وعلى فهمى . . تقدما بها الى زميلهما احمد عرابى . . الذى لم يتعرض مثلهما لأى ضغط . . وكان على فهمى فى حرس السراى وعلى صلات برجال الحاشية . . ولم يكن عبد العال حلمى دون عرابى مرتبة ورتبة وخبرة . . فلماذا وقع اختيارهما على عرابى بالذات ليذهبا بالعريضة الى داره ويصرا على الزامه بها ؟ السبب كامن فى شخصية عرابى ومواقفه . . فقد كان ايامها من ابرز الضباط تعصبا لمصريته . . كما كان من أكثرهم بعدا عن الاهواء الشخصية وتجردا عن الاغراض الخاصة . . بحيث تجمعت على تقديره كافة قلوب الضباط . كان عرابى يمثل الفلاح القح فى كل صفاته . . أكثر من ذلك أنه كان يتصف بالجرأة والحماسة والاخلاص . . بقدر ما كان صادق النية وثابت العزم ، وقد عرف بطلاقته وفصاحته وتمكنه من التعبير والخطابة . . وهى صفات كانت ايامها تضعه فى مرتبة الزعامة من البداية . .

يقول بلنت :

لم ار فى حياتى رجلا يستطيع أن يكسب اجماع القلوب على حبه من النظرة الأولى مثلما رأيت فى شخص عرابى . . فقد كان واضح الاخلاص فى كل قول ينطقه . . وكل حركة يخطوها . .

شخصية عرابى اذن كان لها اكبر الأثر فى زعامته . . ولا عجب انها كانت سببا فى التفاف الضباط حوله بحيث سارع الجيش الى نجدته وزميليه حين قبض على ثلاثتهم فى قصر النيل بعد تقديم العريضة بأسم الضباط المصريين ورفض الخديو لها واعتبارها تمردا على سلطته . . بعد أن ذاع صيت عرابى واصبح اسمه على كل لسان وتجلت فى شخصيته الصورة الحقيقية للفلاح المصرى الذى من اقصى القرى ليقف فى مواجهة الخديو الحاكم الذى تدين له مصر كلها بالطاعة والولاء . . وفى لمحة عين صار بيته مقصد كافة الاحرار من أهالى البلاد وجندها يقول الشيخ محمد عبده :

« وسرعان ما اصبح عرابى الفلاح ملتقى الآمال . . واخذ الناس فى الاقاليم يذكرونه بالخير والتقديس » . . والواقع أن عرابى من الدقيقة الأولى لزعامته كان يعى حقيقة وأهمية الالتفاف حوله والتجمع لمؤازرته وتأييده . . فأصبح من بعدها يحرص على اقامة الصلة الوثيقة الراسخة . . بين الوطنيين الساخطين والجند والفلاحين فى القرى . وعلى هذا الضوء تحدد مصير الحركة العرابية بما احاط بها من ظروف جعلت عرابى حين واجه الخديو وهو على رأس الجيش امام السراى فى عابدين زعيما وطنيا مجاهدا يطالب بالحرية والدستور وسيادة القانون . . وفى كلمة واحدة « المعبر الحقيقى عن ارادة الامة » .

والواقع أن عرابى لم يثب وثبته الثانية بغير استعداد . . فبعد اطلاق سراحة من قصر النيل كما يقول فى مذكراته :

« ثم اخذت فى نشر افكارى بين علماء الامة واعيانها وعمد البلاد ومشايخ العربان . . طالبا اليهم مساعدتى . . وبناء على ذلك وفدت علينا الوفود من جميع انحاء القطر وسلمتنا عرائض النيابة عنها للعمل على سعادة البلاد وخلاصها من براثن الجور والاستبداد . . » ذلك أن عرابى كزعيم وطنى كان

يعرف طريقة واضحه برسوخ . .

ولاعجب أن يقف بعد ظهر ٩ سبتمبر سنة ١٨٨١ على صهوة جواده امام الخديو والقوى الاستعمارية الضخمة التى تسانده فى شخص ممثلى بريطانيا وفرنسا ويجهر ومن ورائه الوف المصريين فيرد على توفيق وهو يجادله فى طلباته المقدمة باسم الامة وبوصفه وكيلا عنها :

« لقد خلقنا الله احرارا ولم يخلقنا تراثا وعقارا . . فو الله الذى لا اله الا هو أننا سوف لا نورث ولا نستعبد بعد اليوم . » وبقبول الخديو لمطالب عرابى دخلت الثورة العرابية الى رحاب الحكم الدستورى من اشرف الابواب .

وتولت وزارة شريف الحكم لتضع الدستور وتحكم البلاد حكما نيابيا . . واشترطت ابعاد قوة العسكريين الجدد عن التدخل فى شئونها . . فقبل عرابى عن طيب خاطر أن يبتعد هو وزملاؤه عن العاصمة . . ورحل بفرقته الى رأس الوادى بالشرقية . . ولكن الخديو سرعان ما عاد ليتنكر للحكم الدستورى فقبل الموافقة الثنائية واشراف الحكم الاستعمارى على الحكومة الجديدة . . وكان أن سقطت وزارة شريف بضغط نواب المجلس الجديد واجبر الخديو على اختيار البارودى رئيسا للوزارة التى عرفت بعدها بوزارة الثورة . . وكان طبيعيا أن يتولى عرابى فيها منصب نظارة الحربية . . ويعود الى مسرح الصراع السياسى فى العاصمة . . لا كوزير . . ولكن كمحط آمال الأمة فيما عادت تتعرض له من عثرات للمحافظة على حريتها الدستورية . . ولم يكن المنصب كبيرا على عرابى كما لم يكن عرابى كبيرا على منصبه فى الوزارة . .

يقول بلنت . . .

« قفلت راجعا من لندن الى القاهرة فى فترة تولية وزارة الحربية . . وادركت فى الحال لماذا قبل أن يشغل منصبه هذا . . وهى رغبته فى حماية مكاسب الحركة التى قام بها لتحقيق آمال مواطنيه . .

وعلى حد ما قال عنه سلطان باشا نفسه :

— لم أكن احترم عرابى لأنه جندى . . ولكننى كنت أوقره لوطنيته ولمقدرته السياسية . . والحق أن عرابى قد لعب دورا كبيرا بشخصيته وزعامته فى خدمة وزارة البارودى . . وكان من ابرز ما أداه سرعة العمل على

صدور الدستور الجديد لحكم البلاد . . اننا انما نسعى لخدمة ذريتنا التى ستأتى من بعدنا لتتمتع بحكم الحرية بعيدا عن اوزار الاستبداد .

ولكن الاستعمار كان لوزارة البارودى الوطنية بالمرصاد . . فلم يترك فرصة هو واعوانه الا وأنتهزوها فى سبيل القضاء عليها . . فمن تدبير مؤامرة مع الضباط الشراكسه لقتل عرابى وزملائه . . ومن تدخل لانقاذ من جرت محاكمتهم فى المؤامرة . . الى اتهام الوزارة بانها تعمل بوحى من عرابى واتهام عرابى نفسه بانه يسعى الى القضاء على سلطة الخديو ؟ . ويعمل على تنصيب البارودى رئيسا للجمهورية وفى هذه الفترة صمد عرابى فى موقفه ولم يقبل أى اعتراض تقدمت به انجلترا أو فرنسا مما دفع الدولتان الى الاتفاق على التدخل المسلح فى شئون البلاد بدعوى انقاذ عرش الخديوى . ووصل الاسطول الانجليزى الى مياه الاسكندرية بعد قبول الخديو للمذكرة المشتركة الثانية فأضطر البارودى الى تقديم استقالة وزارته .

وفى تلك الاثناء يبرز عرابى نهائيا الى مقدمة الصفوف بوصفه الرجل الوحيد القادر على انقاذ البلاد . فقد رحل الخديو مباشرة الى الاسكندرية . . ولم يجرؤ احد على قبول تشكيل وزارة جديدة . . وتوجه الخديو مع عمر لطفى محافظ الاسكندرية ليحتمى باسطول الانجليز . . ولكن بعد أن ارسل أوامره للمديرين باستعفاء الوزارة طالبا اليهم التهوين من شأن حضور المراكب الانجليزية وصرف الاهالى الى اشغالهم فى الوزارة والوقوف فى وجه المتمردين الذين يرأسهم عرابى . . ومع ذلك فقد اجبره اجماع الشعب على قبول عودة عرابى الى وزارة الحربية التى استعفى منها مع الوزارة المستقيلة . . وتولت وزارة راغب باشا مع تعيين عرابى من جديد وزيرا للحربية .

ثم وقعت المذبحة التى دبرها الخديو مع عمر لطفى محافظ الاسكندرية لاستعجال تدخل الانجليز . . وانتقل عرابى الى الثغر . . وقصة ضرب الاسطول للمدينة ثم محاولة الصاق تهمة احراقها لعرابى تكشف عن شخصية عرابى وبطولته ووطنيته ثم تكشف اكثر من ذلك عن وعيه بالاحداث وتحمله للمسئولية التاريخية فى شجاعة منقطعة النظير . . فحين شرع الاسطول فى ضرب المدينة القيت مسئولية الموقف كله على كاهل عرابى والزمه القناصل

والسفراء الاجانب بحماية رعاياهم . . بينما نادت البلاد كلها بزعامته فأصبحت كلمته هى الكلمة الوحيدة النافذة . . يقول بلنت :

— أن خير صفات عرابى أنه لا ينصرف عن وضع كان هو الاصل فى إعلانه . . ولذلك فقد كان على استعداد لان يسالم الدنيا ولا يسلم فى حق وطنه . . وبهذا أدى لأمته اجل خدمة فى تلك الاسابيع العصيبة باصراره على مقاومة التدخل والوقوف فى وجه الانجليز مهما كانت العواقب . . ولولا هذا العناد الذى ابداه عرابى فى تلك اللحظات الحاسمة لبقى الفلاحون كما كانوا قبل عام ١٨٨٠ عبيدا للسادة الاتراك . . وعبيدا للاوربيين الاجانب الى آجال بعيدة اخرى . . لا عجب أن يرفض عرابى الاذعان لاوامر الخديو بعد ذلك ويقبل تحدى الاسطول ودخول الحرب معتمدا على مؤازرة جميع اهل مصر . . ولا عجب أن يطلق عليه فى كل مكان لقب « حامى حمى الديار المصرية » بعدها دبر اعوان الخديو مؤامرة احراق الاسكندرية وحاولوا الصاق الجريمة بعرابى . . بينما كان الرجل يتراجع بجيوشه الى كفر الدوار ليحمى البلاد من تقدم جيوش الغزو ويدمر الانجليز فيردهم على اعقابهم . . كانت البلاد كلها تقف وراء حاميها . يقول عرابى فى مذكراته محللا طبيعة شعب مصر حين يواجه بالعداون على أرضه . . مدللا على سخاء المصريين وطاقتهم الفذة على التضحية والفداء :

« أن جميع النفقات التى لزمت الجيش اثناء الحرب كانت كلها تبرعات من الأمة المصرية بغير تمييز بين العقائد والطوائف والجماعات ويكفى أن اقول أنه لم ينفق على الجيش درهم واحد من خزانة الحكومة اثناء القتال .

وتوالت الاحداث الجسام بعد ذلك ولعل ابرزها موقف عرابى من أغلاق قناة السويس بعد أن حول الانجليز مسار غزوهم الى الجانب الشرقى اثر هزيمتهم فى كفر الدوار لم تكن سذاجة من عرابى أن يحمى القنال ويطمئن الى موقف فرنسا فيرفض ردمها من البداية . . لقد كان عرابى يدرك أن ديليسبس يخادعه . . ولكنه لم يكن يتصور أن انجلترا فى زحفها الاستعمارى ستدوس على المعاهدات والمواثيق والعرف الدولى الى مثل هذا الحد . . ثم تستعين عليه مستنده الى الغدر والخيانة والدسيسة والرشوة . . يقول جون

فينيه . . « كان اصدق ما قاله رجل الشارع في مصر بعد هزيمة جيشها أن « الولس كسر عرابى والحق أن عرابى كان صاحب نظرة متحضرة في اعراضه عن هدم القناة . . ولكنه باحجامه عن سدها سهل على الانجليز احتلال البلاد ومهد للجنرال ولسلى نصرا من اسهل ما عرف تاريخ الحروب . . ذلك أن الانجليز لا يبالون عادة بالمعاهدات والقوانين ولا يعنيهم الا مصالحهم . . شأن كل مستعمر غادر . . أما المطعن الظاهرى الذى يوجه لعرابى فهو موقفه في التل الكبير وهى آخر نقطة للمقاومة . لقد خلق معظم المؤرخين من عرابى في هذا الموقف ما يكاد يفوق اضخم سخريات العصر . . فأتهم بأنه كان يستعين بحلقات الذكر في أحلك لحظات المعركة . . وهذه فرية روجها الاحتلال وأعوانه للتهوين من شأن الحركة العرابية بأسرها كحركة وطنية ناهضة متفتحة لها كل مقوماتها العصرية . . فعرابى بتدينه كان من أكثر زعماء الشرق على مدار القرن الماضى فهما لمضمون الحرية العصرى . . وكان على بينة وادراك لمبادىء الثورة الفرنسية بل أن عرابى لم يتطور بحركته في طابعها العسكرى الاصلى الا على اساس من نشدان الحرية والحكم الديمقراطى الخالص لبلاده وفى اصالة وعمق راسخين مصدرهما المبادىء الجوهرية والعقائد الأصيلة للاسلام . . يقول فينيه ايضا « كنت بجانب عرابى لما أوشك الانجليز أن يطبقوا عليه في التل الكبير . . لقد كان ثابت الجنان لم تخنه شجاعته وكان يدرك مدى ما تعرض له جيشه من خيانات متتابعة اخرها مفاجأة الانجليز له وهو في معسكره وحيدا مع بزوغ الفجر . . واستعد الرجل للموت والاستشهاد . . لكن طبيبه استطاع أن يقنعه بأن يمتطى صهوة جواده وينسحب لان ما يزمعه لم يكن الا نوعا من الانتحار » وكان لايمانه وتدينه اكبر الاثر في اقناعه بالانسحاب من المعركة . .

وتمت هزيمة الثورة العرابية بدخول الخديو توفيق الى القاهرة في حماية جيوش الاحتلال . . وقدم عرابى وزعماء الثورة الى المحاكمة . . وبدأ في تاريخ مصر عهد من اسود العهود كان قوام فلسفة الحكم فيه . . الى جانب التحكم والاستبداد والاستغلال . . بث هيبة الاحتلال بالطعن في الثورة العرابية واتهامها بالفشل والاطاحة بكل من كانت له صله بها . . وقصة اضطهاد

عرابى ومهزلة محاكمته ثم نفيه من اروع ما عرفه تاريخ زعيم بطل فى مواقفه ودفاعه . . لكن الاحتلال كان قد رسم خطته من البداية بوعى لتشويه موقف عرابى على طول الخط فهو فى نظر الخديو واسرته جندى متمرد على عرشهم وسلطانهم وهو فى نظر الدول الاجنبية متعصب دينى ومتمرد سياسى قام بأغتصاب مالهم من ديون على مصر . .

هذا هو التفسير الذى رسمه الاستعمار للثورة العرابية . . وهو فى خطوطه العامة لا يخرج عن مجمل التفسيرات فى جميع ما كتب عن عرابى طول حكم السلالة العلوية بأقلام أغلب المؤرخين . . وهو تفسير لحسود ظالم تسنده خدعة كبرى قوامها الطعن فى شخصية عرابى نفسه وتصويره على أنه كان جاهلا ومتأخرا فى فكره بقدر ما كان (درويشا) غافلا أسيرا للوهم والخرافة . . ولعل من أخطر النتائج التى اسفر عنها هذا التفسير الزعم بأن ثورته كانت مجرد تمرد فاشل لان هذا الزعم اضعف من قوة الحركة التى قادها مصطفى كامل . . وجعل ثورة ١٩١٩ تضع ثورة عرابى فى الظل من تقديرها كثورة رائدة ذات مضمون شعبى واهداف وتطلعات تقدمية حرة . .

يقول بلنت بعد سجن عرابى وصحبه « من الواضح أن الامة المصرية تبينت فجأة انها ليست من الضعف بحيث ظنت نفسها . . ولهذا فقد استحال ما كان يقصد به أن يكون مجرد احتجاج عسكرى الى ثورة وطنية حقيقية ذات اهداف ومرام بعيدة أقلها تحقيق الحرية والاستقلال » . . وعلى حد ما شهد كرومر عميد الاحتلال بعد ذلك . . ليس هناك ريب فى أن حركة عرابى كانت فى كثير من الوجوه . . حركة قومية خالصة . . أما برودلى فيشهد بأنه (لا شك فى أن عرابى واصحابه كانت لديهم القدرة على أن ينهضوا بحكم أمتهم حكما شعبيا وأن ينفذوا بجدارة كل التغييرات والاصلاحات التى نادوا بها)

بعد تسعة عشر عاما من النفى فى سيلان . . عاد عرابى الى مصر عام ١٩٠١ واودع فى بيته العتيق بالمنيرة لا يغادره ولا يبرحه . . وعاش منسيا من الكل وفى مساء ٢١ سبتمبر سنة ١٩١١ خيم الصمت على البيت العتيق . . وجاء الليل فتقدم بائع للزبادى يطرق الباب . . وبعد لحظة فتحوا له . . واطل من

الداخل شبح وتتمتم ببضع كلمات خافته فأنصرف البائع فى سكون . . كان الشيخ العجوز قد فقد وعيه من الصباح ولم يعد يتكلم . . بل لقد أطبق عينيه وغرق فى غيبوبه تامه . . وجلس حوله الاهل . . فلم يكن يسمح بأى زيارة غير زيارتهم . . جلسوا خاشعين . . وكلما جاءت ذبابه واقتربت من ذقنه البيضاء المستديرة . . ارتفعت أكثر من يد لابعادها . .

وفى مثل هذه الساعة من ليلة الامس كان البائع قد جاء وأخذوا منه (زبدية اللبن) طعامه المفضل الوحيد وأكل الشيخ نصفها ونام فى هدوء . . لكنه مع الصباح فقد الوعى . . وجأت الليلة الاخيرة . . وعاد البائع يجول فى الحى يحوم حول البيت . . فلما صدوه عنه . . عرج على الحارة المجاورة فاذا الهمس من حوله على لسان الجالسين امام الابواب . . « مات عرابى » « مات عرابى » . . « مات عرابى » . . كانت غيبوبة الشيخ قد انتهت واصبح فى عداد الموتى . . واستطال الهمس الى بعيد . . خرج من حى المنيرة على لسان بائع الزبادى ليستقر فى اسماع اهل السيدة زينب . . وراح يسرى تتناقله القلوب الواجفة . . حتى اذا اصبح الصباح كان الناس فى كافة احياء القاهرة الأخرى يسألون بعضهم البعض . . عرابى . . عرابى . . واين كان عرابى ؟ ؟

ومر يوم بطوله . . يوم حار رطب من ايام سبتمبر الحالكة . . وتجمع العديد من الناس ينتظرون خروج النعش . . لكن النهار كان قد أنصرم والشيخ لا يزال مسجى على فراش الموت . . اذ لم يكن فى البيت ما يكفى لتجهيزه ودفنه وفى اليوم التالى . . ٢٣ سبتمبر سنة ١٩١١ وقبل عيد الفطر مباشرة . . صرفت وزارة المالية المرتبات والمعاشات مبكرة لاربابها وامكن أن يتم تجهيز نعشه . . وخرجت الجنازة فى صمت ومن خلفها اولاده وأهله . . ذلك أنه لم يكن مسموحا أن يسير أحد فى جنازته . ولكن القاهرة كلها كانت تئن لوفاته « مات عرابى » . . « مات عرابى » . . وتجمع الناس من حول النعش فى مقدمتهم بائع الزبادى . . كانوا يتدافعون لحمله فوق مناكبهم . . والقاهرة الحزينة الصامته تودعه فى صمت كئيب حزين . هذا الذى كان فى يوم من الايام . . حامى حمى الديار المصرية .

عبد الله النديم

١٨٤٣ - ١٨٩٦

لم يكن عبد الله النديم فردا تميز بمواهبه وانما كان رجلا تجمعت فيه طاقات شعب عريق حى غلبه الاستبداد ردحا طويلا من الزمن فلما آن له ان يطلب الحرية انطلق يعبر عنها . . أديبا وشاعرا . . خطيبا وصحفيا سياسيا محاربا . . مقيما بين ظهرانيه . . ومفيا بعيدا عن ترابه . . ذلك أن حياة النديم كانت حياة حافلة غنية بما تتطلبه حياة شعب مناضل يصنع تاريخه ويذود عن وطنه ويحمى مستقبله ومصيره فى أعنف حقبة من حقب تاريخه . . فهى صورة تنطبع وهاجه عبر الأجيال فتضىء بنورها المشع وجه صحافتنا الوطنية ويسطع مع ذكرها تاريخ نضالنا الشعبى .

النديم



عاد النديم إلى مسقط رأسه بالاسكندرية عام ١٩٧٩ ولم يكن قد عرف الصحافة بل كان يعيش منذ غادر أهله مغاضبا والده يجوب البلاد طولا وعرضا يتسقط محافل الادب وندوات الادباء فى القاهرة والمنصورة وطنطا ، يقول الشعر ويطلق الزجل والكل يسأله المزيد من هذه الطرائف . . فلما استقر به الحال مرة أخرى بالثغر كان قد كسب إلى جانب معرفته بفنون الادب وطبائع الناس فهما سياسيا واضحا بحقيقة الأوضاع التى تسود مصر ومن مخالطته لأهل الفكر وانغماسه فى حلقات المثقفين التى كانت تلتف حول الافغانى نبع ايمانه بمعنى الحرية حتى إذا قامت هبة عرابى وأخذ رياض باشا « يشدد النكير على أهل النفير » كما وصفهم النديم . . تجاوبت أصداء هذه الحركة مع ما يملأ نفسه من حماس وايمان وثورة . . يقول فى مذكراته السياسية عن ذلك :

« لكننى كنت قبل ظهور هذه الحركة إلى الوجود ، وتدرج الحزب العسكرى إلى مراقى الصعود ، أصرف نفيس الوقت ، مفكرا فيما يجلبه الحكام من المقت ، وأكتب الكثير من الوقائع وأقيد اللطائف وأنكر على أهل البلاد وقوفهم تحت رجم الاستبداد . . وكلما نبهت عاقلا أسكتنى . . فان الححت عليه بكتنى ، فلم أجد طريقا لتنبيه الوجهاء والأمراء الا بعصبية أكونها من الفقراء » .

وخرجت هذه العصبية فى شكل جمعية خيرية ومدرسة أسسها النديم وجعلها ندوة للخطابة وأقام فيها مسرحا للتمثيل وكانت أول انطلاقة منه إلى صفوف الجموع ثم مالبثت الجمعية أن حلت وتفتتت بعد طرده منها بايعاز السلطة وحرم النديم من أعز منابره . . الخطابة .

وفى تلك الاثناء بدأت حكومة رياض تتنبه للخطورة الكامنة فى وجود الافغانى فنفته إلى خارج مصر . . وتبدد شمل اشياعه وتلاميذه ومنهم أديب اسحاق . فيقول النديم . . « وعندما انتقل أديب إلى الاسكندرية اجتمع بى فى جلسة أدبية وطلب منى أن يكون لى عبارة فى (مصر والتجارة) فالتزمت تحرين أغلبهما لكون مشربى من مشربهما » . لكن رياض سرعان ما ألغى الجريدتين وسرعان ما تحول النديم إلى غيرهما . « فلما استرخص سليم نقاش جريدتى « المحروسة » و « العصر الجديد » واذن إليه بهما عاهدنى العهد الاكيد فالتزمت تحريرهما بقلمى وشحنهما بكلمى ولم أذكر اسمى » . . وظل مقيما على خطته فى أخفاء كنهه وكنيته حتى كانت المبادىء قد تمت والدعوى قد عمت وقامت الافكار الخامدة والتجأت إلى جهة واحدة .

عند ذاك راح النديم يفكر فى انشاء مجلته الأولى بعد هذا المران الذى كسبه فى ميدان الصحافة وبعد أن شعر شعورا غامرا بأن الناس أعجبوا بما كتب .

وفى ٦ يوليو سنة ١٨٨١ أصدر أول أعداده من « التنكيت والتبكيت » فكان عددا عامرا بالمقالات والطرائف مما قيد من اللطائف والفظائع . . نصفها باللغة العربية الفصحى والنصف الاخر باللغة العامية ، أو كما وصفها فى افتتاحية عدده الأول « بعبارة سهلة لا يحتقرها العالم ولا يحتاج منها الجاهل إلى تفسير » وظلت الجريدة تصدر بالاسكندرية فترة طويلة من الشهور ونطاق توزيعها يتزايد ويتسع واقبال الناس عليها لا يفتر ولا ينقطع .

حتى إذا تطورت الحركة العرابية فتحولت إلى ثورة فعلية ضد الخديو احتضنه رجالها وسعوا إلى نقل جريدته من الاسكندرية واختار لها بنفسه اسما جديدا هو « الطائف » فكانت اللسان المعبر عن العرابيين ، وبدأت هذه الجريدة عنيفة قوية تنقد تصرفات الخديو فى جرأة بالغة وتشرح بؤس الفلاحين فى السخرة وتدعو إلى الاصلاح النيابى والحكم بالشورى . فلما تشكل المجلس النيابى طلب النواب إلى ادارة المطبوعات أن تعتبر جريدة الطائف لسانهم المعبر عن أفكارهم ونشر هذا رسميا فى الوقائع حتى رأت ادارة المطبوعات أن المحرر قد عاد إلى التهييج والعنف فعطلت جريدته شهرا .

ومن ثم تلاحقت أحداث الثورة العرابية ووقائها وانتهى الأمر بارتماء

الخديو فى أحضان الانجليز وعند ذاك خرجت الطائف لتعلن على الناس خيانة الخديو . . وبلغ جرأة النديم أن لقب عرابى (حامى حمى الديار المصرية) الأمر الذى جعل الخديو يطلب من وزارة البارودى تعطيل هذا « الجرنال » ونفى صاحبه إلى خارج حدود الديار . . إلى أن كان الغزو البريطانى الغادر وحاول الانجليز دخول البلاد من الاسكندرية . . « فقامت الامة وتحركت حركة واحدة على اختلاف الاجناس والاديان وكثرت التبرعات والمساعدات وانتقل النديم بجريدته الى ميدان القتال يحمس الجنود لرد العدوان ويدعو الشعب إلى مواصلة تقديم المعونة والمؤونة وينشر أخبار الهبات والتبرعات فى جريدته مع أخبار المعارك والبطولات التى قام بها المجهولون . وكان الذوات الذين انضموا إلى الخديو ونحن فى حرب كفر الدوار يبعثون إلى محاسيبهم يأمرونهم ببث الفتن بين الأهالى والأحياء وبذل الجهد فى الفساد واظهار التثبيط والتعجيز وتبشير الأهالى بفوز الانجليز » .

لكن الطائف كانت لكل هذه الدعايات بالمرصاد . . وهذه فقرات من مقال كتبه النديم فى ميدان القتال بالقرب من الاسكندرية فى العدد ٦٤ من جريدته تبين الدور الذى لعبته صحافة النديم فى نضالنا الوطنى الشعبى تحت عنوان (المعمعة الثانية) : « أى بنى وطنى . . خذوا حديثا يرويه العيان عن المشاهدة ويخبر به الصدق عن الحقيقة . . جهل الانجليز مقام المصريين فاعتدوا واجلبوا عليهم بالخيل والرجل يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم . . والله متم نوره ولو كره توفيق باشا ومن معه » ثم يختم مقاله بعد عرضه للمواقع الدائرة والبطولات التى تبدت بين الأهالى والجنود . . « ولقد أظهر جنودنا فى هذا اليوم ما أعاد لمصر مجدا يشرف به الحاضر ويفخر به الاتى من المصريين . . وكنا نود لو حضر الافرنج ورأوا عساكرنا وهم كالليوث خلف غزلان تستحى الحرب من نسبتهم إليها حتى كانوا يقطعون السنتهم بأيديهم جزاء لما افتروه على المصريين وما كانوا يقولونه من خوفهم من البرانيط التى لم تجد تحتها رءوسا » .

وحين انتقل الجيش إلى التل الكبير انتقل معه النديم بالطائف والمطبعة « وقد تركنا الأهل والعيال ونزلنا ساحة القتال لا يمنعنا من النزال والجلاد

فساد بعض أعيان البلاد » وتابع اصدار اعداد جريدته فى الميدان حتى دخل العدو بلا حرب وفاز من غير ضرب وظلت البلاد بأبنها لا بجبنها » ذلك أن « الاحرار بعد اصطلائهم بالنار باعهم فريق من مواطنيهم وخذلهم بعض معاهديهم » .

وكان الاحتلال فى النهاية وقبض على عرابى ورجاله . . وسيقوا إلى المحاكم . . فاذا النديم هو الوحيد من العرابيين الذى استطاع أن يختفى ولم يقبض عليه ليحاكم مع الآخرين ، ووقف عرابى فى قاعة المحكمة ليجيب بكل ما يعرف عن (صديقى الوفى العزيز . . .) كما كان ينادى النديم دائما .

س ـ معلوم للعموم أن عبد الله النديم كان محرر جورنال الطائف الذى اشتملت جميع عباراته منذ ظهوره على تهيج الأفكار واحتوت على الأكاذيب . . وصدور الجورنال المذكور كان فى معسكر كنج عثمان الذى كان مقيما فيه المحرر المذكور معكم فى مدة العصيان والجريدة المذكورة فضلا عما ذكر مشهورة أيضا بالطعن فى حق الذات الخديوية ودولة الانجليز الفخيمة .

جـ ـ أن جورنال الطائف جرى طبعه ونشره فى الحكومة من مدة زمنية ولم يصر قفله فى تلك المدة . . أما عن اقامة محرره بالجيش فى أثناء المحاربة فليس لى أى حق فى منعه .

ولكن النديم ظل مختفيا أكثر من تسع سنوات حتى أعيا الحكومة أمره فاصدرت ضده حكما غيابيا بالنفى المؤبد من القطر المصرى حتى إذا قبض عليه أخيرا فى قرية الجميزة بجوار طنطا بعد وشاية دنيئة . . كانت الظروف قد تغيرت واكتفى رياض بنفيه إلى يافا حيث أقام ستة أشهر ثم عاد إلى مصر ثانية بعذ أن سمح له الخديو عباس بدخول البلاد .

وقام النديم فترة درس خلالها شئون البلاد من جديد فصح عزمه على أصدار جريدته الثالثة وكان أن أنشأ . . « الأستاذ » فصدرت فى أول أمرها امتدادا لجريدته الأولى « التنكيت والتبكيت » ـ من حيث موضوعها واسلوبها . . إذ كانت تعنى بتقصى العيوب الاجتماعية فى الحياة المصرية وفيها مقال أو نحو ذلك عن شئون الاصلاح السياسى من جهة عامة . ثم هى تحرر باللغة العربية الفصحى فى المقالات السياسية والاصلاحية وباللغة

العامية فى الموضوعات الاجتماعية .

وفى هذه الجريدة تستر النديم وراء مظهر الدفاع عن الخديو ونفذ إلى الميدان السياسى من هذه الثغرة فراح يدافع عن الحركة الوطنية ويهاجم الاحتلال البريطانى الجاثم على صدر البلاد وكان يشجع كل اتجاه وطنى صغر شأنه أو كبر . وصادف أن أصدر مصطفى كامل وهو طالب مجلة اسمها « المدرسة » فحياها النديم تحية طيبة « فى الأستاذ » ودفعت التحية بالطالب محررها مصطفى كامل إلى أن يقابله ويأخذ عنه الحقيقة فيما زعموا عن فشل الحركة العرابية وانطفاء جذوة الوطنية عند المصريين . . وكان النديم فى هذه الاثناء يصارع سيلا عارما من المزاعم والاكاذيب المنطلقة من أبواق الصحافة المأجورة التى يصدرها أذناب الانجليز وصنائع الاحتلال . وظل هجومه يتزايد ويشتد على كل انحراف فى الحركة الوطنية أو زيف فى تيارها الشعبى . . وفى هذه الحقبة بلغ النديم أوج الادراك السياسى فوعى باكرا حقيقة الاستعمار الحديث وأصله ومنبته فى جملة مقالات كان ينشرها بهدف الدفاع عن الشرق ضد أوهام الغرب . . ومن أبرزها تلك الفقرات العميقة المتتابعة فى مقاله « لو كنتم مثلنا لفعلتم فعلنا » وهو من أطول المقالات التى دبجها بجريدة الأستاذ .

« قالت أوروبا أنكم متوحشون لكونكم لا تحسنون صنع الأثاث واللباس وأنكم فى حاجة إلى مصنوعنا ولا تصلون إليه الا بعقد المعاهدات التجارية . . وبذا تمكنت من ادخال مصنوعها فى الشرق لتحول الثروة إليها . فالشرقيون اجراء يزرعون ويحصدون ليروجوا تجارة أوروبا ويعظموا ثروتها وكأنهم أمام أوربا جنس خلق لخدمتها لتقاعدهم عن مجاراة أهلها ، ومما زادهم بعدا عن الصناعة وثمراتها وجود دخلاء اجراء يزعمون عدم صلاح بلادهم للصناعة . . فهم بهذه الترهات يريدون صرف الهمم لبقاء الشرق فى قبضة الغرب وترك الشرق ميدانا لمسابقة رجال أوروبا فلا يجدون مصنوعا يعطل عليهم ولا معرضا عن صناعتهم فتبور . . قالت أوروبا أن الشرق فى حاجة إلى تدخل لاصلاح ادارته وماليته وتجارته وتهذيب أممه بالتعاليم الاوربية وأجمع رجال أوروبا على جعله قسما مقابلا لها وربطوا عزمهم على ضمه

إليهم الجزء بعد الجزء والقطعة بعد القطعة . . والداهية أن ملوك الشرق وعظماءه ملأوا قلوب اممهم باوهام وخوفوهم من الاوربى فكافوا أقوى يد للأوروبى فى تدخله واستيلائه على ممالكهم . . فلو أنهم ربوا رجالهم على الحماسة ومرنوهم على الأعمال وبثوا فيهم روح الحمية بالمحافظة على حقوقهم وترقيهم حسب استعدادهم على انتشار التجارة ووجود الصناعة وهذبوهم بالادبيات ونبهوهم بجرائد وطنية صادقة اللهجة صافية النية عارفة بما يقدمهم وما ينفعهم لوجدوا أمامهم رجالا وأى رجال . . الخ » .

والمقال كله يجرى على هذه الوتيرة من الوعى الصادق النفاذ .

على أن مثل هذه الروح الوطنية الواعية الصارخة سرعان ما أقضت مضاجع الاحتلال فطلب كرومر من الخديو أبعاد النديم مرة ثانية عن مصر . ونفى إلى يافا بحجة ضعف صحته والارتحال إلى الشفاء ، أما هو فقد ودع قراءه ساخرا . . « حتى يشفى مريضكم فيعود إلى خدمة وطنه وأهله » . . ولكنه كان قد خلف وراءه بعد ذلك مجلدا من (الأستاذ) فيه ١٣٠٠ صحيفة تضم ملحقا كان ينشره تباعا مع الجريدة هو عبارة عن صفحات من كتاب الفه وهو فى مخبئه اسمه « كان ويكون » يتضمن مجملا لفلسفته وشرح آرائه فى السياسة والحكم والناس والحياة والادب والكتابة وغيرها من الموضوعات التى كان يهتم بدراستها ، وهذا الكتاب جمع ولكن لم يتم نشره كاملا حتى الآن .

وفى يافا للمرة الثانية رتبت له الحكومة المصرية خمسة وعشرين جنيها شهريا يعيش بها على شرط الا يكتب شيئا فى الجرائد يتصل بالسياسة المصرية . . ولم يلبث أن وشى به الوشاة بعد أربعة أشهر فاتهم بأنه يطعن فى سياسة الدولة العلياوصدرت أوامر السلطان بابعاده من الشام أيضا .

وراح يذرع البحار ونزل إلى الاسكندرية أياما ولكن لم يسمح له بالبقاء فى أرض وطنه وأخيرا توسط له الغازى مختار باشا وأشار على السلطان العثمانى أن يسترضيه مع بقية الناقمين على الخلافة . . وهناك عاش النديم فى صحبه الافغانى حتى وقع شقاق بينه وبين السيد ابو الهدى الصيادى « راسبوتين الاستانة » وقتذاك بسبب كتاب هجاء خطة النديم عن آثام السيد

أبى الهدى . ولم تطل حياته فى الاستانة فأبعد عن وظفته ليعيش فى فقر تام لولا بقية من عطف الافغانى . . ومرض بالسل فقضى على حياته . . وشيعت جنازته فى احتفال صغير حيث دفن فى مقبرة مجهولة ولا تزال رفاته بها إلى اليوم .

ولعل خير ما نختتم به هذه العجالة من حياة رائد صحافتنا الوطنية الشعبية أن نحييه بالكلمة التى قالها على قبره أمام الاحرار فى زمانه . . صفيه وراعيه . . السيد جمال الدين الافغانى . .

« هذا رجل عاش كأفضل ما يعيش الرجال على الأرض . . وفى الناس من إذا مات انتهى ذكره . . لكن من نقف على قبره كان أعجوبة عصره . . رحمه الله وأثابه . . هو عبد الله النديم . مصرى عريق فى مصريته . كان صاحب مبدأ . . باع نفسه لامته ومات شهيدها فانيا فيها فلم يتحول عن عهده ولكنه ظل يجاهد وينفى فيجاهد ويعفى عنه فيجاهد ويحذر فلا يحذر ويطمع فلا يطمع . . وفى شعره لسان حاله :

إذا ما الدهر صافانا فرحنا
فان عدنا إلى خطب شفينا
لنا جلد على جلد يقينا
إذا زاد البلا زدنا يقينا

رحمه الله . . فهذا شعره . . كان فى بأسه كالنسر الجارح وفى حلمه كهذا اليمام الذى يشقشق على الشجرة . . أحب وطنه . . وأحب أهله . . فما خضع لعظيم قط وما كان يلين الا لصغار الناس .

عبد العال حلمى

١٨٣٩ - ١٨٩١

لم تقترن ثورة بقائدها مثلما اقترنت الثورة العربية بعرابى فى الاسم والشخصية والسيرة . وليس مرد ذلك المصادفة أو أن عرابى هو الذى قام بها ، وانما حتمت العوامل والظروف التاريخية أن تدور الاحداث حول هذا المحور . ولعل من أبرز هذه العوامل انها كانت ثورة على حكم الفرد المطلق وسلطان الحاكم الجائر ولابد لها من زعيم فرد يقارعه ولابد لكل ثورة من زعيم . وتفسير التاريخ يعتمد فى الكثير على الدور الذى يلعبه القادة الابطال . ولكن هذا لا يعنى أن يصل الحد بالمزيفين إلى أن يلصقوا بعرابى كل نقيصة ، ويبلغ بهم الافتراء إلى نسبة القيادة إلى غيره .



● عبد العال حلمى

وقصة تلاوته. للاذكار فى فجر يوم معركة التل الكبير بينما قنابل الانجليز الغزاة تنهال على خيمة قيادته من المفتريات الضخمة وقد كان لها تأثيرها وربما ما زال على الكثير من العقول فى تقديرها لقيمة هذه الانتفاضة وأهميتها . وليس أقل من ذلك بشاعة محاولتهم أن يثبتوا فى أذهان جموع الاجيال المتتابعة منا أن هذه الوثبة الوطنية الضخمة لم تكن الا مجرد « هوجة » وهوجة « عرابى » بالذات .

أن الاحداث الطارئة والعوامل الشخصية فى سير التاريخ هى بمثابة الشكل . أما الواقع فان الذى يحرك التاريخ هو المضمون العام . محتوى التاريخ هو روح الجموع ، لان الجموع هى قوة الدفع . فان يكن عرابى قد اضطهد فى باكورة حياته العسكرية ، بل وان يكن عثمان رفقى الشركسى قد حاول محاباة أبناء جلدته على حساب الضباط المصريين فى تعصب وغطرسة . وأن يأمر بعزل

عبد العال حلمى سرا . . ثم يبلغ خبر هذا العزل للضباط المصريين ، فيجتمعوا بمنزل عرابى لمقاومة هذا العسف . كل هذه الاحداث والعوامل لم تكن الا الشكل الذى تبلور فيه سير التاريخ . أما المضمون العام الشامل الذى منسهم فانه هذا الشعور الذى كان يملأ جنبات مصر وتفيض به صدور الجموع المؤلفة من أبنائها قاطبة وهو الذى دفع بأحرار المصريين إلى تكوين الحزب الوطنى فى ذلك الوقت . وهو الذى دفع بعامة الناس إلى السخط والتبرم من قبل ذلك بسنوات وسنوات على أيام اسماعيل ومن قبله سعيد وعباس وفى ظل سيطرة محمد على . وهو الذى دفع بالجموع يوم وقعت الواقعة بعد ذلك وارتمى الخديو فى أحضان غزاتهم أن يقفوا كتلا متراصة وراء ثورتهم لدرجة « انه لم ينفق على الجيش أثناء القتال درهم واحد من خزانة الحكومة » كما يقول عرابى فى مذكراته المخطوطة . ولدرجة « أن جميع النفقات التى لزمت لمائة ألف جندى مصرى أثناء الحرب كانت كلها تبرعات من الأمة المصرية بغير تمييز بين العقائد . . ومن الأهالى من تبرع بنصف ما يمتلك ومنهم من عرض أولاده للدفاع عن الوطن لعدم قدرته على الدفاع بنفسه فأظهرت بذلك الأمة المصرية كلها من النخوة والغيرة مالم يسبق له مثيل فى القرون الخالية كما أقر عرابى نفسه .

ذلك أن الفرصة قد واتت الأمة بوقوع الثورة لاسترداد حريتها واستقلالها وكانت تلك هى روح الجموع التى تصنع التاريخ دواما .

ولكن ما دور الأبطال ؟ الأبطال الذين تنبتهم الجموع ؟ .

أن فى تاريخ الثورة العرابية من البطولات ألوانا لعل أجدرها بالتسجيل الدور الذى لعبه عبد العال حلمى أحد زعمائها البارزين . ذلك أن اسمه يرتبط بالكثير من المواقف المشرفة . ولعله الوحيد بين العرابيين الذى استحق عن جدارة أن يكون موضع اضطهاد أعداء الثورة من الشراكسة إلى الخديو إلى الانجليز . وليس من باب السجع أن يطريه النديم خطيبها المفوه فيقول أن « عبد العال هو رجل الرجال » ويصفه عرابى بأنه (الشهم صاحب العزم

القوى) وحين يموت يجمع اخوانه على نعيه بصفة واحدة هى انه كان . . (شهيد الوطنية) .

لم يكن عثمان رفقى ناظر الجهادية الشركسى من الرعونة بحيث يبدأ حملته على المصريين بنقل الاميرالاى عبد العال حلمى قائد الآلاى السودانى بطرة إلى ديوان الجهادية وتنزيله ليعمل معاونا بالنظارة . فالواقع أن كل الدلائل كانت تشير إلى أن موجة السخط التى أخذت تشيع فى الجيش مصدرها قيادة آلاى طرة . ذلك أن قائد هذا الآلاى الذى عرف بصلابته واعتداده بمصريته كان محبوبا من الجنود والأهالى على حد سواء ، فكثيرا ما شوهد فى ندوات الذوات بحلوان يجادل فى أمور السياسة . . وكثيرا ما سمع أنه يخطب فى العساكر داخل الآلاى بكلام غريب حول الحرية وحقوق الأوطان . .

وقد أقدم عثمان رفقى على هذه الخطوة بعد تدبير وروية وبعد أن اقنع الخديو توفيق بضرورة هذا التنزيل . ولكنه ما كاد يحصل على الموافقة السنية ويزف بشراها إلى المحيطين به من أعوانه حتى كان خبرها قد سرى إلى كافة الاسماع والتقى جميع الضباط المصريين النافرين فى بيت عرابى . ومنهم على فهمى حكمدار آلاى الحرس الخديوى الذى سبق أن حاول عثمان رفقى الدس له بنفس الأسلوب .

وكان عرابى أيامها قد عرف بحميته المصرية وعداوته للشراكسة . وأصبح بيته مقصد الساخطين . فلما بلغه هذا النبأ وكان مدعوا فى وليمة قال غاضبا وهو يسرع إلى ملاقاة اخوانه المجتمعين فى بيته « أن هذه لقمة كبيرة لا يقوى عثمان رفقى على هضمها » .

والحق انها كانت لقمة كبيرة ، لأن عبد العال حلمى لم يكن مجرد حكمدار آلاى أو مجرد رجل عسكرى يتمتع بالصلابة بالتى يتصف بها عادة العسكريون وانما عرف بتعصبه الجارف لمصريته واعتداده بقوميته وحب الناس له . واشتهر بين العرابيين بأنه الرجل الذى « لا تأخده فى الحق لومة لأئم » . . كما عرف فيه عرابى العدو اللدود لبطانة الخديو .

وكان عبد العال يمتاز فوق كل هذا بأنه أكثر العرابيين صلة برجال الفكر الاحرار الذين يطالبون بالشورى ويعادون الحكم المطلق . . وقد كان مثلهم

يفهم السياسة على أصولها . لذلك استغرب معظم المؤرخين أن يكون هو الذى طالب بقتل عثمان رفقى كما أورد عرابى فى تاريخه الموجز الذى كتبه لبلنت بعد نهاية الثورة . . بل استغرب بعضهم انه لم يقع عليه الاختيار لزعامة الحركة وهو الذى وقع عليه الاضطهاد . وكان له فى الجيش أتباع وأعوان أكثر مما كان لعرابى .

لكن الواقع انه لم يكن هناك أدنى مجال للتنافس الشخصى . فقد كان عبد العال رجلا لا يمكن أن يقف وراء الأحداث . ولم تكن له من صفات الزعامة ما كان لعرابى . بل أنه كان أول من أقسم لعرابى بخلاص النية . يوم قدموا ثلاثتهم العريضة التاريخية بعزل رفقى والمطالبة بالمجلس النيابى . انما تركزت بطولة عبد العال فى مواقفه .

فيوم سيق الزعماء الثلاثة إلى المحاكمة فى قصر النيل بعد تقديمهم العريضة كان عبد العال هو الذى دبر لبعض الضباط خطة مراقبة الحالة والهجوم إذا شرعوا فى محاكمتهم . ولذا كان ثابت الجنان طوال وجودهم فى السجن .

يقول عرابى : « ولما أقفل علينا باب الغرفة تأوه رفيقى على بك فهمى وقال لا نجاة لنا من الموت وأولادنا صغار ، ثم اشتد جزعه حتى كاد يرمى بنفسه فى النيل من نافذة الغرفة . . وراح عرابى يشجعه متمثلا بآيات من القرآن وبعض أبيات العزاء من الشعر واستغرب ثبات عبد العال . إلى أن فوجئوا ثلاثتهم بهجوم الضابط الباسل محمد عبيد بطل التل الكبير واخلاء سراحهم وخروجهم ظافرين » .

يقول الرافعى : أما الآلاى السودانى المرابط بطره والذى كان على رأسه عبد العال حلمى فكان قد هب لنجدتهم . فلما حضر الأميرالاى الجديد (المعين فى مكان عبد العال) وبصحبته خورشيد باشا طاهر ياور الخديو ، بادر البكباشى خضر أفندى إلى اعتقالهم ووضعهم تحت الحفظ . ثم أمر بتوزيع الأسلحة والذخيرة على الجنود وسار بهم إلى قصر النيل لانقاذ الضباط الثلاثة . . فكأنه لو لم يهم محمد عبيد بأنقاذهم لكان الآلاى السودانى قد قام بدوره الذى رسمه له قائده السجين » .

أكثر من ذلك على ما يورد الرافعى :

« وقد شعر ناظر محطة طره بهذه الحركة فأرسل تلغرافا إلى الخديو ينبئه بها . فأوفد الخديو أحد ياورانه لمقابلة خضر واخباره بما تم من الافراج عنهم واقناعه بالرجوع بالاورطة ، لكن الجند استمروا سائرين إلى ميدان عابدين لكى يشاهدوا الزعماء الثلاثة بعد الأفراج عنهم . وتقدم ضباط الآلاى إلى عرابى و إلى قائدهم وتعانقوا . . واحتشد الناس فى الميدان لمشاهدة هذا المنظر الذى لم يألفوه من قبل . وعندئذ وقف عرابى يخطب بأعلى صوته وأثنى على اخلاص الضباط والجند لانقاذه وانقاذ صاحبيه » .

وكان هذا أول انتصار وقف وراءه عبد العال حلمى .

ولا غرابة بعد ذلك أن يكون عبد العال حلمى موضع اضطهاد الخديو وأعوانه ، فقد تلا حادث قصر النيل تعيين البارودى ناظرا للجهادية . ووقع فى الاسكندرية أثناء اصطياف الخديو حادث خلاصته أن عربة يقودها أوربى دهمت جنديا من المدفعية عند رأس التين فحمله اخوانه إلى السراى يلتمسون من الخديو معاقبة الجانى . وغضب توفيق وحوكم الجنود لهذه الفعلة وصدرت ضدهم أحكام قاسية . « وكان أول من بادر إلى الاحتجاج على هذه الأحكام عبد العال بك حلمى الذى قدم تقريرا إلى البارودى مندداً فيه بهذه الاحكام متهما أعوان الخديو بالبطش وانهم يحيكون له هو نفسه الدسائس فى الآيه » .

وأصر عبد العال على ضرورة رفع هذا التقرير إلى الخديو برغم شدته وصرامته . وطبيعى أن ينتهى الأمر باخراج البارودى من النظارة بعد تقديمه لهذا التقرير الصارخ . وطبيعى أن يحاط عبد العال بعدها دون بقية الزعماء بالقيود والارصاد ويبلغ الأمر إلى حد الشروع فى قتله . فقد أورد عرابى فى مذكراته أن « أحد الغلمان الشراكسة فى منزل عبد العال حلمى وهو ابن زوج حرمه المتوفى قد دس له السم بايعاز من أحد أعوان الخديو ولولا أن تنبهت الخادمة لذهب عبد العال ضحية هذا الغدر الأثيم » . والحقيقة وراء هذه المحاولة كما أوردها معتمد فرنسا المسيو سفنكس أن عبد العال كان يرتب عزل الخديو من البداية .

ويقول المعتمد الفرنسى « حدث شروع فى سم الكولونيل عبد العال وكان لهذا الحادث ضجة كبيرة حتى هاجت الأفكار هيجانا شديدا . وقيل انه سيعلن خلع الخديو » أكثر من ذلك أن يأمر ناظر الجهادية داود يكن بتحذير الضباط من الاجتماع بالمنازل وترك مراكزهم ليلا أو نهارا أو التحدث فى السياسة . . فينبرى له عبد العال حلمى مؤيدا من جميع الضباط ويرد عليه بأن « هذه الأوامر التى يصدرها حضرته مخالفة للأوامر العسكرية ومهينة للشرف العسكرى » ولا عجب بعد هذا أن تسرى الشائعات فى كل مكان بأن الحكومة تنوى أن ترسل الآلاى السودانى بقيادة عبد العال بك إلى السودان بحجة أن القوة الموجودة هناك غير كافية لحفظ النظام . . ذلك أن هذا الآلاى . . كان كما وصفه بلنت « بؤرة التمرد » .

بعدها هذا جاء يوم ٩ سبتمبر الذى حدد للمظاهرة العسكرية أمام عابدين وهو يوم من أسطع الأيام فى تاريخنا القومى . فماذا كان دور عبد العال حلمى ؟ . . أنه نفس الدور . . دور الرجل اليقظ الذى يحكم التدبير ويعرف كيف يقف وراء الأحداث . . كان الخديو يعلم بتفاصيل المظاهرة . . وقد نصحه القنصل الانجليزى بمحاولة ماكرة هى أن يطوف بوحدات الجيش ليطلب إلى الضباط الامتناع عن الخروج مع الثائرين . وبدأ بجنود الحرس ثم توجه إلى القلعة وكان ذلك فى الضحى الباكر . لكن آلاى طرة كان قد تحرك قبيل الفجر . « واصطحب عبد العال بك بلوكين من الآلاى وطلع بهما القلعة » ولم يغادرها الا بعد أن رد الخديو على أعقابه ليدخل سراياه من الباب الخلفى . . باب بارين، حسيرا يائسا . وقد فشل فى اقناع الجند بالعدول عن المظاهرة . . وفى العصر أقبل الآلاى السودانى إلى الساحة من ناحية قصر النيل وأنضم إلى الصفوف المتجمعة داخل الميدان فدوت الاكف بالتصيق وقائد الآلاى يبتسم ابتسامة خفيفة . وقد « آمال طربوشه فوق رأسه » كما كانت عادته كلما أراد الاعتداد بنفسه .

أضطر الخديوى إلى اجابة كافة المطالب التى قدمت فى عابدين وأولها سقوط الوزارة وأقرار الدستور والحياة النيابية ، وجاء شريف على رأس الوزارة فكان شرطه الأول ابعاد عرابى إلى الشرقية وعبد العال حلمى بالآلايه

السودانى إلى دمياط ، ولكنهما رفضا السفر الا بعد صدور الأمر بانتخاب النواب .

يقول عرابى فى مذكراته :

« وفى يوم مشهود سافر عبد العال بك حلمى بالآلاى السودانى إلى محطة السكة الحديدية مارا وسط المدينة . . وكان قد سبقه إليها معظم الضباط للقيام بواجب التوديع . . وكان عدد الحضور غير قابل للعدد والاحصاء . . كانت فرصة للمظاهرات الوطنية ارتجل فيها عبد العال خطبة وجيزة . إذ كان كما وصفه عرابى « قليل الكلام كثير العمل » تكشف عن اخلاصه المنزه للثورة وتنبهه لاعدائها ووعيه بحقيقة ظروفها إذ قال « أيها الاخوان . . أنا نودعكم والقلوب معكم . . وكلمة الوطنية تجمعنا ، فاجعلوا حبل المواصلة بيننا ممدودا . وثقوا بعزمكم ولا تطيعوا الوشاة فيما يفترون علينا كما اننا لا نسمع من واش كلاما . واعلموا اننا فى تيار أفكار أن لم نحط أنفسنا بالاتحاد . . هلكنا » فكأنه أخذ على عاتقه من البداية أن يكون حارس الثورة الأمين .

بعد أن أستعفت وزارة البارودى لرفضها قويل مذكرتى فرنسا وانجلترا بتعديل لائحة النواب (الدستور) واحتجت على قبول الخديو لمطالب الدولتين « بلغ الاضطراب فى جميع البلاد مبلغا عظيما » . واجتمع النواب فى دار سلطان باشا فى ليلة صاخبة سماها عرابى « ليلة أبو سلطان » وفى هذه الليلة تجلت صلابة عبد العال حلمى . فقد وقف يندد بمسلك الخديو واتهمه علنا بالخيانة وطالب بخلعه فورا . وحينما ختم عرابى خطبته أشار عبد العال بأخذ الأصوات « فمن كان معنا فليقم » ولما عارض بعضهم هدد عبد العال بمحاصرة سراى الاسماعيلية التى كان الخديو مقيما فيها ثم رفع سيفه وتبعه الأميرالاى محمد عبيد ، فلما أفلح سلطان وبعض « المعتدلين » فى اقناع عرابى أن خير ضمان للموقف بقاؤه وزيرا للجهادية فى الوزارة التالية ، لم يوافق عبد العال على هذه الخطوة وظل مصرا على ضرورة خلع الخديو .

ويجمع أغلب المؤرخين على أن هذه الخطوة كانت تعتبر (تهورا وتطرفا جنونيا) لكن الواقع انها كانت أولى الخطوات وألزمها ، إذ لو تمت لتحول مجرى الثورة العرابية تحولا كليا خاصة وانه لم تكد تمضى شهور قليلة حتى كشف الخديو عن خيانته بالارتحال إلى الاسكندرية وترك عاصمة ملكه للاحتماء بأساطيل انجلترا وفرنسا . وبالتالى استعداؤهم على البلاد كما هو معروف . على أن هذا لم يدفع عبد العال إلى التخلى عن دوره فى قيادة الحركة فقد ظل ملازما لعرابى زمنا طويلا وأن يكن فى تباعد أملاه طبيعة خلافه معه ومع بقية الزعماء فى ترددهم ازاء كثير من المواقف بالنسبة للخديو قبل قيام الحرب مع الانجليز بل وأثناءها . وقد تجدد هذا الخلاف بصورة قوية بين الرجلين أيام المنفى . إذ ظل عبد العال على رأيه فى انهم أخطأوا يوم لم يوافقوه على خلع الخديو من البداية . . الأمر الذى لم يحاول انكاره حتى أثناء المحاكمة .

ولقد تأكد صحة موقف عبد العال أيام الحرب حين أسقط فى يد العرابيين بعد أن انحاز الخديو صراحة للانجليز وراحوا يؤلبون عليه البلاد محاولين خلعه فى النهاية .

وكان عبد العال قد رتب له الدفاع عن الجبهة الشمالية قومندانا لخط دمياط ولم يتح له الاشتراك فى الحرب لأن هذه الجبهة لم يدركها الغزو . يقول بلنت فى تعليقه على معركة التل الكبير أنه « بعد اصابة على فهمى وراشد حسنى اشتدت حيرة عرابى فيمن يخلفهما على القيادة وكان عبد العال حلمى خير من يصلح لهذا بآلايه السودانى المدرب أحسن تدريب ، وهؤلاء لم يشتركوا قط فى المعركة . وكان من حسن التدبير أن يستدعى عرابى على الأقل الآلاى المرابط فى دمياط ، ولكنه لم يفعل » والواقع أن عرابى فعل وأرسل فى طلب المدد من الرجال والعتاد . فجاءه من دمياط وكيل الآلاى خضر بك خضر ومعه أورطتان . أما عبد العال فقد تخلف للدفاع عن هذا الموضع العام مخافة أن ينزل الانجليز به فرقا بقصد تطويق التل الكبير ، وهذا يتفق تماما مع طبيعة الرجل وحرصه الدائب على حماية ظهر الثورة . هذا إلى انه لم يكن على علم تام بحقيقة الموقف والحاجة الماسة لوجوده فى التل الكبير ، والا فلو كان

عبد العال كما زعم بعض المؤرخين يرفض بعد خلافه الجوهرى مع عرابى وبقية الزعماء أن يلازمهم فى حرب لما كان هو الوحيد الذى رفض التسليم وظل يحارب .

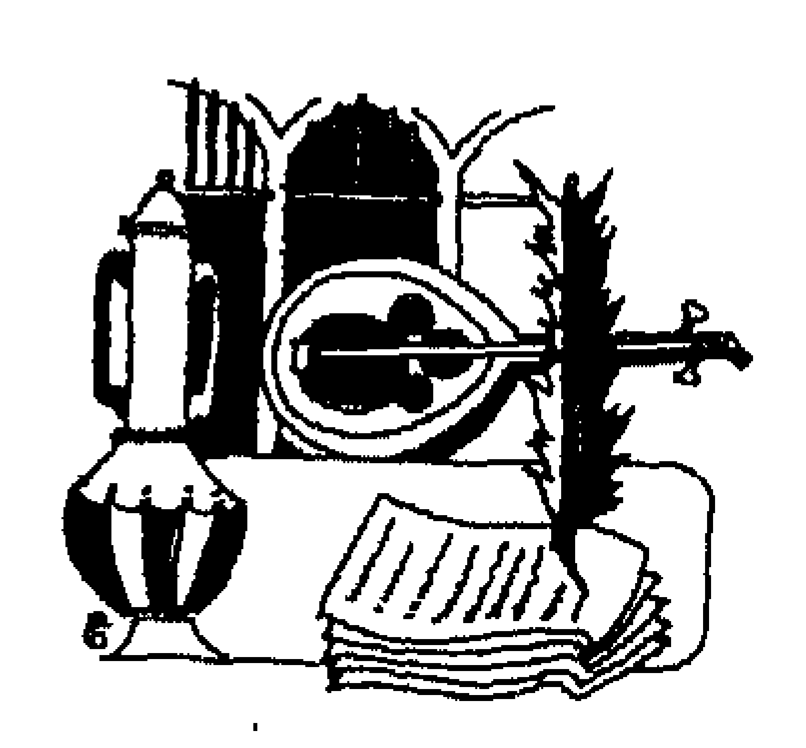
يقول الرافعى :

« أما عبد العال باشا حلمى قائد موقع دمياط فقد أبى التسليم فى بادىء الأمر وحاول اقناع الأهالى بأن عرابى مازال يقاوم ويدافع ، ودعا إلى القتال حتى النهاية واستمر على موقفه أسبوعين وأكثر حتى هددت الحكومة باعدامه رميا بالرصاص . . ثم عدل عن المقاومة . وسلم نفسه وقبضوا عليه وأرسل إلى العاصمة هو وضباطه يخفره الانجليز » .

بقيت قصة خلافه فى المنفى مع عرابى وقد أوضحناها على حقيقتها فيما سبق . لقد كان خلافا على مبدأ ولم يكن خلافا على زعامة أو قيادة أو سلطة ونفوذ . . ولا أدل على ذلك من رثاء عرابى له وهو يحكى عن وفاته :

« وفى سنة ١٣١٠هـ . توفى إلى رحمة الله تعالى شهيد الوطنية والغربة عبد العال باشا حلمى ودفن فى قرافة مردانة وضريحة مشهور « يزار » وذكراه عاطرة حية سنظل نحج إليها كلما ذكرنا المصرية الصميمة فى أجلى مظاهر تطلعها نحو الحرية » .

ولا مراء أن عبد العال حلمى كان كما وصفه النديم « رجل الرجال » بما جبل عليه من صفات وما رواه عنه التاريخ من أخلاصه للثورة فى مواقفه منها وتفانيه فى خدمتها وحراستها وانكاره لذاته من أجل تحقيق أهدافها .



محمود سامى البارودى

١٨٤٠ - ١٩٠٤

فى هوايتى الدائبة لتلمس بعض خبايا تاريخنا من خلال شخصيات أبطاله . . أخترت قبلا من الستة الكبار بين العرابيين . . أحمد عرابى وعبد العال حلمى وعبد الله النديم . . والأخير لا يعتبر بحكم الرصيد الرسمى للتاريخ واحدا منهم . . رغم الدور الكبير الذى لعبه فى صلابة . . وذلك لانه لم يقبض عليه ولم يحاكم ولم ينف معهم . . وبالتالى يوضع فى السجلات المقررة للزعماء العرابيين الرسميين . . . لكنى اختار تانى أو ثالث الستة الكبار وهو محمود سامى البارودى . . لأنه بشخصيته ومواقفه ونضاله يمثل ظاهرة

● البـــارودى



● بريشة الفنان حسين بيكار

متتابعة التكرار فى تاريخنا القومى الثورى . . فقد كان يوجد دائما فى قفزات العبور التى تنتقل بحياتنا من مستوياتها العادية إلى المرتقى الثورى لتطورها . . شخصيات يمكن أن نسميها (همزة الوصل بين القديم الذى لم يبلغ نهايته . . والجديد الذى أخذ فى الامتداد ليحقق غاياته) .

ومن هذه الشخصيات مثلا . . الشيخ الشرقاوى والشيخ المهدى على عهد ثورات شعبنا التى تزعمها عمر مكرم فى وجه المماليك وأيام حلمة نابليون وفى ظل حكم محمد على . . ثم عبد العزيز فهمى وعلى شعراوى يوم وقوع ثورة ١٩١٩ بزعامة سعد زغلول . كذلك كان البارودى بالنسبة للثورة العرابية . . همزة وصل . . وكان اصلب عودا واثبت جنانا وأقوى منطلقا فى حمل راية التطور عن نظرائه الآخرين .

والخيط الرئيسى فى شخصية البارودى ونضاله . . والذى يحفظ له امتداده لأبعد من فترات الربط بين مرحلتين . . تتمثل فى شاعريته . . وهى

شاعرية تستمد جذورها من التراث العربى الخالص وتحتذى بقيمه ومثله القائمة على الاعتداد والكبرياء والشموخ بالنفس والتى تجمع فى طياتها بين طموح المجد القائم على شرف المحتد والأصل العريق إلى جانب التعفف الذى قد يجد له فى الزهد خير مرتع للكبرياء ، فاذا أضفنا إلى ذلك البيئة التى نشا فيها وهى بيئة ارستقراطية بحتة . . اتاحت له إلى جانب التزود بالمعارف والثقافات الحضارية ما يمكن أن نسميه . . سلوك (الجنتلمان) لما راعنا أن يكون الرجل فى نظر الجميع أكثر العرابيين تهذبا وارتقاء بالمفهوم الأخلاقى وبالتالى أقدرهم على أن يكون موضع ثقة الذين أعتبروهم فلاحين عصاة ومتمردين خرجوا على كل عرف وكل تقليد وحطموا القانون . .

وصفة أخرى ميزت البارودى فى مضماره الفذ كزعيم سياسى . . أنه كان بحكم شاعريته سريعا فى اهتزازه العاطفى . . وأن حرص دائما على إلا يندفع على نفس الصورة العاطفية الساذجة التى كان يندفع بها عرابى والتى ورثها بحكم منبته الريفى كفلاح . . ولكن شاعرية البارودى أو على الاصح تركيبه الذاتى كفنان متقلب العاطفة قلق النظرة . . سريع التطير . . كان يمكن أن تجنى عليه فى مراحل عديدة . . لولا انه لم ينس فى لحظة من اللحظات مكانته الطبقية . . وفى نفس الوقت استعان بالشعر كمنطلق أساسى للمحافظة على توازنه فلم يفته موقف أو حادث الا ونقله أو على الاصح انتقل به طائرا صداحا على متن القريض . . وبهذا كان يرتفع غالبا بنفسه عن مهاوى السقوط أو الانحياز إلى غير الجانب الذى اختار الوقوف منه من البداية . . وهو جانب التمرد على الظلم وطلب الحرية لوطنه ولنفسه . . ولهذا أيضا . . استطاع أن يربط بين الدورين الكبيرين فى حياته . . دور القائد والزعيم السياسى الذى أحب وطنه وافنى عمره فى الدفاع عن حقوقه . . ودور الشاعر الرائد الذى قدر له أن يتصدر فترة الانتقال بالشعر إلى منطلقه الحديث . .

ولعل ابرز ما يهمنا فى تتبعنا للبارودى التى كان يمثلها . . سواء فى زعامته أو شاعريته . . وكلاهما لا يمكن الفصل بينهما . . ونبدأ من النهاية ، فحين رجع من المنفى بعد أن أوشك على فقد بصره وكاد يدركه العمى على آخر عام فى القرن المنصرم ١٨٩٩ . . لم يلق نفس المصير الذى لقيه عرابى من فقر ومهانة

وذل وحرمان وجحود تام . . وانما هيأ له ماضيه وموقفه كسليل للطبقة التى سادت وسيطرت بعد كسر شوكة الفلاحين . . وهى طبقة الاقطاع التى اعاد لها الاحتلال مكانتها وثرواتها ، ونفوذها . . ان يحظى باسترداد مركزه وثرواته فلم يكد يمر عام حتى قد استرد قصره وضياعه . . وأعيد إليه لقبه كواحد من الباشوات العظام . . وترك حلوان ليستقر فى بيته الشهير . . بيت « غيط العمدة » فى باب الخلق وهو البيت الذى شهد الكثير من المواقف والوقائع والأحداث الكبار وكان مستقرا رئيسيا لحركة العرابيين . . وانقلب البيت لسابق عهده قبل قومة الضباط الثلاثة وسجنهم فى قصر النيل مع بداية الثورة . . فاذا به يتحول إلى محفل أدبى يجتمع إليه فيه . . بدلا من زعماء السياسة والحرب اعلام الشعر والادب والفن الفكر . . اسماعيل صبرى وأحمد شوقى وحفنى ناصف وحافظ إبراهيم . . يجاورهم الشيخ محمد عبده والسيد رشيد رضا . . وكلهم يلتفون حول (امير القوافى) البارودى وليس فى يده من كل ما مر به من أمجاد ونفى وبطولات . . غير ديوان ضخم من الشعر . . يحاول اكماله وتنقيحه ليتمه ٥٣١٣ بيتا . . كآية باقية لمجده السليب وتراث يغنيه عن زعامة الحرب والسياسة وعلى رأس جلساته الادبية المتصلة بدأ البارودى يستعيد أحلام شبابه الاصيلة . حقا أنه فارس خلق للحرب والطعان . . وزعيم خلق للرئاسة والحكم . . ولكنه من البداية ند من انداد الخلود فى دنيا القوافى والبحور . . انه حامل قلم وصاحب قرطاس . . فاذا انتهى من ضبط ديوانه . . راح يشغل نفسه ويستبقى مجده بخدمة الشعر . فتارة يختار من بين دواوين الشعر العربى القديم . . ثلاثين ديوانا لينتخب منها (مختارات) من عيون الشعر . . حتى إذا فرغ من ذلك . . راح يجمع بمعونة سكرتيريه (لضعف عينيه) مادون من نثر ورسائل وخواطر وسوانح فى كتاب قدر له الا ينشر من كثرة ما فيه من سجع وغموض وهو كتاب (قيد الاوابد) أى تسجيل ما خلف من كتابات قديمة . . وكان طبيعيا حين مات الا يذكره أحد بغير مامات عليه . . وعلى حد ما وصف خليل مطران مشهد جنازته . . (لقد نسى الجميع أنه كان الوزير رب الدولة . . والفارس صاحب الصولة . . و إنما بكوا ذلك الخلق الجليل فى ذلك الخلق الجميل . . وذكروا

الشاعر) وعلى حد شعره .

انا شاعر . . انا فارس　　　　في كل ملحمة ونادى

كانت هذه اذن هى الخاتمة التى اختارها البارودى لنفسه . . ان يذكر على مر السنين كشاعر . ابقى واخلد من أن يذكر كزعيم سياسى أو قائد عسكرى محارب . . ولكن الحق ان زعامته وقيادته . . انما كانت تستمد قيمتها واصالتها وقوتها من شاعريته وحدها . . ولا جدال أن البارودى الشاعر صرح كبير فى تاريخ وبناء الشعر العربى أنه امام الشعر الحديث ورائد نهضة المحدثين . . لكن هذا ليس مدار بحثنا بالفعل لان ما يعنينا اصلا ان نفسر دور البارودى ومن خلفيته حقيقة ما لازم مواقفه من الثورة العرابية . . وفى هذا تلزمنا التفاتة سريعة خاطفة إلى ماضى البارودى وشبابه وتكوينه قبل ان يصبح هذه الشخصية السياسية ذات الوزن والتقدير بين زعماء الثورة العرابية وهو من منبته سليل للمماليك الشراكسة . . وقد كان حريصا دائما على عادة الشعراء القدامى . . أن يؤكد أصله وشرف محتده . . وصرف فى ذلك الكثير من الأموال حتى اثبت صلة نسبه المباشر بصلاح الدين الأيوبى . . اما اجداده فكانوا من نسل المماليك . . وقتل جده لأمه مع جده لأبيه فى مذبحة القلعة الشهيرة على يد محمد على . . ومن هنا جاءت كراهيته لبيت الملك رغم ارتباطه اللاصق بالخديويين . . ومن فواجعه فى الاسرة العلوية . . مصرع والده اللواء حسن حسنى البارودى على أيام محمد على أيضا . . إذ أرسله فى حملة إلى السودان للتخلص منه . . فعاش يتيما يذكر والده بكل اجلال ولا ينسى مأساة اجداده . . ولانه من أبناء الجراكسة فقد ادخل المدرسة الحربية بحكم التقاليد السائدة للطبقة الحاكمة . . لكن البارودى كان من البداية مولعا بالشعر وقد استطاع بمعونة امه المحافظة على تقاليد الاسرة فى أسلوب تربيته . . فلم تقاوم نزعته للشعر . . بل ربطت بينها وبين روح الفروسية التى اجتذبتها إليها سيرة ابيه وأجداده . . ومن حسن الحظ أن تعلق البارودى من البداية بالشعر العربى القديم وبالذات شعر الفحول من الفرسان عنترة وأبو نواس والمتنبى أيضا . . فلما انصرمت ولاية عباس الأول . . ثم بعده سعيد . . وهى فترة اتسمت بتسريح الجيش للحفلات

والمهرجانات . . ملأ البارودى شبابه الفتى . . فكان يصول ويجول على متن القريض كفارس مغوار حرم من القتال . . وادى به الحال إلى الارتباط أكثر فأكثر بالحياة الثقافية القائمة . . فاذا به يندمج بروح الفنان المثقف مع جماعات الساخطين المتذمرين على أحوال مصر فى ظل حكم سعيد . . ثم ينتهى به اليأس إلى السفر للاستانة ليعمل بوزارة الخارجية التركية ويترك خدمة الجيش . . وجاءت فرصته المواتية ليعود إلى أرض الوطن حين اختير ضمن بعثة الشرف المرافقة للخديو اسماعيل وهو يزور الاستانة . . فتعرف عليه وارتبط به ليعود معه . . . ولكن هذه المرة . . كى يلتحق بالحرس الخديوى كضابط . . ثم يسافر فى بعثة إلى انجلترا وفرنسا ليطلع على نظم الجيش فيهما . . وبذلك يضيف إلى رصيده الثقافى رؤية حضارية أخرى تنقله إلى هذا المثقف الثائر المستنير . . الذى يمتطى صهوة جواد عربى أصيل شاهراً سيف الشعر التقليدى على رمح من الطموح السياسى . . امدته حياته فى الخارج أذن بنظرة جديدة موسعة الافاق يحوطها اطار عصرى من فهم معانى الحرية والتقدم . . فلما عاد من حرب جزيرة « كريت » على رأس فيلق لمساعدة الاتراك . عاد ليجد الأمة المصرية التى تحالفت عليها الجهالة والعزلة وجمود الروح . . فى داخل سجن كبير من الاستبداد والقهر . . ليجدها وشعبها فى تحفز إلى الحركة طلبا للحرية الفردية المهدرة والحرية القومية الضائعة . . فجعل من بيته فى باب الخلق منتدى لعشاق الادب والفكر والشعر والمعرفة . . يضارع مجالس الافغانى ويجارى قعدات وسهرات . . (رجالات النفور) من الذين كانوا يحركون الاحداث بضمائر يقظة وعرفوا . . بالحزب الوطنى الأول فى حلوان . . على انه فى هذه الفترة التى امتدت ثمانى سنوات . . وقد أصبح ياورا خاصا لاسماعيل . . عرف حياة اللهو والبذخ والقصور بصورة جارفة . . هى التى أدت به فى نهاية الأمر لينقلب على اربابها . . ويرتد إلى ما سماه « عهد المسئولية والهداية » واسرعت الأحداث بالفتى الذى لم يجاوز الثلاثين . . فاذا به من طول عشرته مع الفساد بين اسماعيل وحاشيته . . ومن طول مراقبته للظلم والجور والضياع الصارخ الذى تتعرض له البلاد . . يهتز فى شاعرية الفنان الصادق الذى يفيق إلى

نفسه . . وبدأ تيار الفساد والظلم يجر البلاد إلى الهاوية فانطلق البارودى . . شاهرا القلم على متن قوافيه . . . فلا يقف عند حد التنبؤ باقبال الكارثة بل يخوض لجة الوعى فارسا يلهب السوط فى حماس متأجج لافح . .

فياقوم هبوا انما العمر فرصة	وفى الدهــــر طـرق جمه ومنـــافع
أصـــــبر على مس الهوان وانتم	عديد الحصى . . انى إلى الله راجع

كانت لهجة جديدة تطلقها عقيرة شاعر . . ولكن . . أى شاعر ؟ ! ان مكوناته جميعها ومكانته ومركزه ، تدفع به إلى مقام الصدارة فى مواجهة الاحداث . . نعم انه سليل الشراكسة المستبدين . . ولكنه أيضا صاحب الشجرة التى تقطعت اغصانها جيلا فجيلا على يد الأسرة العلوية الحاكمة . . ثم انه هذا المثقف الحر الابى الذى وعى العراقة الثورية للتراث العربى بما فيها من شموخ وإباء مضافا إليها المعرفة الواعية بمنجزات العصر وحضارته . . القائمة على الحرية والاخاء والمساواة وكلها صفات تلتف حول راية الوطنية الخالصة وحب الأرض التى ولد وعاش فيها .

حكموا مصر وهى حاضرة الد	نيا وقد سما حسنها فى البوادى
أصبحت بعدهم جحيما وكانت	جنـة ليس مثلهـا فى البـلاد

وهكذا سارع حين واتته الفرصة بالانسلاخ عن معية اسماعيل ، واندفع ثانية إلى الجيش والحرب والطعان ليطفىء غلة حميته وحماسه . . والتحق بالحملة المصرية المسافرة لمعونة الترك فى حربهم مع الروس داخل البلقان . . وعاد بعد هزيمة تركيا ليجد البلاد تغلى مراجلها . . فهذه جماعات المفكرين التى يوجهها الافغانى . . وفى حلوان رجالات الحزب الوطنى الحر يجهرون بالثورة والجرائد والصحف تندفع صارخة فى وجه اسماعيل بعد أن أوقع البلاد فى أسر أصحاب الديون الاجانب وجلب عليها الخراب العاجل . .

وأيامها كانوا قد عينوه مديراً للشرقية ثم نقلوه محافظا للعاصمة . . فشهد بداية التدخل الاجنبى السافر بتكوين الوزارة المختلطة على نهاية عهد السفاح اسماعيل . . وسقط الخديو ليحل مكانه ولى عهده توفيق بضغط من انجلترا وفرنسا . . فكانت الضربة القاضية على كل اماله فى « اولياء النعم » ذلت بهم مصر بعد العز ، واضطربت قواعد الملك حتى ظل فى خلل . وطبيعى بعد ذلك حين تتوالى الاحداث فينفى الافغانى . . ويشتت تلاميذه وتكمم الافواه ثم يشرد رجالات الحزب الوطنى . . . فلا يبقى من سبيل إلى الخلاص إلا بالثورة العسكرية المسلحة . . طبيعى جدا . . ان تهيىء ظروف البارودى وتطورات حياته جميعها . . كرجل عسكرى ومفكر ثائر ووطنى غيور وعدو لدود للظالمين . . لكى يقف فوق هامات الاحداث كرجل الساعة أو همزة الوصل بين المرحلتين . . وبذلك يحقق ظاهرة مكررة فى تاريخنا الثورى . .

وقصة ارتباط البارودى بالثورة العرابية معروفة على أوضح صورة فى ابسط كتب التاريخ . . ففى المرحلة الأولى من عهد توفيق التى بدأها بمحاولة مهادنة الحركة الوطنية . . اختير البارودى فى وزارة شريف الأولى ليكون وزيرا للمعارف والأوقاف . . بوصفه خير من يمكن أن تسترضى به القوى الوطنية المتحفزة . . وأيامها كان مشهودا له فى السر والعلن . . بانه أكثر الحكام ميلا إلى الاخذ بنظام الشورى النيابى . . واطلاق الحريات واقرار المبادىء الدستورية التى تسود حياة الأمم المتحضرة . . وقد عرف فى المنتديات الثقافية بانه « شاعر الشورى » وبدأ الضغط على توفيق من جانب انجلترا وفرنسا . . وامتدت سيطرة الطوائف الرجعية . . فعزل شريف ليخلى مكانه لرياض . . . وليدخل البارودى وزارة رياض أيضا . . وهى وزارة استبدادية واضحة الميول ومن هنا بالذات يبدأ الجانب الآخر لشخصية البارودى . . شخصية الزعيم السياسى والقائد العسكرى . . فى تأثرها البالغ واهتزازها المتصل بشخصية الشاعر الفنان الواهم المتاجج العاطفة . . فى اتجاهاته القلقة ومواقفه المتناقضة أمام الأحداث الثورية الجسيمة . . تلك الأحداث التى ادت به فى النهاية كما اسلفنا إلى ان يحرص على رصد اسمه وتحقيق قيمته فى سجلات التاريخ الباقى . . كشاعر راشد أكثر منه زعيما

قائدا . . ومع ذلك فقد لعب البارودى فى المراحل الأولى من التحضير للثورة العرابية ادوارا فذة ما كان لغيره ان يقوم بها . تبدأ بدوره كهمزة الوصل الرئيسية فى الجمع بين الفلول المشتتة من رجالات الحزب الوطنى وجماعة الضباط التى يقودها عرابى ويلهبها عبد العال حلمى . . ثم قيامه بالدور الأول فى دعم الحركة الثورة بذخيرتها الاصيلة من رجالات الادب والفن والفكر كالنديم ومحمد عبده وبقية الكتاب والمفكرين من تلامذة الافغانى ، وأكثر من ذلك فقد كان البارودى هو العين الكاشفة لكل ما يجرى خلف الجدران الرسمية ضد الحركة الوطنية ورجالها . . فى كافة جوانبها السياسية والعسكرية والفكرية بالذات الجانب العسكرى ، فهو أول رجل فى السلطة يقف جهارا مع مطالب الضباط من ابناء الفلاحين . . ثم يطلعهم سرا على ما يدبر لهم فى الخفاء واخيرا يستقيل من نظارة الجهادية تحت ضغط رياض وبموافقة الخديو . . لانه ضالع مع المتمردين . .

والحق ان استقالة البارودى من الجهادية ثم تحديد أقامته فى عزبته بأجا . . كانت النذير الأول لتكاتف العرابيين . . الأمر الذى دفع بالبارودى إلى العودة سريعا للقاهرة . . متحديا الخديو نفسه . . ليفتح داره . . لا كمنتدى أدبى . . ولكن كمحفل سياسى . . جعله يتحول إلى صفوف الزعماء السياسين الجدد من رجال العسكرية . . ومن ثم كان القبض على الزعماء الثلاثة فى قصر النيل . . ثم المواجهة التاريخية بين عرابى والخديو فى ميدان عابدين . . وشكلت وزارة شريف باشا فدخلها البارودى وزيرا للجهادية فلما انعقد المجلس النيابى . . لعب البارودى أكبر دور فى اسقاط وزارة شريف لانقيادها إلى مطالب دولتى المراقبة الثنائية . . انجلترا وفرنسا فى مذكرتهما المشتركة بغية اخضاع ميزانية البلاد لاشرافهما الكامل . . وسقط شريف والمجلس فى عنفوانه ليصبح البارودى بلا منازع . . أول رئيس لوزارة وطنية دستورية تعرفها البلاد ـ وكان ابرز ما فعله الابتعاد بوزارته عن سلطة الخديو . . وتعيين عرابى وزيرا للجهادية والاستناد إلى السلطة الجديدة فى البلاد . . وهى سلطة الجيش المعبر عن مطالب الشعب . .

وهنا يبرز السؤال الضخم الذى يتردد متراوحا فى الحكم على البارودى

وشخصيته فيما استجد بعد ذلك من أحداث . . فهل كان الرجل طموحا يسعى إلى تحقيق ذاته ؟ ؟ أم أن مبادئه هى التى كانت تحركه ليلعب هذا الدور الكبير الذى لعبه ؟ ؟ ان ظاهرة وجود البارودى على رأس الحركة العرابية كهمزة الوصل بين المرحلتين التاريخيتين . . ظاهرة مكررة فى تاريخنا الثورى . . وظروف البارودى الطبقية ومكانته الاجتماعية ومركزه الوظيفى وشخصيته قد اعانته كثيرا على ان يحتل مركز الصدارة فى هذه الأحداث الجسام . . ولكن اضطراب مواقفه بعد ذلك يشير إلى انه . . ربما بحكم تكوينه الطبقى . . وربما بفعل طبيعته الشاعرية . . كان أضعف من أن يقف بصلابة سياسية أكيدة ليحقق فى نضاله السياسى والعسكرى . . ما حققه فى شعره . . من زعامة وريادة . . لقد كان طبيعيا أن يعصى البارودى أوامر الخديو . . فيعود من ضيعته ليساهم مع رجال العسكرية فى المحافظة على الدستور والحياة النيابية ثم ليرأس أول وزارة دستورية وطنية فله من ماضيه وصلابته السياسية ومكانته ما يؤهله لذلك . . ولكن من ذا الذى يستطيع أن يبعد عنه مظنة الرغبة فى الملك . . بعد خيانة الخديو السافرة وانحيازه الكامل للغزو الانجليزى . . ثم محاولة عزله . . لقد كان هذا هو الاتهام الذى وجه للبارودى فى المحاكمة . . ولكنه انكره بكل شدة . . ومع ذلك . . كان الورقة الرابحة فى يد الانجليز . . لانهم افلحوا بها فى الوقيعة بينه وبين عرابى وصحبه . . الأمر الذى أدى إلى نفوره منهم ومقاطعته لهم فى المنفى . .

ولا جدال أن مواقف البارودى فى تلك الفترة تكشف عن الكثير من وجوه التناقض . فحين سافر الخديو إلى الاسكندرية بحجة التصييف . . وطالبه الزعماء بالعودة إلى العاصمة والابتعاد عن المعركة المنتظرة وحتى لا ينحاز إلى قوة الاسطول الذى جاء بزعم حماية الخديو والاجانب فى مصر وكان البارودى على رأس المنادين بعزله . . لكنه بعد انتقال عرابى إلى طوابى الثغر . . سافر البارودى إلى هناك . . ليكون أول من ينصح عرابى بفك الحصار عن الخديو فى سراياه بالرمل . . . وهى الشىء الذى ساعد الخديو على أن يرتمى كلية فى احضان الانجليز ويحتمى باساطيلهم . . موقف متناقض

من البارودى . . ادركته فراسة عبد العال حلمى فندد به وكان سببا فى الانقسام الذى حدث بعد التراجع إلى كفر الدوار وأدى إلى مطالبة البارودى بالعودة إلى القاهرة . . وتصميمه على ابعاد عبد العال حلمى إلى منطقة شمال الدلتا ليتحصن فى المدخل التاريخى للغزو الأوربى عند دمياط والمنصورة . وفى القاهرة وجد البارودى نفسه فى المكان الثانى بعد يعقوب سامى رئيس المجلس الحربى الذى يحكم البلاد بأسم العرابيين . . فارتد ثانية ليلحق بعرابى بعد اخلاء كفر الدوار ليحمل راية الدعوة الأكثر تطرفا وهى ضرورة ردم قناة السويس . . فلما رفضها المجلس الحربى . . غضب البارودى . .

نصحت فكذبتم . . فلما اتى الردى عمدتم لتصديقى وقد قضى الأمر

بعدها مباشرة تراخت صلة البارودى بالعرابيين . . لقد كان دائما يصر على انه صاحب الكلمة النهائية الفاصلة والا أبتعد عن الاحداث . . وكثيرا ما ظل يهدد بذلك فى معظم واحرج اللحظات . . ورغم هذا فقد ابت عليه فروسيته أن يرفض قيادة مواقع الجيوش المتمركزة فى « الصالحية » غرب الاسماعيلية وكان قوامها ١٢ ألف جندى . . ووقعت معركة التل الكبير وما صاحبها من خيانات على يوسف خنفس والاعراب . . وأستمر البارودى فى عناده . . فاذا به على عكس الأوامر المقررة . . يصل إلى التل الكبير من رأس الوادى بعد انتهاء القتال وانسحاب العرابيين للقاهرة . .

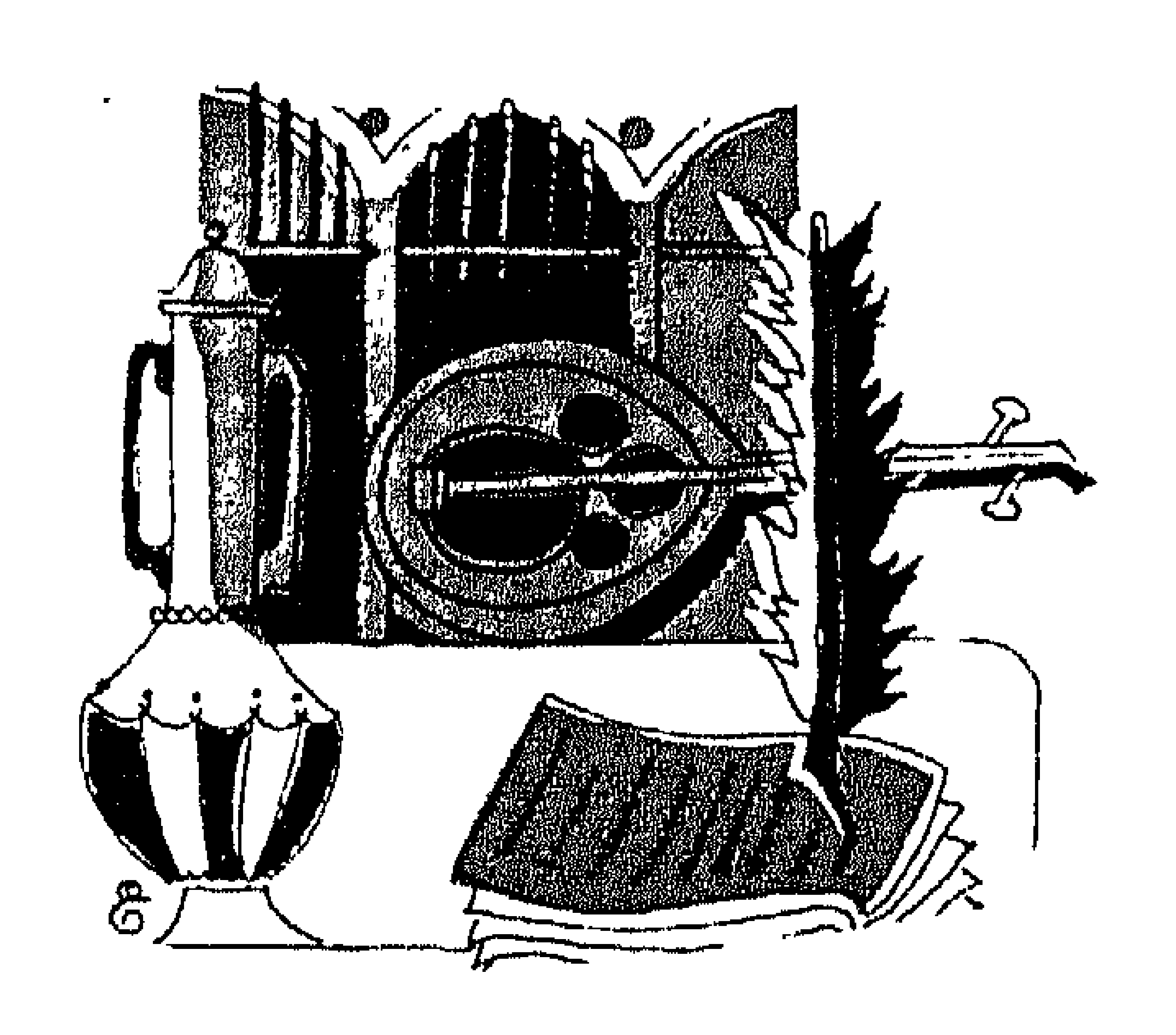
يقول بلنت « ان إبعاد عبد العال حلمى إلى شمال الدلتا بالآلاى السودانى وهو أقوى فى جيوش العرابيين والذى أنقذ الثورة فى أكثر من موقف . . ثم الارتكان على قوة البارودى الذى كان بعناده سببا فى هذا الابعاد . . أدى إلى سرعة الهزيمة فى التل الكبير . . وهى هزيمة لم تكن متوقعة بأى حال من الأحوال ومن أجل هذا ارتد البارودى يائسا وهو يردد . . « انى ذاهب إلى بيتى . . فاذا ارادونى . . فانهم يعرفون أين يجدوننى » . .

ولقد استطاع الانجليز ومعهم اعوان الخديو أن يستغلوا هذا اليأس والنفور فى زيادة حدة الوقيعة بين البارودى وعرابى وصحبه خاصة وهم فى السجن قبل المحاكمات . . فعاملوه ارهف معاملة رغم اضطهادهم للباقين

وتعذيبهم لعبد العال حلمى وكان أكثرهم ثباتا . . ومن ثم أطلق البارودى صيحته بالشعر فى مهاجمة العرابيين :

أضعف زمانى بين قوم لو أن لى	بهم غيرهم ما أرهقننى البوائق
فتبالهم من معشر ليس فيهم	رشيد ولا منهم خليل مصادق
فياليتنى راجعت حلمى ولم أكن	زعيما وعاقتنى لذالك العوائق

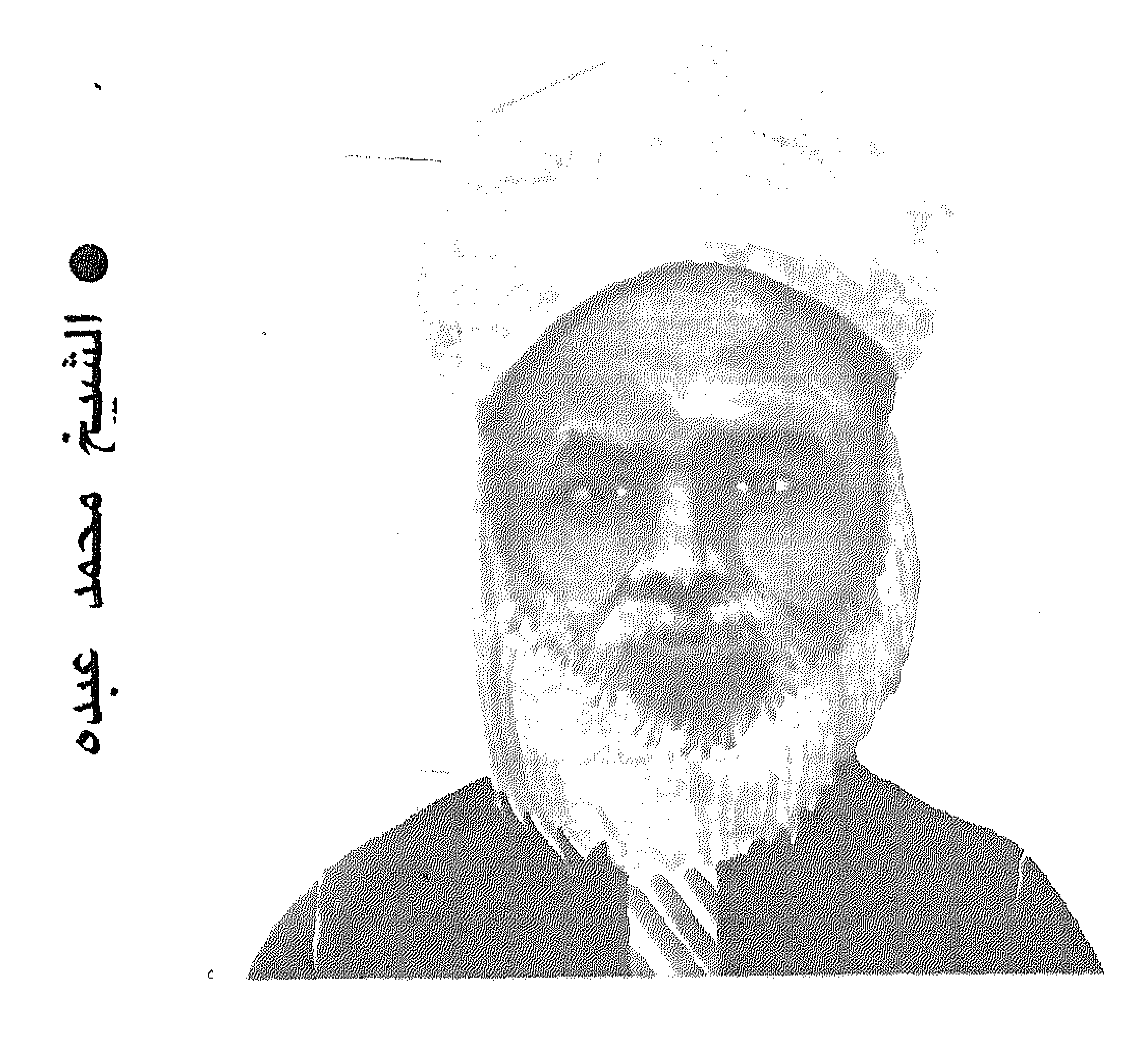
على أن هذا الموقف المعادى للعرابيين لم يشفع للبارودى الدور الكبير الذى لعبه فى خدمة الثورة العرابية . . فكان أن حكم عليه بالنفى مع بقية الزعماء إلى سيلان . . ثم كانت عودته واسترداده لاملاكه ومكانته ولقبه كواحد من الباشوات العظام . . ثم تفرغه للادب والشعر كأثر ابقى واخلد فى التاريخ من كل زعامة سياسية أو قيادة حربية . .



الشيخ محمد عبده

١٨٤٢ - ١٩٠٥

وهذا رجل آخر صاحب تراث عتيد فى حياة أمتنا . . جاهدت القلم سنوات لأستكشف المنابت الفكرية التى حركته . . ومن قراءاتى البعيدة الاولى لحياته وشخصيته ومواقفه وكتاباته ذاتها . . خرجت بما نسميه دائما . . الخاطر الاول . . وعلى كثرة ما كتب عنه وقيل فيه بعد ذلك لم أستطع أن أغير هذا الخاطر فلا يزال محمد عبده فى تقديرى . . صاحب الموقف الوسط وأمام المعتدلين فى فلسفة الاصلاح التدريجى . . وهو خط يشكل فى تيار الفكر المصرى المعاصر مدرسة واسعة الابعاد تمتد أصولها إلى مشايخ الديوان على عهد نابليون



جماعة المهدى والسادات والبكرى والشرقاوى وحتى الشيخ الأمير نفسه . . وهى الجماعة التى وصفها الجبرتى بجماعة « الاشياخ المتصدرين » . . والتى لعبت الدور الأكبر فى التمكين لمحمد على واعانته على معارضة عمر مكرم له فى أختياره لاسلوب حكمه بعيدا عن مصالح الشعب وارادته . . مما دفع الجبرتى الى الحنق على عمر مكرم . . رغم أعجابه الشديد به ومناصرته الدائمة له حتى قال عنه والباشا القوللى ينفيه لينحيه بعيدا عن مسرح الأحداث « فاما السيد عمر مكرم فان الذى وقع له بعض ما يستحقه ومن أعان ظالما سلط عليه ولا يظلم ربك احدا » .

والذى يتصفح كتاب العقاد عن محمد عبده . ومحاولته الرجوع بمنابته الفكرية الى تأثر البيئة العائلية والنشأة الريفية ثم التربية الازهرية التى أورثته مكانة الاشياخ المتصدرين فضلا عن طلاقة العلماء المقررين الذين حاولوا أدماج ثقافة العصر بعلوم الدين . . كالشيخ حسن العطار يستطيع أن يلمس بوضوح . . دفاع العقاد عن هذا الجانب الذى جنح ببطله دائما الى موقف الأعتدال . . لانه أقرب ما يكون الى فلسفة العقاد نفسه ومواقفه

الفكرية النهائيه فى الاتجاه المحافظ . . والحق أن محمد عبده . . مقطوع الصلة تماما بخيط الفكر الثورى الذى يمتد من الجبرتى الى الطهطاوى الى الافغانى الى النديم ، انما يأخذ أصوله الفكرية من المشايخ المتصدرين السابق ذكرهم ويربط نماءه بالجذور التى التف حولها عبد الله باشا فكرى وعلى باشا مبارك وغيرهما من مثقفى اليمين فى عصره . . والذين تفرعت من بعدهم نظرات الموازنة والأعتدال والتلاؤم والاصلاح المتطور الذى يناهض ماكانوا يسمونه الطفرة والفورة وما يعنى الان الثورية الاكيدة . . واذا استبعدنا مايثار عادة حول موقفه من الأحتلال . . ومناهضة الحزب الوطنى لنظرته . . وهى أن الجلاء لن يتم الا بتمام تعليم الأمة . . نراه هو نفسه يلخص مجمل رسالته ومجمع اصلاحاته فى هذه الأمور . نظريا « تحرير الفكر من قيد التقليد حتى يمكن فهم الدين على أنه لا يتنافى مع العلم والبحث عن أسرار الكون واحترام الحقائق الثابتة وتقديم اللغة العربية » وعمليا « التمييز بين ما للحكومة من حق الطاعة على الشعب وما للشعب من حق العدالة على الحكومة » .

ورغم ان الظروف التى أحاطت بظهور محمد عبده والرجال الذين حتك بهم . . والوقائع والاحداث التى عاشها . . كانت من القوة الدافعة بحيث تخلق منه شخصية ثورية ذات أثر وفاعلية لا حدود لها . . الا أن الغريب أن يبرز الرجل فى مسار التطور العام لعصره . . . وكأنه المنخفض الكبير الذى يستقبل مياه الشلال الدافقة فاذا به يستحيل الى بحيرة هادئة تنتقل منها المياه وانية ضحلة الى مسارب شديدة الجدب والجفاف فى مسار تطورنا الفكرى والاجتماعى والسياسى .

ولنبدأ بانتقال محمد عبده الى الدراسة فى الازهر وترك الجامع الاحمدى فى طنطا . . فبعد نحو اثنى عشر عاما قضاها الفتى طالبا . . خرج منه بالعالمية والسخط على مناهج التعليم الجامدة فيه . . ولكنه خرج ايضا على حد تفسير العقاد وقد تبلورت حياته حول محور عبقريته الحقيقية وهى عبقرية التمكن فى ملكة التعليم . . فكان وهو فى الازهر يميل الى نظريات الشيخ حسن الطويل بما يطرحه من قضايا تبعده عن عقم الكتب العتيقة الصفراء والشروح المكررة

البالية وتقربه الى منافذ العلوم الحديثة التى أخذ بها أستاذه . . فلما التقى بالافغانى انحاز اليه من هذا الجانب التعليمى وحده . . ولم تطاوعه عبقريته التعليمية التهذيبية على الانخراط فى الدعوة الى العمل السياسى والثورة الاممية التى كانت تحرك الافغانى .

فكأنه من البداية قد التزم النهج التعليمى مما جعله رغم نفيه بعد الثورة العرابية واعتباره من انصارها . . يسارع وهو فى بيروت بنشر رسالته الاصلاحية التى تدفع عنه مغبة الثورية العارمة . وفيها يقرر حتمية اصلاح الامة الاسلامية أولا بالتعليم والتربية مستشهدا بنصائحه السابقة لعرابى وأعوانه المتهورين . . « اذ لم يكن من المصلحة أن تفاجأ البلاد بأمر قبل أن تستعد له . وقد كان يلزم أن نهتم بالتربية والتعليم سنين طويلة والا كان ذلك من قبيل تسليم المال للناشىء قبل بلوغه سن الرشد . . فيفسده المال » .

كانت هذه النظرة الفعلية التى أملت على محمد عبده مواقفه . . وهى نظرة الوصاية على الامة فى طلب الحرية . . وقد ترددت على مراحل نضالنا الوطنى من بعده فى أكثر من جيل وعلى أكثر من لسان . . لكن هذا لا ينفى أن الرجل لعب دورا هاما وأساسيا فى تطوير حياتنا العامة وهو على رأس الوقائع المصرية . . وفى صلاته برجالات العصر . . كعرابى والافغانى . بل ورياض باشا نفسه الذى اعتبر الشيخ من أكبر اسناده . . فلما انتقل الى ملازمة الافغانى فى باريس بعد سنوات النفى الثلاث فى بيروت بدأ على اثر اشتراكه فى العروة الوثقى يغير من اسلوبه الهادىء الذى يغلب عليه العقل والتحفظ والتدرج . . وراح يلهب الافهام بدعوى التقدم وتأسيس الحياة الاسلامية على مبادىء العصر ومنجزاته الحديثة العاجلة .

وطبيعى ان يكون للافغانى الاثر الكلى فى ذلك رغم استمرار الشيخ على فلسفته ونظرته . . ومما رواه السيد محمد رشيد رضا عن موقفه مع الافغانى وهما فى باريس مطالبته لاستاذه بترك السياسة واختياره بعض الاذكياء لتربيتهم لكى يكونوا بعد وقت قادة اصلاح . . فقد زجره الافغانى قائلا : « انما أنت مثبط . . نحن قد شرعنا فى الجهاد ولابد من المضى فيه . . لان الجهاد لايعرف الانتظار » .

ولذلك فانه ما آن عاد الى بيروت ثانية حتى ارتد الى سابق دعواه الاصلاحية التعليمية بعيدا عن مضمار السياسة . فنراه ينكب على التدوين والكتابة ويستغنى بالتأليف والتعليم عن أى نشاط سياسى علمى . . ومع ذلك فلم يسلم من الابعاد عن مصر لمدة اطول . . ذلك أنه قد حوكم ونفى رغم موقفه الواضح الذى لم يكن مرتبطا بالعرابيين ودعواهم لانه جهر بخلع الخديو . وهو الشيء الذى لم ينسه له توفيق خاصة بعد حديث أجراه مع احدى الصحف الانجليزية وهو فى لندن اتهم فيه الخديو بالانضمام الى أعداء البلاد « وهم الانجليز » أثناء الحرب العرابية .

وهنا . . تلزمنا واقفة متأنية دقيقة عن قصة عودة محمد عبده الى مصر بعد سنوات الاقامة فى بيروت . . وقد تضاربت فى شأنها الاقلام . . والذى لاشك فيه أنه عاد برضى الخديو وشفاعة الانجليز وتدخل كرومر . . وربما بواسطة الاميرة نازلى أو الغازى مختار باشا وكيل السلطان بالقاهرة . . ولكنه لم يعد على مازعم العقاد غفر الله له جبروته فى لوى الحقائق ومنطقه فى تخطيئه الواقع . . لم يعد بطلب خفى من السلطان العثمانى حتى يؤمن عاقبة دعوته الى الاصلاح والحرية . . ويثير الولاية العثمانية فى وجه السلطان فمثل هذا التبرير لايتفق مع فكر الرجل وماضيه وموقفه ونضاله فى مجالات السياسة داخل مصر نفسها . . ولا يتفق ابدا مع دعوى العقاد نفسه وبالتالى الدعوى التى اورثها محمد عبده للتيار الثقافى الذى تابعه فى المناداة الصارخة بفصل السياسة عن مجالات النشاط الحيوى والابتعاد عنها وعن أهلها . . . وهى دعوى ترددت طوال الفترة التى تلت ظهور الامام . . وظلت تتجاوبها أجيال عدة كنغمة نشاز فى مسار نضالنا الوطنى . . بل ان هذا الموقف الذى يزعمه العقاد ـ غفر الله له كثيرا ـ عن بطله . . يتعارض تماما مع نظرة الافغانى لتلميذه فى ردوده على مكاتبات محمد عبده له بعد ذلك . فقد قرعه الافغانى فى رسالة بقوله . « تكتب لى ولا تمضى . . وتعقد الالغاز . . من هم أعدائى ؟ وما الكلام كثر أو قل : فكن فيلسوفا يرى العالم العوبة ولا تكن صبيا هلوعا » . . . هكذا كان موقف الافغانى . . بل أنه فى خطاب آخر يزداد عنفا فى تقريع الشيخ الامام « ان الرسالة ماوصلت . . ولا بينت لنا

موضعها . وجلا منك » فهو يتهمه بالخوف « قو الله قلبك » . . . وليس أدل ولا أقوى من ان يتهمه بالخوف والوجل والهلع الصبيانى . . ولا بعد هذا التأنيب مزيد لمستزيد .

لا غرو بعد ذلك أن يتغافل محمد عبده سيرة الافغانى كلية . وعلى مايقول مؤرخنا الكبير المرحوم عبد الرحمن الرافعى فى موقفه حتى من وفاة الافغانى . . « لا تجد له كلمة فى رثاء فى أستاذه الروحى والفلسفى وزميل جهاده فى العروة الوثقى . . وهذه الناحية أثر من آثار الاحتلال فى أخلاق الامة ونفسيتها » . والاجدر ان يقال أثر من آثار انكار أهمية النضال السياسى الثورى كعصب لنهضات الشعوب واستقلالها وتحررها بعيدا عن المزاعم الاصلاحية والتعليمية التى لا يحتضنها الا المنطق الرجعى وحده .

لكن . . كيف كان موقف محمد عبده فى مصر بعد عودته اليها والاحتلال رابض على أنفسها ؟ كان هناك اتجاه الحزب الوطنى الاول بدعواه . . « مصر للمصريين » الدعوة التى نبتت منها المناداة بزوال الاحتلال أساسا . . وقد تبناها عبد الله النديم بعد العرابيين تحت شعار ان الثورة العرابية وأن لم تتم فانها لم تفشل . . وان استكمالها يحتم مقاومة الاحتلال وزواله . . أى حتمية الجلاء الناجز . . وقد تابعه فى ذلك التيار الوطنى الصحيح الذى جاء يمثله مصطفى كامل والحزب الوطنى الجديد . . بينما كان هناك الدعوة الى تحقيق الاصلاح كوسيلة حتمية للحصول على الجلاء . . وقد وقف محمد عبده على رأس هذه الدعوة وتحصن فى المناداة لها بستار الاصلاح العقيدى فى الدين ومناهج التعليم . . ويفسر الاستاذ احمد أمين أن هاتين الدعوتين نبعتا أصلا تحت عباءة الافغانى فى صورة أرحب وأشمل . . بينما يجادل العقاد فى منطق التواء عجيب فيرى أن محمد عبده عاد ساخطا على السياسة . . فكان يردد . . . « إن شئت أن تقول أن السياسة تضطهد الفكر أو العلم أو الدين فأنا معك من الشاهدين . . . أعوذ بالله من السياسة ومن لفظ السياسة . . ومن ساس ويسوس وسائس ومسوس » .

وبمثل هذا الاستشهاد اللفظى يتابع العقاد منطقة الجبار فيزعم ان مايسميه عبقرية محمد عبده التعليمية هى الاصل فى موقفه من السياسة ، وعلى

مايقول فى محاولة لتبرير منطقه . « ولو أننا ألقينا على لسانه كلاما يقوله فى هداية التعليم كالذى قاله فى ضلالة السياسة لخلناه قائما قاعدا يقول :

بارك الله فى العلم والتعليم وفى علم وتعلم وفى عالم وعليم ومعلوم وفى كل حرف من حروف العين واللام والميم » .

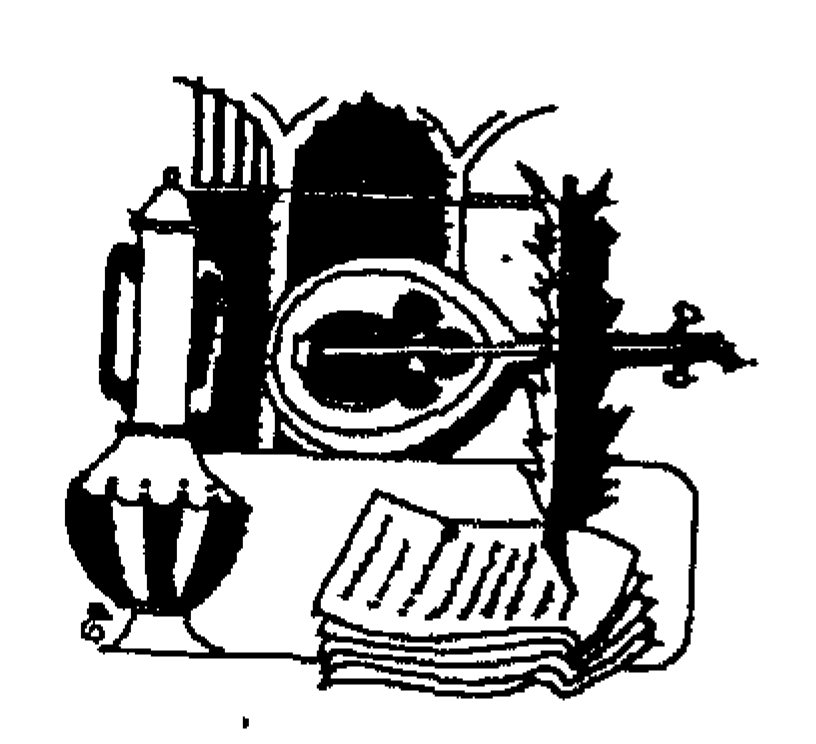
وهذه الفزورة العقادية اللغوية يشجبها محمد عبده نفسه فى موقفه . . فقد رسم خطته بعد العودة من بيروت . . « على مسالمة الخديو ما استطاع والاستعانة بالانجليز فيما ينوى من اصلاح » وعلى حد مايفتى به العقاد نفسه « ان تاريخ محمد عبده فى خدمة القضية القومية لم يكن قط تاريخ الاندفاع وراء الخفة والعجلة » ولو اخذنا بهذا الحكم العجيب لكانت ثورات الشعوب جميعها . ثورات اندفاع وراء الخفة والعجلة . . انما الصحيح ان العقاد انما يدافع فى محمد عبده عن منطقه الشخصى فى ردته الكبرى نحو الانتصار للرجعية على طول الخط . وبمنطق الفوازير اللفظية .

عاد الشيخ محمد عبده اذن الى مصر وهو يأمل الاستناد الى نظريته التعليمية وكان ينشد أن يعين ناظرا لدار العلوم . . لكنه لم يفلح بعد أن احاطته من صحبة الافغانى وقبل ذلك ملازمة العرابيين غلالة سميكة من عدم ثقة الحاكمين فضلا عن استنكار الجانب الآخر المناهض للاحتلال . . وكان ان انخرط فى سلك القضاء . وهنا يتجلى أثر التجارب على عقلية الرجل ومواقفه الشخصية . . فقد استطاع الافادة من الاحداث الغامرة التى عاشها . . فأخذ من الافغانى الكثير من القدرة على التوجيه . . وكان لتربيته وأصالته الفضل الاكبر فى نجاحه قاضيا .

لكن روح الملاءمة لازمته خاصة بعد أن حاول مد يده الى الازهر الشريف بغية اصلاحه . . فاحتمى بتعضيد الانجليز فى مواجهة الخديو ومكايد المنافسين من المشايخ . . ولما تولى عباس الثانى وأبعده عن الازهر بتعيينه مفتيا . . احتدم الخلاف بينهما رغم ماكان معروفا عن عباس حلمى من محاولات لتشجيع دعاة الحركة الوطنية التى تزعمها مصطفى كامل . . ولا مراء أن محمد عبده على حد تحليل الاستاذ احمد أمين « كان يقنع فى آماله الوطنية بالقليل . . وهى قناعة لا ترضى الوطنيين بل وحتى بعض المعتدلين » .

وهذا الجانب من حياة الرجل وشخصيته وهو الذى يحتفي به العقاد لانه يتناسب تماما مع نظرته وموقفه . . تماما كما يحتفى عثمان أمين بجانب المعقولية والمنطق التدريجى فى النظر الى كافة الامور . . وعلى نفس المستوى من الاهمية مما قد يربطه بجدلية ديكارت أو غيره .

على ان هذا لا يجب أن يدفعنا لان نغض الطرف عن جوانب عديدة من حياة محمد عبده وكفاحه . . فلاشك أن للرجل تراثه الباقى الاثر والفاعلية على اجيال تعاقبت بعده مسار التطور . . فقد كان من أبرز المصلحين الدينيين ولعل من أبرز أعماله رده على هاناتو الذى حلل فيه موقف الاسلام الواضح من الجبرية والاستسلام للقدريات فى منطق يدانى ديكارت ويصدق مع اعجاب الدكتور عثمان أمين . . كما كان الامام من رواد الاصلاح اللغوى وله فضل لاينكر على تطوير استخدام اللغة العربية والتجديد فى اساليب الكتابة الادبية خاصة والكتابة العمومية على وجه العموم . . ثم أنه من أوائل المحتكمين الى المنطق العقلى . . وصاحب مدرسة فى المجادلة الفكرية وفوق ذلك فان دعواه الاصلاحية التطورية . . ونظراته السياسية القاصرة . . انما كان مصدرها فى نهاية أمرها وبدايته . . الاقتناع الشخصى والطبيعة الذاتية وهو فى ذلك يبز غيره من الذين يتجرون بالمبادىء والاراء والافكار المخالفة لافكارهم .



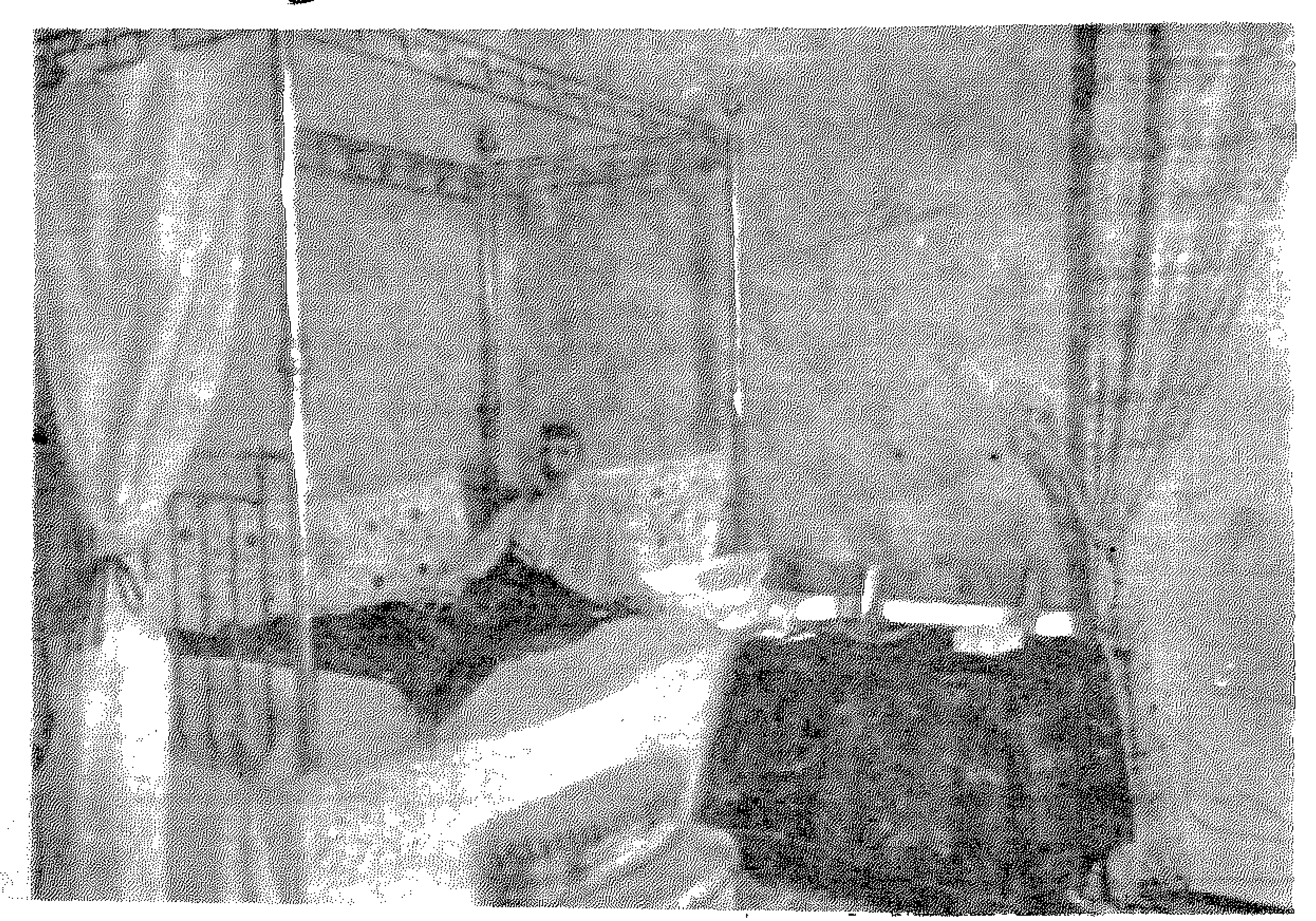
مصطفى كامل

١٨٧٤ - ١٩٠٨

تعتبر مؤلفات الرافعى عن تاريخ الحركة القومية منذ نشأتها الى اليوم أضخم وأشرف سجل لتاريخنا . فقد استند مؤرخنا الكبير فى سرد الاحداث وتحليله لمدلولاتها على المقومات الوطنية الخالصة لنضالنا المتطور كأمة عاشت تسعى جاهدة خلال الاجيال المتعاقبة فى سبيل الحرية والاستقلال والتقدم . ولا جدال أن تفسيره للتاريخ بهذه الروح الوطنية الخالصة قد حفظت لاسفاره قيمتها كأصدق مايرجع اليه باحث فى التعرف على حقيقة تاريخنا القومى .

ومع هذا ، بل ومن أجل هذا فقد لاتستغرب أن نقع بين طيات التاريخ الذى سجله الرافعى

● مصطفى كامل



على تحليلات قد لاتستقيم فى كثير مع منطق الاحداث وحقائق التاريخ . . من ذلك حكمه على عرابى والثورة العرابية بالاخفاق بزعم ان عرابى لم يكن على حظ كبير من الكفاية السياسية وبعد النظر ، ومن ذلك أيضا اعتباره ان مصطفى كامل منشىء الحركة الوطنية التى كانت على حد تفسيره قبسا من عبقريته وحدها . . . وليس القصد أن نخطىء مؤرخنا الكبير فى مثل هذه النظرة وأشباهها . فلكل تفسيره الذى يرتئيه . ولكن قد يكون للاعجاب أو التحيز فى المشاعر الشخصية دخل كبير يطغى على الفهم الموضوعى الذى نأمل أن نهتدى به فى محاولتنا رسم هذه الصورة لزعامة مصطفى كامل الوطنية .

بدأ مصطفى كامل جهاده الوطنى بعد تسع سنوات من انتهاء الثورة العرابية أفلح الاحتلال خلالها فى أن يسيطر على مقادير البلاد سيطرة كامة كاملة ، فأشاع فيها روح اليأس والقنوط والاستسلام . . ورغم ذلك فلم يفقد الشعب ايمانه بالثورة . وان خبت جذوتها فى الصدور . وصف النديم فى مذكراته السياسية حالة البلاد بعد مضى عشر سنوات على الاحتلال موجها خطابه لعرابى « وادرس احوال مصر فى المدرسة التى أسستها واحفظ تاريخ الامة التى أسستها فما كنا فيه كان مدرسة ابتدائية . ونحن الآن فى التجهيزية

وستدخل ان شاء الله المدرسة العليا . . ان شاء الله تنادى لك الدنيا .
وماهذا رجوم ولاشوارد فهوم ـ ولكنها حقائق معلومة عرفها أهل البصائر
وعمى عنها سود الضمير ، وقد تطاولت الاعماق بعظيم الاشتياق الى ذلك
الميقات . . وكل ماهو آت . . آت . . »

فعلى أى أساس أشعل مصطفى كامل الحركة الوطنية الخابية . . . ؟

الواقع انه لم يستفد كثيرا من عبرة الثورة العرابية رغم لقائه للنديم ورغم
انه على مايقول الرافعى « عرف منه حوادث الثورة العرابية وأدرك أسباب
اخفاقها وهزيمتها ليتجنبها فى جهاده . ذلك ان مفهوم مصطفى كامل للوطنية
كان مفهوما فكريا صرفا جعله ينظر الى الحركة الوطنية على انها دفاع محام عن
قضية وليست نضالا لشعب حقق ثورة فعلية كثورة عرابى . . من أجل هذا
اتسمت الحركة الوطنية التى قادها بطابع القومية العاطفية لطوائف المثقفين
التى تذكيها مشاعره وحماسه ومواهبه الشخصية اكثر مما يسندها تحرك
الجموع . وقد يكون للظروف دخل كبير بعد أن فرض الاحتلال وجوده فرضا
نهائيا وكتم أنفاس البلاد . . ورغم هذا فلا انكار أن مصطفى كامل لم يكن قبل
المراحل الاولى من جهاده ليتبين قوة الروح الوطنية الكامنة فى جموع
الشعب . بل اندفع فى حماسه وعشقه العاطفى واخلاصه الجارف يترنم
بالوطن فى تجريد تام « ان روحى تتغذى من حب الوطن وبغيره لاأستطيع
الحياة ، اذ لا قيمة للحياة بغير هذا الحب الرائع العظيم الذى يفيض على
المرء كل سلوى وكل سعادة حتى فى شقائه حتى لايجد الانسان القوة والامل
الا فى هذا الحب »

لم يتح هذا المفهوم المجرد للحركة الوطنية فضلا عن فورة الشباب
وحماسه فرصة كافية أمام مصطفى كامل ليبنى جهاده الوطنى على أسس
متكاملة النضج . . فقد شرع فى جهاده مفترضا من مبدأ الامر فشل الثورة
العرابية واستسلام الشعب نهائيا للاحتلال . ولهذا نصب من نفسه رسولا
للوطنية يرشد الامة الى المثل العليا فى حب الوطن والاخلاص له وعلى مايقوله
الاستاذ الرافعى هنا أيضا : « يعتمد على قوة الرأى العام وتربية الشعب
تربية وطنية . . واذ علم أن اصطدام العرابيين بالخديوى توفيق قد مكن
للدسائس الانجليزية من أن توقع الفرقة والانقسام فى مصر . . فانه نأى عن
هذه السياسة الخرقاء وسلك بالحركة الوطنية سبيل التفاهم مع الخديو
عباس الثانى » . .

ونحن من جانبنا لاننكر أن ظروف البلاد كانت تطلب بادىء الامر ايقاظ النفوس وبث الروح الخابية ، ولكن تجربة الثورة العرابية وموقف الخديويين منها كانت بالمثل توجب الوعى بحقيقة موقفهم ، وهذا مالم يتبينه مصطفى كامل الا متأخرا . . وهنا قد يقول قائل : ماذا كان يمكن عمله ! يوقظها أولا والاحتلال فى تجبره كان يتطلب التحالف ضده حتى مع الخديو ؟ .

وقطعا لانكار فى قيام مثل هذه الظروف ولا انكار فى قيمة الدور الذى لعبه مصطفى كامل فى ايقاظ وبعث الحركة الوطنية أيامها . . وانما الذى نحب أن نسجله أن مصطفى كامل وقع من البداية فى اخطاء جاءت نتيجة لانه أقام دعوته على اغفال حقيقة ثابتة راسخة كان يجب أن يبنى عليها أسس جهاده ، وتلك الحقيقة هى أن الجهاد الوطنى حركة تستند الى المجموع وليست مجرد دعوة مثالية خالصة . وهذا هو الشىء الذى أدركه على مدار الاحداث التى خاض غمارها على مدى جهاده القصير بل وبفضل هذا الجهاد . كان ذلك أثر الحفاوة التى لقيها من أهل الاسكندرية بعد عودته الى مصر وخطبته فيهم حيث وجه اليهم خطابا نشر فى المؤيد بتاريخ ١٠ مارس سنة ١٨٩٦ قال فيه : « وما مثلى أمامكم ومثلنا جميعا أمام الوطن العزيز الا كمثل رجل واحد وجد أمة عليلة سقيمة فأحس من نفسه الحزن والشفقة عليها فقام مناديا اخوانه للعمل معه لشفاء علتها . . »

كان فى البداية رسولا ومرشدا . . فلما خطب عام ١٩٠٧ فى نفس المدينة خطبته التى نادى فيها بأن الاجلاء هو الاساس . . قال « ان حياة هذه الامة ومستقبلها مرتبطان بمقدار قوة الروح الوطنية فى الشعب . . » وهكذا وصل الى هذه النتيجة بعد قرابة عشرة أعوام من الجهاد المتصل . .

والذى لاشك فيه ان جهاد مصطفى كامل إنما كان بلورة للفكرة الوطنية التى نبتت منذ نهاية عهد المماليك وتطور بها فى مدلولها الفكرى رفاعة الطهطاوى والكتاب العرابيين بعد ذلك . فلما جاء هو التقط الشعلة الخابية ورفعها عاليا لتلتهب وتنير الطريق أمام الاجيال التى تلته . وهكذا نستطيع أن نقرر ان هبة مصطفى كامل لم تكن الا نقطة الالتقاء التى انتهت عندها الثورة العرابية وكان حتما أن تبدأ منها أو بعدها مباشرة ثورة جديدة وقعت متأخرة فى تقدير الزمن والاحداث والتطور هى ثورة ١٩١٩ .

ولو قدر أن أقام مصطفى كامل أسس جهاده على ضوء التجربة الضخمة التى أثبتتها الثورة العرابية رغم ماأحاطه من ظروف تاريخية قاهرة لكان لقومته

شأن آخر . . على الاقل كان يستطاع تلافى الاخطاء التى أعانه اخلاصه على تلافيها . . ولكن بعد وقوعها .

وهذه الاخطاء تتمثل فى موقفه من الخديو ومن فرنسا .

كان الخديو عباس الثانى فى مبدأ أمره يعادى الانجليز المحتلين لمنافستهم له فى حكم البلاد . وقد كان يلجأ فى مقاومته الى التقرب السافر من الحركة الوطنية حتى لقد استند مصطفى كامل فى أول ظهوره على مؤازرته . ويقول الرافعى ان هذه الخطة من جانب زعيمنا الوطنى كان يقصد بها تجنب أخطاء الزعماء العرابيين فى التفرقة بين الامة والخديو ، وهو الامر الذى حاول مصطفى كامل أن يتلافاه كمبدأ أساسى لبعث الحركة الوطنية ولكن حين وقعت حوادث فاشودة بدأ الخديو يتحبب الى الاحتلال وقد ضعف أمله فى الجلاء .

وبعد ان تم الاتفاق الودى بين انجلترا وفرنسا فى ١٩٠٤ ظهر انحياز الخديو بشكل واضح الى الانجليز واضطر مصطفى كامل إلى تغيير موقفه وقطع علاقته به . فلما استقال اللورد كرومر اشتد انحياز الخديو الى السياسة البريطانية حتى لقد عرض مقاسمة المعتمد البريطانى فى حكم البلاد حكما مطلقا فلم يحجم مصطفى كامل نتيجة اخلاصه الوطنى عن الجهر بعداوته « ان مصلحة الشعب المصرى تقضى بأن تكون الحركة الوطنية بعيدة عن الجانب العالى » هذا هو الدرس الذى لم يعيه مصطفى كامل الا بممارسة الجهاد مع انه كان أكبر درس نطقت به احداث الثورة العرابية .

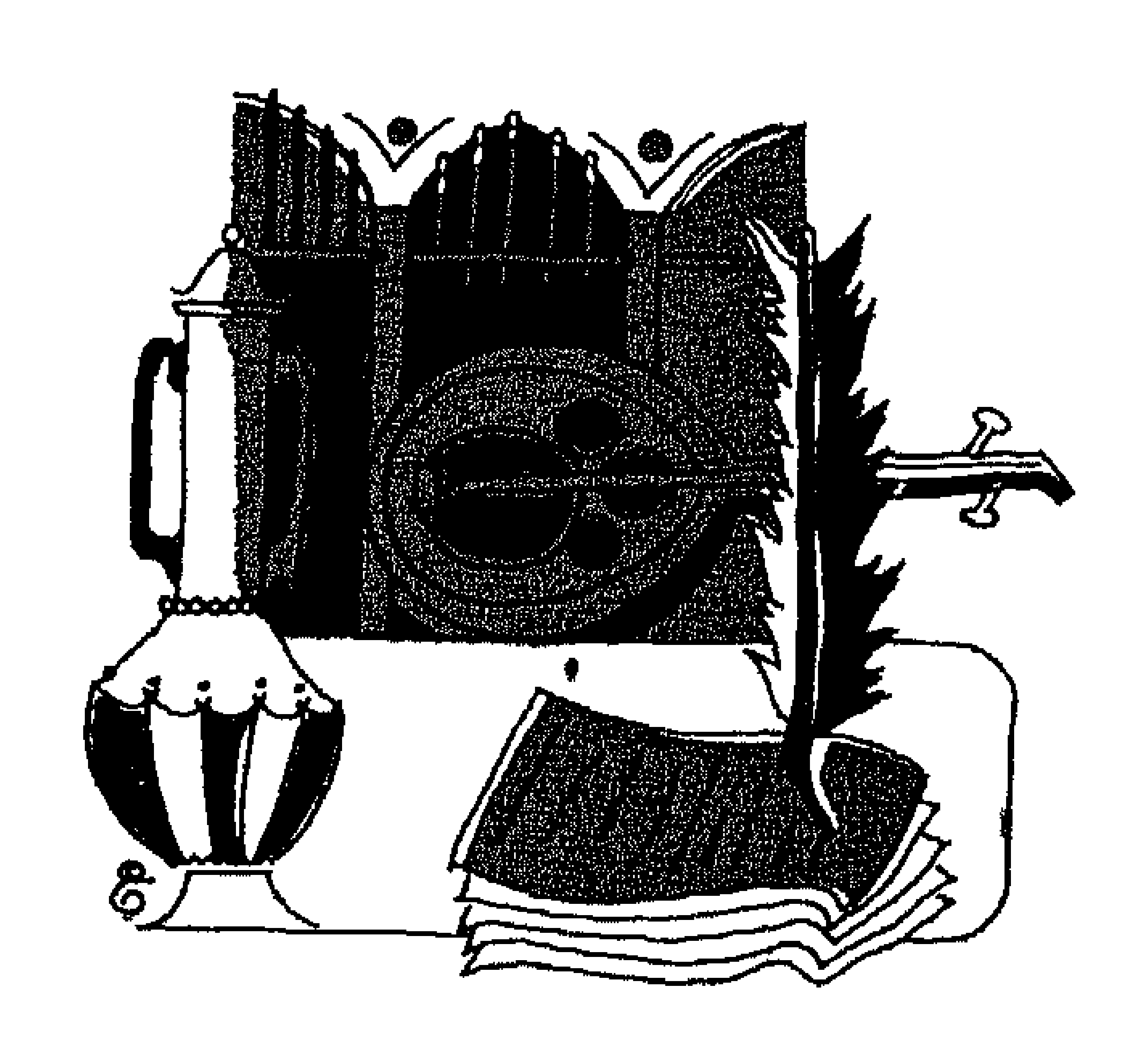
أما سياسته بازاء فرنسا فقد رسم دعوته على أساس توقع تدخلها لصالح مصر فظل يأمل فى معاونتها حتى وقعت حادثة فاشوده وتراخت فرنسا أمام انجلترا وهنا تحول يطعن فى سياستها . كتب فى اللواء عام ١٩٠٠ « اننا انتقدنا دائما السياسة الفرنسية ولولا هذه السياسة العوجاء لما كانت انجلترا فى مصر ولما كنا فيما نحن فيه » الى هذا الحد كان مصطفى كامل يعلق الامل على معونة فرنسا متأثرا فى ذلك تأثرا مثاليا صرفا بما انبتته ثورة الحرية والاخاء والمساواة فى عقول المثقفين وافهام المفكرين الذين قبله والذين عاصروه . لكن ما أن تم ابرام الاتفاقية الودية التى اقتسمت فرنسا بمقضاها عام ١٩٠٤ النفوذ مع انجلترا على أملاك تركيا فى الشرق الاوسط حتى ارتد الى الجوهر الذى كان لابد أن يقيم عليه دعوته من الاصل « ان الامم لاتنهض الا بنفسها ولاتسترد استقلالها الا بجهودها » وهذا فى الحق درس آخر كان يمكن ان يفيده مصطفى كامل من الثورة العرابية لو انه وعاها وعيا حقيقيا ، فليس بخاف أن موقف ديلسبس مع العرابيين وسماحه للانجليز بغزو البلاد

من السويس رغم حيدة القناة كان صورة عملية مصغرة للاتفاقية الودية التى عقدت بعدها بسنوات بين القراصانين الفرنسى والانجليزى .

وعدا ذلك فليس من شك فى ان جهاد مصطفى كامل كان نقطة الارتكاز الضخمة التى أقيمت عليها مبادىء الحركة الوطنية ودعوته هى الجذع الذى نمت حوله الاغصان التى أينعت خلال السنين التالية من سنى نضالنا الوطنى وعلى حد مارآه هو نفسه ببصيرة نافذة . .

« انا لو يخطفنا الموت من هذا الديار واحدا بعد واحد لكانت آخر كلماتنا لمن بعدنا : كونوا أسعد حظا منا وليبارك الله فيكم وليجعل الفوز على آيديكم ويخرج من الجماهير المئات والألوف بدل الآحاد للمطالبة بالحق الوطنى والحرية الاهلية والاستقلال المقدس . . بلادى . . بلادى . . لك حبى وفؤادى . . لك حياتى ووجودى . . لك دمى ونفسى . . لك عقلى ولسانى . . لك لبى وجنانى . . فأنت أنت الحياة ولا حياة الا بك يامصر » .

تلك كانت دعواه . . وتلك كانت مأساته أيضا . . فقد أقام نضاله على أساس الدفاع عن قضية عادلة . . وليس على اساس النضال من أجل وطن محتل وشعب لايخبو له نضال . . .



محمد فريد

١٨٦٨ - ١٩١٩

ازدانت المقاهى بالرايات والاعلام ووقف الناس صامتين فى وجوم خلف الصفوف المتراصة من الجنود الذين يزين الريش الابيض قبعاتهم . كانت الامبراطورية الظافرة قد حشدت لهذا اليوم المشئوم خمسة آلاف من خدامها حمر الوجوه . . اصطفوا على طوال الطريق من ميدان المحطة الى سراى الاسماعيلية ليمر بين صفوفهم خديو مصر عائدا الى مقر ملكه السعيد . فى حماية « ولسلى » قائد جيش الاحتلال ودوق « كنت » نجل الملكة فيكتوريا والمعتمد البريطانى ادوار مالت .

● محمد فريد

ولم يكن قد انقضى على معركة التل الكبير اثنا عشر يوما وصدى صرخات اهالى مصر مازال يتجاوب فى الطرقات . . .

« الولس كسر عرابى . الولس كسر عرابى » بينما وقف أعيان البلاد الذين جلبهم رياض باشا خلف مقصورته يهتفون « يعيش الجناب العالى مؤيدا بالنصر والاجلال » .

وأفاق الفتى الصغير على صوت طلقات المدافع تعلن وصول الموكب . وظهرت العربية الذهبية تجرها الجياد المطهمة . ورفع الانجليز بنادقهم وبيارقهم بالتحية . كانت الامبراطورية التى لا تغيب عنها الشمس قد وضعت أقدامها نهائيا على ارض جديدة . . وأطرق الفتى حزينا . . ومشى والدموع تكاد تنفرط من أجفانه بعد ان أنطبع هذا المشهد فى ذاكرته فلم ينسه حتى نهاية عمره . .

ولم ينسه يوم أصبح خليفة مصطفى كامل فى زعامة الحركة الوطنية اذ وقف يخطب بمناسبة ذكرى الاحتلال يوم ١٤ سبتمبر سنة ١٩٠٨ بمسرح عباس حيث تقع سينما الكوزمو الآن . . « ان الامم تحتفل بحريتها واستقلالها . . فمتى نحتفل نحن بالجلاء ونصبح أحرارا حقيقة فى بلاد حرة »

ولم ينسه بمناسبة الذكرى التاسعة والعشرين لدخول الانجليز العاصمة « ألا فاذكروا يوم ١٤ سبتمبر ولا تنسوه أبدا . . اذكروه كذكراكم آباءكم وأشد ذكرا . . اذكروه قياما وقعودا وعلى جنوبكم ولاتدعوا هذه الجروح تندمل أو يخفف ألمها بالمخدرات والمنومات التى يسعى فى استعمالها أنصار الاحتلال . . »

وفى رسالته الاخيرة التى بعث بها الى المصريين من سويسرا قبل وفاته سنة ١٩١٩ والتى عنوانها « صوت من وراء البحار » . لم ينس ابدا هذا اليوم المشئوم « اكتب هذه السطور وذكرى ١٤ سبتمبر سنة ١٨٨٢ تملأ فؤادى حزنا وأسى . . ولكنى أرى فجر الأمل يرسم على الافق خطا من النور اللامع . . نأمل أن يكون طليعة حريتنا المنشودة واستقلالنا المرجو . . »

والحق ان شهود الاحتلال من اليوم الاول لوقوعه كان له أكبر الاثر فى ارتباط محمد فريد بالحركة الوطنية المصرية وقيادته لها . . فلما انضوى تحت لواء مصطفى كامل ودعا معه الى مقاومة الاحتلال خلت دعواه من العاطفة المشبوبة التى كان يلهب بها الزعيم قومه . . وتركزت عقيدته كشاهد عيان للاحتلال واستقرت عند الجوهر الأساسى بمضمون القضية الوطنية « نحن لا نطلب غير الجلاء . . فالجلاء هو الدواء الوحيد للاحتلال » . . ولذلك وقف من أول لحظة فى وجه أية محاولة للانحراف بهذا المطلب . . وكانت المطالبة بالجلاء عنده تسبق المناداة بالدستور لدرجة انه لم يتردد يوم رأى الخديو بعد رحيل كرومر يسعى الى محالفة المحتلين ويقلع عن تعضيد الحركة الوطنية أن يعاديه علنا ويندفع ليكتب فى شجاعة وثبات عدة مقالات فى اللواء يحمل عليه فيها حملة عنيفة . . « مما يجب علينا اعلانه والجهر به امام الملأ كله ان تصريحات الجناب العالى لاتقيدنا بأى حال . . ان كل مصرى لا يقبل مطلقا أن يكون حكم مصر ومصيرها بيد سمو الخديو بمفرده أو بيد المعتمد البريطانى » .

وبمثل هذه الصلابة الاصيلة تميزت مواقفه على طول نضاله داخل مصر وخارجها فلما عرض عليه الاتراك وخاصة الاتحاديين عام ١٩١٥ أثناء قيام الحرب بتأييد مصر ضد أعدائهم الانجليز واشتم من هذا التأييد رغبة الترك فى طى الحركة الوطنية تحت سيطرتهم استنادا الى نفيه خارج بلاده واحتماء الخديو بهم . صرخ مع اعوانه « مصر للمصريين . نحن قد قاومنا الانجليز ونقاوم كل من يريد أن يأكلنا أيا كان لأننا نسعى وراء الاستقلال وحده » . وكان هذا هو الامر الاساسى الذى بنى عليه محمد فريد نضاله من البداية الى النهاية . . وقد لقى فى سبيل ذلك من الاعنات داخل مصر . ومن التشريد

والموت خارجها . ما يقارب الاستشهاد .

ومن أبرز مايميز نضاله انه لم يكن مجرد تتمه لما بدآه سلفه . فلقد سلك فى زعامته الوطنية مسلكا جديدا . فطبع الحركة الوطنية بطابع شخصيته الصلبة وثقافته الواسعة العريضة بقدر مااثر فيها بوعيه البالغ بواقع الاحداث فى مصر وتطور الاوضاع العالمية المحيطة . . فحتى وفاة مصطفى كامل كانت الحركة الوطنية المصرية تتسم بطابع البعث ومحاولة ايقاظ الأمة الى مناهضة الاحتلال وبث الروح الوطنية فى النفوس . والواقع أن هذه الدعوة كانت حتمية بالنسبة للجيل الذى جاء فى أعقاب الغزو وانطفاء جذوة الثورة العرابية . لكن التطور كان يفرض تجاوبا جديدا مع الاحداث . فالشعوب لا تنام على مصيرها بحال مهما كان مبلغ الركود فى جيل من اجيالها . ومن هنا تظهر قيمة القيادة الواعية التى تميز بها محمد فريد فى نظرته الواقعية العلمية لجيله وعصره . .

ففى أول مؤتمر يعقده بعد وفاة مصطفى كامل نراه يستن للسير بالحركة الوطنية خطة جديدة . ولأول مرة يوضع برنامج لسياسة قومية تحرك كافة القوى السياسية فى البلاد على أساس بحث المشاكل الداخلية والخارجية . وتكون النتيجة أن ينصب التوجيه السياسى على ضوء الدراسة العملية بواسطة المثقفين الملتفين حوله من المفكرين والكتاب والساسة نحو توسيع آفاق الساحة الوطنية . فها هو ذا نادى المدارس العليا الذى يضم صفوة المثقفين فى البلاد يحتضن دعوة انشاء مدارس الشعب الليلية لتعليم العمال والفقراء مجانا . .

ولا يكاد ينقضى العام على هذا المؤتمر الوطنى الاول حتى يتم تأسيس نقابات العمال والصناع وتنتشر مدارس الشعب فى عواصم القطر وتنشأ أول نقابة للعمال فى مصر « نقابة عمال الصنائع اليدوية ببولاق » ويصبح عدد اعضائها ٨٠٠ عضو . فاذا ماأدخلت طوائف الشعب فى المدن الى الساحة الوطنية كانت الخطوة التالية أن ينضم اليها غالبية اهل البلاد : الفلاحون . . . وفى سبيل ذلك ظهرت الحركة التعاونية وكان ظهورها على يد عمر بك لطفى رئيس نادى المدارس العليا . . وهكذا بدأت تبنى القوائم

الجديدة للسير بالحركة الوطنية سيرا عمليا الى الأمام نحو الخلاص بالوطن من براثن المحتل خلال هذه المجالات التى تكفل ارتباط المثقفين داخل أنديتهم بالعمال فى النقابات والفلاحين فى جمعياتهم التعاونية . .

لكن الرجعية ومن ورائها الاحتلال لم تكن بغافلة عن مثل هذه الوثبة الناضجة . فسرعان ماشهرت « وزارة الوفاق » التى جاءت لتحاول كسب المعتدلين الى جانب الخديو وعزل الحركة الوطنية عن الشعب أقوى أسلحتها . وكان أن أعيد العمل بقانون المطبوعات الصادر ابان الثورة العرابية لتقييد حرية الصحافة المعبرة عن هذه المسارب الفعالة من مسارب الكفاح . الامر الذى أثار ثائرة الرأى العام كله لأن مثل هذه الحركة كانت نقطة البدء لتطور هذا المنهج النضالى القويم .

وتوالت المحاكمات وزج بالكثيرين فى السجون ثم تتابع تعطيل الصحف . . وبدأ الخناق يضيق على الحركة الوطنية المتفتحة . . وحاول محمد فريد أن يضفى على الموقف بعض رزانته وثباته . فوقف يدعو فى يوم ذكرى مصطفى كامل ألا تكون الذكرى كالمظاهرات المعتادة التى يكثر فيها الهتاف والصياح بل مظاهرة صمت وسكون تعلوها المهابة ليتذكر كل من رآها أو شارك فيها أن مصر لم تزل تئن من سلطة الفرد وتسعى لنيل الدستور وتشتكى من احتلال الغريب . .

واذن فقد أصبحت مقاومة السلطة المطلقة التى يتمتع بها الخديو والحاجة الى الدستور والحرية التى حرمت منها الامة هى السبيل لمحاربة الإحتلال .

ورغم العسف الذى لاقته الحركة الوطنية بعد ذلك فلم ينس فريد فى أى مرحلة من مراحل نضاله داخل مصر الى أن نفى خارجها أن يؤكد دائما منهجه السياسى الجديد . حقا كانت القضية الاساسية هى محاربة الاحتلال واقرار الدستور . ولكن هذه الاهداف قوامها كما نادى فى المؤتمر الوطنى المنعقد سنة ١٩١٠ « الوصول الى جعل التعليم الابتدائى الزاميا ومجانيا لكل مصرى ومصرية . . وأن يكون بكل عاصمة مديرية مدرسة ثانوية على الاقل . . وأن تشكل النقابات الزراعية للدفاع عن حقوق الفلاح أمام الحكومة وأمام الملاك . . وأن ترعى العمال ونقاباتهم ومجهوداتهم . . اذ لا سبيل لأى حرية

فى مصر حتى يصبح الصانع والمزارع فى مأمن من الفقر » .

ولعل أهم مواقفه فى تلك المرحلة الرهيبة . . الدور الذى لعبه فى اجبار الحكومة على دعوة مجلس الشورى والجمعية العمومية بتأييد من الرأى العام للنظر فى مد امتياز قناة السويس . . الامر الذى انتهى برفض طلب الشركة وكان من نتيجته وقوع الحادث الارهابى المعروف حادث قتل بطرس غالى على يد الوردانى الذى أعطى للحكومة فرصة ذهبية للامعان فى التنكيل بالحركة الوطنية وسجنه هو نفسه . . فقد انتهزت الوزارة ظهور كتاب « وطنيتى » للشيخ على القاياتى فأوعزت الى النيابة باقامة الدعوى العمومية ضده وضد الشيخ جاويش لكتابتهما مقدمتين لهذا الديوان .

وفى المقدمة التى كتبها فريد بعنوان « تأثير الشعر فى تربية الامم » والتى سجن من اجلها ستة شهور نستطيع ان نلمس الى أى حد يعلق أهمية كبرى على نضال الشعب كأساس أصيل راسخ للحركة الوطنية . .

« على الشعراء ان يقلعوا عن عادة وضع قصائد المديح فى ايام معلومة ومواسم معدودة وأن يستعملوا هذه المواهب فى خدمة الامة بدلا من أن يصرفوها فى خدمة الاغنياء وتملق الامراء والتقرب من الوزراء فالحكام زائلون . . والامة باقية . . »

بلغ العسف منتهاه ومع ذلك هتف فريد فى ثبات وجرأة يوم خرج من السجن :

« مضى على ستة شهور فى غيابات السجن ولم أشعر أبدا بالضيق الا عند اقتراب أجل خروجى . لعلمى انى خارج الى سجن آخر هو سجن الامة المصرية الذى تحده سلطة الفرد ويحرسه الاحتلال »

ولم يكن السجن بكاف ولا رداع لاسكات مثل هذا الصوت . فقد ظل فريد على صلابته يقود النضال ضد الخديو والاحتلال فى غير هوادة أو تراجع . لم يثنه عن ذلك تعطيل الجرائد التى كان يصدرها واحدة بعد اخرى . . وأصبح من المحتم بعد خروجه من السجن والتفاف الرأى العام حوله بشكل لم يسبق له مثيل ان يوقف عن متابعة السير والا تحطمت كل اساليب الكبت والمنع التى اتبعت فى القضاء على الحركة الوطنية . . والسبيل الوحيد ان يعاد الى السجن .

كان فى كل عام قد درج على عقد مؤتمر وطنى يعرض فيه لمغارم الحركة ومكاسبها . وفى عام ١٩١٢ انتهزت الوزارة فرصة عقد احد هذه المؤتمرات وخطبته فيها لتقدمه الى المحكمة من جديد . . وبأى تهمة ! !

لقد وقف يؤكد ثبات الحركة الوطنية أمام الاضطهاد . . ويدعو الى متابعة السير بمشروع انشاء جامعة مصرية . ثم يستنهض الهمم لتشكيل النقابات العمالية ومطالبة الحكومة بشد أزر حركة التعاون . . ان عدم التفات الحكومة الى ترقية شأن العامل والفلاح . . مرجعه الاحتلال الذى يريد ان تبقى هذه الطبقات كقطيع الغنم يؤمرون فيطيعون . جاهلين حقوقهم وحقوق بلادهم . . . وختم خطابه بالمطالبة بالدستور . . فلم يكد يمضى يومان حتى استدعى لدار النيابة بتهمة التحريض على كراهية الحكومة ومحاولة قلب نظام الحكم . . وهى التهمة التقليدية التى اتخذت ذريعة منذ اعادة العمل بقانون المطبوعات العتيق .

كانت نية الاحتلال قد اتجهت نهائيا الى شل حركته . . ولم يعد أمامه من سبيل الا الهجرة من وطنه . . فغادر مصر ليواصل جهاده خارجها . . والحق ان هذا النفى الاضطرارى كان تتمه طبيعية لسلسلة متصلة من مراحل نضال طويل فى الخارج . . بدأه محمد فريد منذ معرفته الاولى بمصطفى كامل وهو شاب صغير عام ١٨٩٥ وانتهى بوفاته شريدا شهيدا فى ١٥ نوفمبر سنة ١٩١٩ .

كان فريد قد تعود ان يسافر كل عام الى اوربا . . وقد توزع نضاله السياسى داخل مصر وخارجها فى ارتباط وتناسق حتى ليستحيل الفصل بين ما كان يؤديه من خدمة كبرى للقضية الوطنية فى المجال الدولى وما كان يسبغه عليها من تأثر بهذه الجولات الخارجية . . وهناك من يعزو سفريات فريد الى ولعة بالسياحة . . أو متابعة السير على نهج سلفه . ولكن الواقع ان النضال الوطنى فى تلك المرحلة التاريخية كان يستلزم الدعاية المستمرة فى الخارج بحكم ظروف الوضع الدولى الذى كان قائما فى ذلك الوقت . . فقد كانت مصر رغم غزو الانجليز وانفرادهم باحتلالها لاتزال فى شبه تبعية شكلية للسلطنة العثمانية فضلا عن أن الصراع كان محتدما على أشده بين الدول الاستعمارية

لاقتسام مناطق النفوذ . . الامر الذى أدى الى قيام الحرب العالمية سنة ١٩١٤ .

وهذه الفترة من حياة أوربا والعالم اتسمت بظهور الحركة الاشتراكية وانتشارها على نطاق عالمى واسع فيما عرف بالدولية الثانية . . كما اتسمت بقيام حركة السلام العالمية التى كان يحمل لواءها ساسة أوربا الاحرار ومفكروها وزعماء الاشتراكية والاحزاب العمالية فى معظم دولها . . وكان حتما ولزاما على زعيم وطنى فى ثقافة فريد ووعيه واخلاصه الا يرتكن فى الدفاع عن قضية بلاده على الحكومات الاستعمارية التى كانت تعد العدة للحرب فى سبيل اقتسام العالم . . وانما يلجأ الى الجهات الشعبية التى تنادى بالسلام والحرية وتناهض الاستعمار مناهضة أكيدة .

ففى أول مؤتمر عقد بجنيف سنة ١٩٠٩ للشبيبة المصرية دعا الى حضوره أغلب الزعماء البارزين فى الحركة الاشتراكية الاوربية مثل جان جوريس وكير هاردى وأضرابهم . وأستن فى عقد مثل هذه المؤتمرات اسلوبا جديدا قوامه بحث المشاكل المصرية السياسية والاجتماعية والاقتصادية ودراسة أحوال البلاد بمعرفة أبنائها المثقفين الذين يتلقون العلم فى الخارج . وكان القصد أن يتمرسوا على تفهم الاسس العملية التى يقوم عليها التطور فى البلاد الاوربية مستعينا فى ذلك بأولى الرأى من الزعماء الشعبيين . . وفى العام التالى مباشرة حاول أن يعقد مؤتمرا آخر فى باريس دعا اليه اقطاب السياسة من الاحرار الأوربيين لكى يكشف للعالم حقيقة السياسة البريطانية فى مصر . . لكن الحكومة الفرنسية مجاملة منها لانجلترا منعت عقد المؤتمر فقرر عقده فى بروكسل . . وهناك وقف يندد بالاحتلال وينادى بحياة مصر ، وأرسل بلنت صديق عرابى من لندن نصيحة للمصريين تليت فى المؤتمر دعاهم فيها الى الحذر من أبناء جلدته .

ثم كان من نتائج المؤتمر وضع روزنشتين كتابه المعروف « دمار مصر » فكان أول تحليل علمى واقعى لحقيقة القضية الوطنية المصرية . . وبعد أن هاجر من البلاد ارتبطت القضية المصرية. بالدعوة الاشتراكية الدولية وأصبحت بندا من بنودها الاولى اذ كان يبادر الى شهود كافة مؤتمرات

الاشتراكيين عارضا قضية بلاده شارحا أهميتها فى النضال من أجل تحرير الشعوب وسلام العالم حتى التقى بلينين فى سويسرا عام ١٩١٧ .

ولذلك فحين عقدت روسيا صلحها مع ألمانيا فى مؤتمر برست ليتوفسك . . أرسل محمد فريد بتقرير الى الدولتين يطالبهما بالاعتراف باستقلال مصر وجلاء الاحتلال وحيدة قنال السويس . فاعترفت حكومة البلاشفة التى كان يرأسها لينين نتيجة ثورة ١٩١٧ من مبدأ الامر بهذا الوضع تطبيقا لسياستها المعروفة فى حق تقرير المصير .

وقد وجد محمد فريد للقضية المصرية خير تعبير فى الدعوة للسلام العالمى . . فلما أوشك المؤتمر الثامن عشر لأنصار السلام على الانعقاد فى استوكهلم عام ١٩١٠ بادر الى حضور جلساته . . وكان المؤتمر مؤلفا من مندوبى جمعيات أنصار السلام فى العالم . . فإنضم الى عضويته ممثلا لجماعة أنصار السلام المصرية .

ونجح فى جعل المسألة المصرية من المسائل الاساسية فى جدول أعمال المؤتمر للسنة التالية « اننا نريد ان نصل الى الغاية المنشودة عن طريق السلام وبمساعدة أحرار العالم كافة » .

وفى عام ١٩١٢ حضر مؤتمر السلام فى جنيف ووزع على الاعضاء مذكراته عن القضية المصرية التى تقرر عرضها فى النهاية على المؤتمر . . وأصدر فيها قراره القاضى بضرورة الجلاء فورا عن مصر . لان الجلاء عن مصر كما جاء فى نص القرار هو « خدمة للسلام العالمى » . . وفى العام الذى تلاه سافر الى لاهاى لحضور مؤتمر السلام الذى انعقد بها . . وظل على ارتباطه بحركة انصار السلام العالمية حتى قامت الحرب وهو فى منفاه خارج البلاد .

ومات فريد فى ١٥ نوفمبر سنة ١٩١٩ ببرلين . . ولم تنقل رفاته الى مصر الا فى يونيو سنة ١٩٢٠ بعد ان عاش حياة عاصفة مليئة بالشدائد التى تحملها فى ثبات منقطع النظير فكان فى حياته مثلما كان فى مماته خير مثل لفناء الفرد فى عقيدته واخلاصه لايمانه . . وعلى حد ماوصفه شاعر النيل حافظ ابراهيم :

آثر النيل على أمواله	وقواه وهواه والولد
يطلب الخير لمصر وهو فى	شقوة أحلى من العيش الرغد

لطفى السيد

١٩٧٣ - ١٩٦٦

تاريخ حياة لطفى السيد فلسفته وأراؤه ومواقفه تعتبر الترمومتر الحقيقى لحياة البرجوازية المصرية الحديثة . . منذ نشأتها فى منتصف القرن الماضى حتى انهيارها بقيام ثورة ٢٣ يوليو فى منتصف هذا القرن . . فهو الممثل الحقيقى لنظرة هذه الطبقة وتطلعاتها وتطورها على مدى قرن كامل من الزمن . . ولعله من الغريب أن يمتد به العمر ليعيش أكثر من تسعين سنة طويلة على عكس معاصريه جميعا من أبناء طبقته حتى يكون بحياته ومواقفه الممتدة عبر اجيال أصدق وأكمل من يعبر عنها . . . . فيلسوف البراجوازية واستاذ اجيالها .

والبرجوازية ليست كلمة كريهة ولا تعبيرا سيئا . . فهى تعريف يطلق على طبقة أصحاب رؤوس الأموال التى سادت وسيطرت على أقدار المجتمعات الانسانية فى العصر الحديث حتى بداية ظهور الاشتراكية وتحقيقها . . والبرجوازية فى بداية نشأتها كانت طبقة ثورية . . قام كيانها على هدم الاقطاع وبناء المجتمع الرأسمالى الذى تحول فى نهاية تطوره الى مجتمع استغلال احتكارى مستعمر لا يصلح لحياة البشر وبناء مستقبلهم الحضارى . وقد لعبت البرجوازية فى تاريخنا المصرى المعاصر دورا كبيرا فى الحياة الوطنية والتطور الاجتماعي فضلا عن التقدم الاقتصادى .

ونحب بداية أن نسجل أن لطفى السيد بعقليته ومواقفه وكتاباته القليلة . . يعتبر بمثابة الصرح الذى قام لينطق بعقلية البرجوازية المصرية ومصالحها فلم يخلف من الآثار الفكرية الا ما كان لاصقا بها . . وذلك لأنه لم يكن مفكرا خلاقا أو فنانا ملهما تتجاوز نظرته الأفاق الطبقية على خلاف كثير من القادة الملهمين . . فالافغانى كان سليل بيت حاكم ولم يترك من الأثر المكتوب إلا القليل تماما مثل لطفى السيد . . ولكنه كان بنظرته وثوريته وفكره ومواقفه . . يعبر بحياته ونضاله عن آفاق وأبعاد مستقبليه لا ترتبط بمصالح الطبقة التى خرج منه . . وكذلك كان رفاعه الطهطاوى وإن اختلفت الظروف والمعالم . . فهو مثقف من أبناء الفلاحين الصعايدة . . عاش على امتداد سنوات مثل لطفى السيد . . ولكنه عاش بفكره ونضاله ومواقفه معبرا عن تطلعات وآمال ورغائب ومصالح الجماهير من « أبناء العوام » ولعل أقرب الشخصيات الى لطفى السيد فى هذا المجال شخصية أمام « المعتدلين » الشيخ محمد عبده الذى كان لطفى السيد يعتبر نفسه من تلاميذه .

وربما اعترض البعض على مثل هذا التحليل الذى نقدمه عن الرجل . . على زعم ما أصطلح عليه بأنه تحليل ينهض على أساس مفهومات طبقية محدودة وقاصرة . . لكن الواقع الذى لا يحتاج الى دليل وهو ما سنثبته ونؤكده فى هذه الدراسة . . أن بطلنا لطفى السنيد . . كان من صلب حياته وفى اطار الفترة العريضة التى عاشها بفضل مواقفه ومن أصل آرائه وأفكاره وميوله ومبادئه . . بل ومن واقع شخصيته ذاتها . . وليس فقط من واقع منبته وولادته وأسرته . . كان الأبن المخلص البار للبرجوازية المصرية الحديثة . . والحارس الأمين على قيامها والمحافظ على كيانها الفكرى والسياسى والاجتماعى . . والراعى الحريص على

● لطفى السيد

● بريشة الفنان رؤوف عبده

مصالحها الاقتصادية وسيادتها واستمرارها . . والذى دفعه انهيارها على أن يختفى معها وينتهى بنهايتها . . فى مواقفه وأفكاره وآثاره . على أن هذا يجب ألا يحجب عنها الحقيقة الساطعة وهى أن لطفى السيد لعب دورا ايجابيا كبيرا فى خدمة التطور بالحياة العامة للبلاد وهو دور له آثاره غير المذكورة فى بناء المجتمع المصرى ونهوضه وأزدهاره وتطوره .

يمتد السند السياسى للبرجوازية المصرية الحديثة من نهاية القرن الثامن عشر . . ويبدأ أصلا من تدخل التجار لحماية مصالحهم أو بالأحرى مصالح حرفييهم من عنت المماليك ومشاركتهم لمشايخ الأزهر فى الانحياز الى جانب العوام . . ويعبر عن ذلك أوفى تعبير نظام عمر مكرم الذى انتهى بالسيطرة الكاملة لمحمد على وطبقته التركية الحاكمة . . وطوح بالقوة السياسية لمشايخ الأزهر على هامش الحياة المصرية واحداثها . . ويعود هذا السند ليظهر مرة أخرى على عهد الخديوى اسماعيل ويتمثل فيما استنه من سياسة جديدة لمحاولة استخدام المصريين والارتكان عليهم فى الخدمة العامة للبلاد بعد ثبوت عجز السلالات التركية والشركسية عن إدارة دفة الحكومة وإمكان السيطرة بالقوة الجبرية القهرية على أقدار جماهير الشعب . . وقد توسع اسماعيل فى ذلك حتى شمل المضمار العسكرى الشىء الذى أدى الى ترقية عرابى وعبد العال حلمى وبعض زعماء العرابيين على عهده من مجرد جنود تحت السلاح الى الانسلاخ مراتب الضباط . . وقد لجأ اسماعيل الى هذه السياسة لضمان الحصول على الاستقرار وجباية الأموال اللازمة له . .

ولهذا نلحظ فى تلك الفترة بداية ظهور ما يسميه مؤرخنا الكبير الرافعى « كبار اعيان القطر المصرى » وما أن يحل عام ١٨٦٩ ويجرى تشكيل الهيئات النيابية تباعا . . حتى يتم اختيار معظم أعضاء مجلس شورى النواب لمناصب مديرى

مديريات . . وليصبح هؤلاء الركائز الأولى لجماعة الأعيان . . الذين تمثلت فيهم بعد ذلك طبقة البرجوازية المصرية وهى طبقة اقطاعية المنابت والجذور . . . وهم البناة الفعليون الأول للعائلات الحاكمة الكبرى فيما بعد . ومنهم على سبيل المثال لا الحصر هلال بك مدير الدقهلية والزمر بك مدير الجيزة واباظة بك مدير الشرقية والشريعى بك مدير المنيا وأبو العز بك مدير المنوفية وهكذا . . وهكذا . . وبهذه الطريقة نجح اسماعيل فى خلق طبقة مصرية تلتف حول حكم اسرته وتدين لها بالولاء الكامل . على أنه يجب أن يفهم أن هذه الطبقة لم تنشأ بمقتضى قوانين تعيين ادارية . . وإنما تطورت فى نشاطها منذ عهد سعيد واعادة توزيع الأرض باللائحة السعيدية التى أباحت حق التمليك للمصريين . . فتكامل لها بطموح أفرادها الوضع الاقتصادى ثم تدعم بكيانها الأدارى الجديد أيام اسماعيل . . الى أن استكملت بعد ذلك كيانها السياسى فى الجيل اللاحق بعد هزيمة عرابى . . لتتبوأ صدارة المجتمع فى ظل الاحتلال كطبقة مستوفاة الأصل والكيان . . كان من كبارها كل من تنكروا للثورة العرابية بعد انحسارها وعلى رأسهم سلطان باشا . . وبقية الاقطاعيين الصغار الجدد ومنهم الشيخ سيد أبو على عمدة برقين دقهلية الذى كان يملك وحده ألفى فدان وأصبح بعد قليل فيما بعد سيد باشا أبو على والد لطفى السيد باشا .

سادت هذه الطبقة الجديدة حياة البلاد فى ظل سيطرة الاحتلال وسماها كرومر طبقة أصحاب المصالح الحقيقية بدلا من طبقة الأعيان . . وقد كان أبرز استاذ لها على ختام القرن المنصرم باتجاهاته المعتدلة العاجزة . . الشيخ محمد عبده أثر عودته من المنفى ومروقه من وجه ثورية استاذه جمال الأفغانى . . وتركزت نظرتهم ببساطة فى هذه الحكمة ولا نقول الفلسفة . . وهى الابتعاد عن السياسة والاتجاه الى الاصلاح فى ظل السلطة المسيطرة « لأنها القوة الوحيدة القادرة على الاصلاح ولن يكون هذا الاصلاح بغير التربية والتعليم » وشب لطفى السيد من باطن طبقته النامية ليعتنق منطق الاصلاح قبل اعتناقه لمنطق ارسطو . .

وهو منطق قوامه الابتعاد عن العنف وخاصة فى المجال السياسى . وهذا طبعا كان يتفق مع حاجة ومصالح طبقته التى لم يكن تاريخ نشأتها وتكوينها قد زاد على عشرين عاما فقط والواقع أن هذه الطبقة نمت بسرعة ساحقة حتى فى اكتساب قيمها واخلاقياتها فضلا عن تطلعاتها واطماعها وذلك بما اتاحه لها الاحتلال والحكم الخديوى من استقرار وثروة ونفوذ فى مجال الحكم والتسلط الى جانب دفعها لمصاهرة بين كبارها والفلول المتبقية من السلالات التركية . . حاملة القيم الاستقراطية . .

ولعل هذا هو أوضح ما يطالعنا فى صفات لطفى السيد . . فقد كان بكرى أبيه وحامل مواصفات كاملة ، فنشأ شخصية استقلالية واثقة بنفسها معتدة بجاهها تحمل من سمات الانفة والاعتزاز والشعور بالسيادة ما يرفعه عن مصاف الآخرين ثم أنه كان شديد الكلف بهندامه وملبسه الرسمى . . ارستقراطى المظهر فى زيه وسلوكه المهذب المترفع . . ولهذا لم يكن عنيفا فى خصومته . . يؤثر العزلة والابتعاد عن كل احتدام أو مواجهة يمكن أن تولد العنف . ولم يكن أسهل عليه من أن يترك الوظيفة أو العمل فى اعتداد لأنه دائما فى غنى عن العائد المالى الذى تدره . . ولا غرو فقد ولد كما جرى القول وفى فمه معلقة ذهبية . . حتى فى ايمانه الجارف بالديمقراطية كان يضع لها قيودا تحكمها تقاليد طبقته وحدها . . فهى ديمقراطية الصفوة المختارة المميزة التى لا تحتفى كثيرا بالجماهير رغم أنهم يمثلون الأغلبية . . وإنما تقوم على الانتقاء الفكرى والتمايز الحتمى للمستنيرين فضلا عن اتاحة الفرصة للقادرين وحدهم على قيادة المجتمع . . وفى المجال الاقتصادى فهى النظام الذى يعطى الحرية للاستغلال بلا خضوع لقيود أو عقبات من ضرورات اجتماعية أو حاجات شعبية الخ . . ومثل هذه القيم والاخلاقيات التى طبعت شخصيته بهذا الطابع . . لم تكن تحمل مواصفات طبقة وإنما اتشح بها المثقفون من أبنائها وكان هو أكثرهم تجسيدا حيالها . .

لكن ترى . . أى نوع من المثقفين كان لطفى السيد ؟ وما هى ذى مقومات ثقافته قبل أن نعرض لتطورات حياته العامة ؟

لم يخلف لطفى السيد من الآثار الفكرية كتابا واحدا . . ولكنه ترك مئات المقالات التى كتبها فى صحيفة « الجريدة » على مدى ما يقرب من ثمانية أعوام . . جمعها بعد ذلك المرحوم اسماعيل مظهر . . الى جانب نتف من محاضرات متفرقة كان يلقيها فى المناسبات المختلفة فكانت استاذيته إذن لم تكن تتمثل فى كتاباته بقدر ما تمثلت فيما كان يحمله بشخصه الحى من آراء وأفكار وتعليقات والشىء الوحيد الذى خلفه فى كتاب هو ما ترجمه عن أرسطو وهو كتاب الاخلاق وقد جاء ذلك عن فكرة مترسبة تبلورت حتى عام ١٩٤٤ حين تولى شئون دار الكتب ليخرج بنتيجة بالية مؤداها أن البلاد فى أولى خطوات نهوضها يجب أن تعتمد على الترجمة أكثر من التاليف والخلق والابداع والابتكار . . . وهذا بدوره مرتبط بنظرته عن حتمية التقدم عن طريق التربية والتعليم وحده . . وسنعود اليها فى الحديث عن الاطار الفكرى لفلسفته . . ولكننا نسجل هنا مصادر ثقافته كدليل على أفكاره وآرائه العامة . . فقد جنح الى

المنطق فاستمده من أرسطو . وتابعه بدراسة « بيكون » والأعجاب به ثم كان تأثره عميقا وغائرا بتعاليم فولتير وروسو . . على أن الاستاذ الأكبر فى مجال الفكر السياسى والمذهب الاجتماعى كان ستيورات مل صاحب نظرية المنفعة وأمام الدعوة الى المذاهب الليبرالية المحققة لحرية الفرد كأساس لكل نشاط وبالذات النشاط الاقتصادى الطلق الذى لا يعيش فى ظله غير النظم الراسمالية بمختلف أشكالها . . ومع أنه درس داروين ونظريات التطور وألم بالاشتراكية ومذاهبها فقد أنكرها تماما من فكره .

وهكذا اقتحم لطفى السيد مجال الحياة العامة مزودا بمكانة طبقته ووعيه بمصالحها ومهيأ لتلقى الفلسفة التى تدعم وجودها وتطورها . . وجاء ذلك مع ختام القرن الماضى فبدأ يلج ميدان السياسة مع تولى الخديوى عباس حلمى أيامها كان لا يزال طالبا فى مدرسة الحقوق . . فلما قامت ثورة المثقفين بزعامة مصطفى كامل وبتأييد من الخديوى فى بداية الأمر . . انخرط لطفى السيد فى عدادها . . ولكن على غير نفس المنهج المتطرف والأسلوب العنيف الجارف الذى تميز به مصطفى كامل . . ولهذا كان نقيضه تماما . . لا فقط فى أسلوبه وإنما أيضا فى آرائه ومواقفه . .

فعلى قدر ما تمرد مصطفى كامل على الخديوى حينما تعارضت مواقفه مع مصالح الحركة الوطنية على قدر ما ازداد انحياز لطفى السيد للاحتلال ومساندة الاحتلال له . . وقد روى فى « قصة حياتى » كيف أرسله الخديوى الى سويسرا مثلما ساعد مصطفى كامل على السفر الى باريس الأول للدعاية للقضية الوطنية فى المحافل الدولية والثانى لكى يعود لأنارة الرأى العام المصرى ضد استمرار الاحتلال . . ونحن نرى من جانبنا ان خطة الخديوى كانت على عكس ما صوره لطفى السيد . . . لان المقصود بارساله كان لايجاد موازنة بينه وبين مصطفى كامل . . ولا عجب بعدها ان يعود الى مصر وقد رسخ فى ذهنه « ان مصر لا يمكن ان تستقل الا بجهود ابنائها وان المصلحة الوطنية تقضى ان يرأس الجانب الخديوى حركة شاملة لتغيير العلم » . . وليس طبعا فى سبيل النضال من أجل جلاء المحتلين الانجليز .

بدأ لطفى السيد موقفه السياسى الباكر بحتمية الخضوع لحقيقة الاحتلال وجبروته وضرورة الانضواء تحت لواء الخديوى والاخذ بمبدأ الاعتدال الذى استنه الشيخ محمد عبده . . وهو ان رقى الامم وتحررها اساسه تعليم بنيها اولا . . ولهذا لم يستطع الصمود امام التيار المتصاعد للحركة الوطنية . . فتراه ينطوى فى سلك الوظائف فينتقل من الادارة فى الفيوم ليعمل وكيلا لنيابة ميت غمر ومنها إلى المنيا ثم ينتهى به الحال بعد خمس سنوات إلى الاستقالة .

ولقد كانت الوظيفة بالنسبة له مجرد مركز يكمل مكانته الاجتماعية وقد انخرط فى سلكها كافة المثقفين من ابناء طبقته لتدعيم مراكزهم فى جهاز الدولة . . فلما ترك خدمة الحكومة وقعدت به آراؤه عن المشاركة فى الكفاح السياسى العنيف الجارف . . ارتد إلى ضياع والده ليعيش فى برقين متاثرا بما قرأه عن تولستوى وكان أيامها يلف بمبادئه الانعزالية عقول المثقفين . . لكنه سرعان مامج عيشة الريف فعاد إلى القاهرة ليعمل فى المحاماه بتاثير من صداقته لعبد العزيز باشا فهمى . . وفى هذه الفترة اشتدت الحاجة اليه بالفعل امام تطورات الحركة الوطنية فى تحولها واتجاها نحو الارتكان على جموع الشعب كاساس جديد لمكافحة الاحتلال وسيطرة الخديوى واعوانه . . وكان ذلك عام ١٩٠٦ حينما بدأ الحزب الوطنى يندفع يائسا من أى تاييد خارجى من فرنسا أو تركيا وأى تعضيد داخلى من الخديوى . . للمجاهرة بقوة الشعب كقاعدة رئيسية للنضال الوطنى . . لاسيما حين بدأ الحزب يتاثر بالمفاهيم الثورية العلمية التى كان يغذيها البطل الفذ محمد فريد باساليبه التنظيمية فى تجميع الفلاحين داخل جمعيات التعاون وللعمال داخل النقابات والمتعلمين فى الاندية والهيئات . . حينذاك تيقظت الطبقة الحاكمة ممثلة فى الخديوى والاحتلال . . فدفعت إلى الساحة السياسية بالطبقة الجديدة التى تخدمها طبقة الاعيان . . أو كما سماها كرومر بأدق تسمية . . أصحاب المصالح الحقيقية .

وكانت الفترة قد تميزت بقيام الاحزاب السياسية لاول مرة . . أو على الاقل بقيام الحزب الوطنى . .

كما تميزت بوحى من المعتمد البريطانى بظهور الجرائد الماجورة لمحاولة السيطرة على الراى العام الذى أخذ يزداد تفتحا ووعيا . . وفجاة نرى لطفى السيد عام ١٩٠٧ مؤيدا من الاعيان يراس تحرير صحيفة « الجريدة » لتقف فى وجه اللواء . والحزب الوطنى الذى تعبر عنه . . بدات « الجريدة » على شكل شركة مساهمة ثم تحولت إلى حزب سياسى سموه حزب « الامة » وعاشت « الجريدة » تمثل فكرة ودعوة وبقى رجال الحزب فى ظل الاحداث السياسية من وراء الستار يحافظون على مصالحهم ويرعون ثرواتهم ويدعمون نفوذهم وكيانهم الطبقى . . وصدورا المثقفين من ابناء طبقتهم وعلى رأسهم لطفى السيد لمحاولة الانقضاض على الحركة الوطنية فى تحولها نحو الارتكان على التكتلات الشعبية . . ومن الطريف أن نذكر أن الجريدة تكونت من مائة وثلاثة عشر عضوا مساهما يمثلون كافة أعيان البلاد ، وقد صدر عددها مصدرا بافتتاحيه كتبها لطفى السيد لتحديد خطة الجريدة . . وهى كما

قرر (تقوم على الاعتدال الصريح وارشاد الامة المصرية إلى اسباب الرقى الصحيح والحض على الاخذ بها واخلاص النصح للحكومة بتبيين ما هو خير واولى) وتاكيد هدفها وهو قائم على « وضع مقاليد الامور فى يد جماعة اولى الراى وهم الذين نبهواذكرا بعلو المنصب أو بالعلم وبالفعل « ومعنى ذلك أن تسلم مقاليد الثورة الوطنية وحكم البلاد ليد السادة الاعيان وابنائهم من كبار الموظفين وغيرهم من الاكابر العظام الذين اشتركوا فى تأسيس الجريدة المساهمة وتكوين الحزب . . وهو مثلا محمد بك أبو نافع . . ومحمد بك الاتربى ومحمد بك حفنى الطرزى واخوته . . محمد طلعت حرب بك . . محمد بك الشناوى محمد باشا أبو حسين محمود بك عبد الغفار . . همام حمادة باشا . . الخ . . الخ » من الاسماء التى كونت فيما بعد العمد الرئيسية التى بنت عليها احزاب ١٩١٩ كيانها . . سواء فى صفوف الوفد . . والاحرار الدستوريين أو السعديين أو الاتحاديين وغيرهم .

ولاحاجة إلى القول أن هذا الحزب باعضائه لم يلعب أيامها أى دور سياسى فى حياة البلاد . . مع أن تأسيس الجريدة والحزب الشيخ الذى وراءها جاء فى الوقت الذى أخذت فيه فورة مثقفى الحزب الوطنى تنحسر بوفاة زعيمه ثم بنفى محمد فريد . . لكن كان لابد من دفع أصحاب المصالح الحقيقية إلى ساحة المعترك السياسى حتى لايفلت زمام الامور من يد الاحتلال . . وجاءت الجريدة وعلى راسها لطفى السيد الابن البار لطبقته لتضع الاسس النظرية التى كان يرادللتكتل البرجوازى الاقطاعى أن يعبرعنها . .

وهذا هو مجمل ما كانت تعبر عنه الجريدة منذ صدورها ومواقف صاحبها من النضال الوطنى القائم . . وهى مواقف لا تختلف كثيرا عن مواقف صاحب « المؤيد » الشيخ على يوسف مؤسس « حزب الاصلاح على المبادىء الدستورية » والذى قام اصلا بتأييد من الاحتلال والخديوى لمناهضة الحزب الوطنى . . شانه فى ذلك شان المقطم والاهرام وغيرهما من الجرائد المعتمدة . . وكان الاساس السياسى لحزبهم وجريدتهم يقوم على مهادنة الاحتلال والتمسح باعتاب كرومر.فلما رحل كرومر شيعه لطفى السيد بتحية غريبة حقا . . فاثنى على أعماله العظيمة ونوه بما حققه لمصر من خير فى النواحى المالية والاقتصادية وتناول الجانب السياسى فلم يسعه الا أن يعترف بان اللورد (عمل كل مافى وسعه لترسيخ قدم دولته فى وادى النيل . . ونحن اذا نظرنا اليه بعين انجليزى فلا يسع الناظر الا أن يثنى عليه لان اللورد كان ينظر فى كل أمر إلى مصلحة دولته قبل كل شىء . . سنة الوطنى الغيور على وطنه) كان هذا هو موقفهم من الاحتلال .

اما بالنسبة للحكم الداخلى . . فقد قامت نظرتهم التى تعبر عنها الجريدة دائما بالمطالبة التدريجية بالدستور وتحقيق ماتسمح به المصالح البريطانية من الامانى القومية للمصريين لان سبيل المعاندة . . بمنطق فيلسوفهم الكبير . . لايثمر غير المعاندة . . والبلاد لاقبل لها على مواجهة قوة الانجليز . . وقد اطلق لطفى السيد على هذا الاسلوب ماعرف بانه اعداد الأمة اولا « لمقومات الاستقلال » وجاء غورست بعد كرومر ليعلن أن « الأمة المصرية ليست اهلا للدستور » ورغم ذلك أستمرت دعوتهم إلى الحياة النيابية . . ولكنها كانت دعوة خافتة سرعان ما استبدل بها لطفى السيد امام رفض غورست معاودة الدعوة التقليدية بالعمل اولا على نشر التعليم لانه بالفعل الدعامة الاولى للاستقلال ولاتستطيع أمة أن تحقق أستقلالها مالم يتوافر لها مستوى لائق من التعليم .

لكن ماذا كان موقفها الاجتماعى اذن ؟ لقد أنبنى على اسلس مذاهب من كان يسميهم « الحريين » متاثرا بستيورات مل بقدر تاثره بمصالح البرجوازية الجديدة التى يمثلها . . وذلك يقتضى «قصر مهمة الحكومة على ولاية البوليس والقضاء والدفاع المدنى . . والابتعاد عن النشاط الاقتصادى والزراعى والتجارى الذى يمارسه الافراد وتمارسه الجماعات الحرة . . لان هذه المذهب دون غيره هو الذى يجب أن يكون اساسا للحكم فى مصر والواضح أن هذا النظرة إلى الاحتلال وأسلوب الحكم والحكومة كجهاز لخدمة « الحريين » هى النظرة التى قام عليها كيان البرجوازية وتحددت بها مواقفها على المراحل المقبلة من حياتنا القومية . . وهى نظرة محدودة لم تتح لحزبها وجريدته أن يعيش لابعد من سنوات معدودة . . ثم سرعان ماقامت الحرب العالمية الأولى . . وأغلقت الجريدة . . فاعتزل لطفى السيد الصحافة إلى الأبد . . ولكنه حين عاد إلى التدخل فى السياسة والاشتغال بها مرة أخرى . . كان يقف دائما فى جانب مهادنة الاستعمار وربط الحياة النيابية بسلطة الملك وسياسة طبقة أبناء البيوتات وأحقيتها المطلقة كطبقة مميزة من الصفوة (علية القوم) فى حكم البلاد . ولما أنضم إلى الوفد مع بداية ثورة سنة ١٩١٩ . . لم يغير من موقفه . . يقول الدكتور حسين هيكل باشا . . أنه كان أكثر الزعماء صراحة اذ جاهر علنا بالخطة الحقيقية التى رسمها الوفد . . أن خطتنا أن نسافر إلى باريس ونطرح القضية على مؤتمر السلام مطالبين بحق تقرير المصير . . فان أجبنا إلى مطلبنا كان ذلك ماينبغى والا ذهب رشدى وعدلى إلى لندن لمفاوضة الحكومة البريطنية فى تنظيم العلاقة بين مصر وانجلترا فى حدود الحماية تنظيما أساسه قيام

لحكم الدستورى الصحيح فى البلاد فقيام هذا الحكم يرفع هنا ماننوء به من سلطة مطلقة شرعية كانت السلطة الفعلية ويدنينا من هدف الاستقلال اذ يتيح لنا الفرصة للنهوض بالشعب فى مدارج الرقى فاذا بلغ اشدهْ لم يكن لغيره عليه من سلطان .

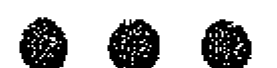
وليس اوضح من هذا فى التعبير عن نظرة البرجوازية للثورة ولكن هذه النظرة لم تكن نظرة لطفى السيد وحده . . بل قدرلها كما يقول الدكتور حسين فوزى النجار أن تسود فى النهاية اتجاهات الزعماء ولاغرابة فى ذلك فان أكثر أعضاء الوفد كانوا من أعضاء حزب الأمة ومشايعيه . . فلما تطورت الأحداث وبدأ الشعب بمجموعة يدخل ساحة الجهاد غلب الزعماء على أمرهم وكان لطفى السيد أسرعهم إلى الأبتعاد . . يقول « أعتزلت السياسة ثم عرض على أن أرجع لدار الكتب فرجعت . . وأخذت أشتغل بها وبترجمتى لمؤلفات أرسطو . . وبالجامعة المصريةالقديمة . . ودور لطفى السيد فى إنشاء الجامعة دور هام وكبير وحرصه على استقلالها ورعايتها مما يسجل له بكل فخار . . فلقدقضى الشطر الأكبر الباقى من عمره فى إدارة الجامعة . . فلم يكن يتركها إلا ليعود اليها . .

لكن يبقى السؤال الجوهرى . .

لماذا كان لطفى السيد يترك الجامعة ليعاود التدخل فى السياية وشئون الحكم على طوال الحقبة التى تلت ثورة ١٩١٩ وتبوأت فيها البرجوازية مقاليد الأمور ؟ ؟ الواقع أننا لانستطيع أن نجد لموقفه مبررا منطقيا . . وهو الرجل المتربع عن كل نضال . . لامبرر من شخصيته أو طموحه أوظروفه أو مكانته المحفوظة المرعبة . . غير ما أكدناه من البداية . . وهو أنه كان الأبن البار لطبقته والحريص الدائم على رعاية مصالحها وتثبت كيانها وتحقيق أطماعها وتطلعاتها فى السياسة والحكم . . ولهذا نراه يسارع إلى دعم وقف الحزب الاقطاعى البحت (حزب الأحرار الدستوريين) فينضم اليهم وهو ليس عضوا فى حزبهم ليصبح وزيرا للمعارف فى وزارة اليد الحديدية التى الفها زعيمهم محمد باشا محمود لتعطيل الدستور وإيقاف الحياة النيابية ثلاث سنوات قابلة للتجديد . . ويبرر هو نفسه هذه الخطوة بأنه أنما أقدم عليها لمجاملة صديقه العزيز . . ورغم استقالته من الجامعة أبان وزارة صدقى حين قامت بفصل الدكتور طه حسين . . فانه كان أبرز المشايعين لصدقى فى مواقفه وسياسته القهرية وعدوانه الجائر على الشعب . . ولم يكن صادرا من عداء شخص للوفد ورجاله أكثر من تشبثه بالنظرة الطبقية الخالصة . . فلقد عاد للجامعة وأستمر مديرا لها حتى عام ١٩٤١ . . ثم عين فى مجلس الشيوخ وتولى رئاسة المجمع

اللغوى ثمانية عشر عاما كاملا . . ومع ذلك لم يتوان فى أى لحظة عن تدعيم مواقف الاحزاب التى تمثل مصالح طبقته مرحلة بعد أخرى . . صحيح أنه لم يقبل رئاسة حزب الأحرار بعد وفاة محمد محمود ولكنه كان وراءالحزب ورئيسه الجديد هيكل باشا فى كل مواقفه لخدمة السراى والانتقاض على التحركات الشعبية مثلما وقف وراء السعديين بزعامة ماهر والنقراشى حين خبأ الأحرار فى ظل . . لاكراهية فى الوفد . . ولكن حرصا على دعم طبقته البرجوازية التى جاء السعديون للتعبير عنها . . الشىء الذى أكده وحققه بان توج موقفه من القضية الوطنية والدستورية حين أنضم لهيئة المفاوضات التى شكلها صدقى وأنتهت بعقد اتفاقية « صدقى . بيفن » الشهيرة .

ومن هنا كانت حياة لطفى السيد وفلسفته واراؤه ومواقفه بمثابة الترمومتر الحساس الذى يسجل تاريخ البرجوازية المصرية منذ نشأتها على منتصف القرن الماضى حتى انهيارها فى منتصف هذا القرن لقيام ثورة يوليو سنة ١٩٥٢ .





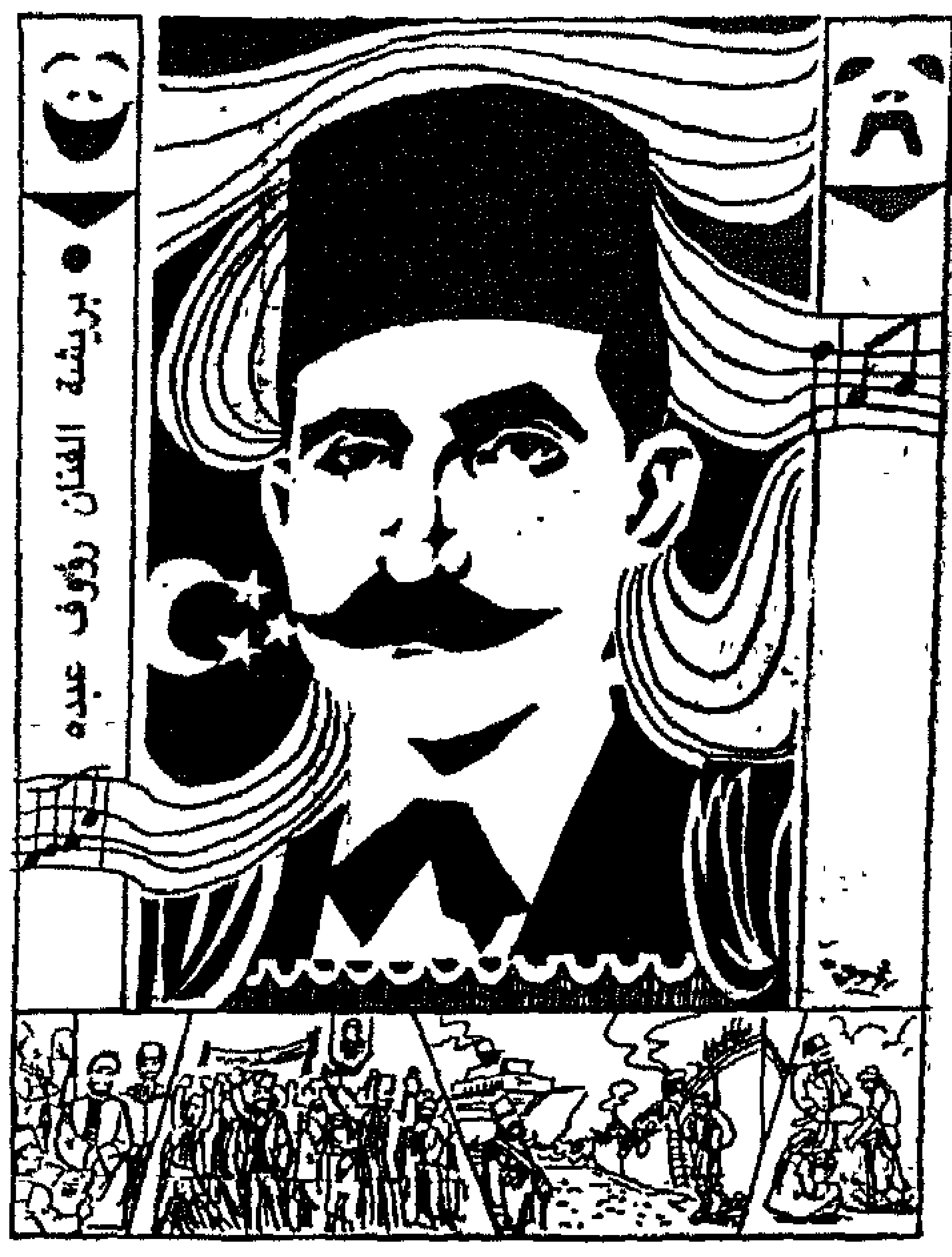
سلامة حجازى

١٨٥٢ - ١٩١٧

عدة ظواهر تستلفت النظر فى حياة الشيخ سلامة حجازى وشخصيته . . فمن حياته انه يكمل الرباعى الشعبى العبقرى الذى انجبته الاسكندرية فوق اعتاب ساحلها ليلعب برجاله اسطع الأدوار فى تاريخ مصر الفنى والادبى والسياسى . . كان سابقهم فى المضمار السياسى والأدبى المناضل الشعبى البطل عبد الله النديم . . ليلحق به سلامة حجازى حاملا راية التطور بالغناء المسرحى . . ثم يتلوه فى تلازم موفق عبقرى الموسيقى سيد درويش . . وفنان الشعب بيرم التونسى . وإذا كانت احداث الثورة العرابية اتاحت للنديم أن يقف على رأس تيار ثورى غامر

مشريب طاول عديد الأجيال بعده . . فإن أحداث ثورة ١٩١٩ وما تلاها قد هيأت لسيد درويش ثم لبيرم التونسى أن يزحف كل منهما بفنه إلى ابعد الافاق المتطورة فى التاريخ اللاحق لحياة شعبنا ، لأن وقوع الاحتلال قد اعاق سلامة حجازى. بجهده العصرى الوثاب أن يكون . . كما هو بالفعل . . صاحب الأثر الخلاق الباقى فى دعم الموسيقى العربية . . ووضع اللبنات الأولى لتطورها فى ارحب مجالاتها . وهو المجال المسرحى الغنائى .

● سلامة حجازى



فى نظرتنا للجهود العبقرية لسلامة حجازى يجب الا نركن إلى الظروف الخارجية المحيطة وحدها . . وذلك ان العوامل الذاتية لها تأثيرها غير المنكور . وهذه العوامل الذاتية التى تكون جماع شخصية الرجل . . جعلته من البداية يرتفع بهامته فوق الكثير من المعوقات والمسالب الرئيسية الخانقة ولا اقلها تخطيا لابعاد البئية التقليدية بما تحويه من عناصر الجمود والتخلف والردة القاتلة . . لا سيما فى المراحل الأولى من حياته وإلى سنوات بعيدة من نضجه هي تلك التى قطعها فى ظل سيطرة الاحتلال والاقطاع . . وكلاهما احال الادب والفن والفكر فى مصر إلى مجرد مظاهر للمتعة والتسلية والتطريب التى تحتاج إليها الطبقة الناعمة المسيطرة التى كانت تعيش آمنة فى ترف وبذخ مرتكنه على وجود الاحتلال . . وقد نستطيع أن نلمس ذلك بكل وضوح من تتبعنا لوقائع حياة سلامة حجازى الباكرة قبل أن يقدر له الظهور والنبوغ الفعلى الذى لم يواته على حقيقته إلا مع بداية وجود الاحتلال . . وعلى وجه التحديد بعد عام واحد من الغزو الانجليزى للبلاد الذى بدأ سنة ١٨٨٢ وانتهى بدحر الثورة العرابية . كان سلامة حجازى قد غادر الاسكندرية مع نشوب الثورة ونزح مع اسرته إلى مسقط رأسها الأصلى فى رشيد . . وتلازمت عودته وشهرته . . وتوطدت مكانته ولم تظهر قيمته الا مع بداية السيطرة الاقطاعية التى

خلقها وثبت قيامها وجود الجيوش الاستعمارية المحتلة .

ونعود إلى البداية . . ففى منتصف القرن التاسع عشر تماما . . وبالذات عام ١٨٥٢ ولد سلامة حجازى فى حى رأس التين كان ابوه الريس حجازى نوتيا بسيطا استطاع بكده وكفاحه ومثابرته أن يصبح من ملاك السفن الشراعية العديدة التى تجوب الساحل الشمالى من رشيد إلى السلوم . تزوج من فتاة عربية من احدى القبائل النازحة التى كانت تمت إليه بصلة القرابة . . وقد عاش سلامة حجازى لاعوامه الثلاثة الأولى من طفولته ينعم بعز والده حتى مات . . فاذا بأمه تتزوج بعده من سكير عربيد يضيع ثروة الاسرة ويرمى بالطفل إلى مهاوى اليتم والبؤس هو واخيه غير الشقيق محمود واخته شفيقة . ثم يقدر للطفل أن يتنباه الشيخ الذى سماه والده على اسمه . . وهو الشيخ سلامة الريس رجل دين ورع كان الريس حجازى من اتباعه . . ويلحقه باحد الكتاتيب المستجدة التى قام على تأسيسها فى ذاك العهد رفاعة الطهطاوى حين بدأ بارساء قواعد النهضة التعليمية لايصال المعارف إلى ابناء العموم . لكن حال الأسرة تضطره إلى السعى وراء قوته بنفسه فاذا به يشتغل صبيا لحلاق الحى بغية تعلم مهنة يتعيش منها .

وهنا تلزمنا وقفة أمام ظاهرة بارزة دائما ما تلحق باصحاب المواهب . . فلا يكاد يمر عام و بعض عام حتى يتمرد الطفل على مهنة الحلاقة . . ونراه يهرب منها إلى الانخراط المباشر فى صفوف أصحاب الاذكار وحلقات الادعية ولا يلبث حين يبلغ العاشرة أن يكسب لصوته الساحر ومقدرته فى العزف على الناى والسلامية ما يلفت إليه أنظار كبار المنشدين . . وإذا به يصاحب معظم فرقهم عازفا بارعا قبل أن يكون منشدا طيعا . . وتمكنه براعته فى العزف وهوايته له أن يجيد كافة الالحان والنغمات الشائعة فى عصره . حتى إذا بلغ الخامسة عشرة تكشفت مواهبه الصوتية مع تمرسه على عزف الالحان عن فنان ناضج متكامل المواهب وصاحب مهنة تكفل له بدلا من الحلاقة ان يشتغل بتلاوة القرآن واداء الاذان وانشاد القصائد والمدائح النبوية .

ولقد كانت كل موهبة من هذه المواهب الثلاث كفيلة بان تضفى عليه من الشهرة بين أهل الاسكندرية ثم بين منشدى القاهرة وخبراء الاصوات فيها ما يجعله يطفو على سطح الحياة الفنية بسرعة ساحقة . . على أن هذه المرحلة قد امدت سلامة حجازى الصبى بميزه بالغة ، يقول الأستاذ الدكتور محمود أحمد الحفنى فى كتابه عنه . . . « لقد كان قيامه باداء الاذان المنطلق فضلا عن الابتهالات العريضة الرحبة فى الفضاء ومن قمم المنابر التى لا تحدها جدران بمثابة تدريب يومى منتظم وعنيف لقوة صوته . . وهو الشىء الذى مكنه فيما بعد ذلك أن يصل إلى أحد الأصوات الصادحة « التينور » ثم يهبط إلى اغلظ نغمات الجهير « الباريتون » فى يسر دون تكلف مما لا يلحقه فيه أحد من الذين جاءوا بعده من المغنين » .

بعدها عاش سلامة حجازى لعدة سنوات فى الاسكندرية وقد ملأت شهرته الاسكندرية كقارىء ومؤذن ومنشد . وبدأت حياته تستقر وتتوطد فتزوج وانجب وارتدى العمامة والجبة ليحمل اللقب الشهير الذى ظل يلازمه طوال العمر . لقب « الشيخ » واخذت أعماله تتسع وحفلاته تتزايد إلى حد أن عين اخاه غير الشقيق « محمود » مديرا لأعماله . كان ذلك وهو لا يزال قابعا فى الثغر . . وهنا وللمرة الثانية تدفعه مواهبه ويفرض عليه طموحه ان يتطور بطاقته الفنية المتقدمة إلى مجال ارحب فلا نلبث ان نراه وقد امتهن الغناء وتحول إلى اعتلاء خشبة المسرح لينشد ما يصلح من اذكاره واناشيده القديمة بمصاحبة « التخت » .

كانت خطوة واسعة ولكنها لا تستبعد على جسارة سلامة حجازى لانها جسارة لم تفارقه لحظة على مدى كفاحه الفنى الشاسع العريض . . ولا عجب ان تلاقى حفلاته ولياليه من الأقبال ما جعل « تخت الشيخ سلامة » من معالم البهجة فى الاسكندرية باسرها . حتى إذا وقعت الواقعة وبدأ الغزو الانجليزى عام ١٨٨٢ لم يكن أمام الشيخ بد من الهجرة بعد احراق المدينة . . . فارتد إلى موطن أبيه فى رشيد . . وهناك كان من الطبيعى الا يكتفى الرجل بالاذان ولا يستغنى عن أمجاده الغنائية مع التخت فانشأ فرقة موسيقية صغيرة أخذ يجوب بها غرب الدلتا ليحيى كافة الحفلات فى معظم مراكزها وقراها . . ولا تكون عودته للاسكندرية الا وهو كسير القلب محطم الفؤاد بعد أن مات ولده الوحيد ولحقت به زوجته فى نفس العام .

ونقف بكم عند هذه الفواجع التى لحقت بالرجل . . لنعرض نظرية ذائعة عن دور الالم فى حياة الفنان . . فهل حقيقة أن الالم الكبير والحزن هما اللذان يشحذان مواهب الفنان إلى فن كبير ؟ ام أن الفنان بطبعه وحساسيته المفرطة أكثر اهتزازا

أمام الفواجع وعلى مدى ايجابيته فى مواجهتها تتركزه قوة الدفع فى انطلاقة عبقريته .

الحق ان الذى يسوقنا إلى ذلك ما تعرض له سلامة حجازى على مسيرة حياته فيما بعد من صدمات . . كانت كلها بمثابة محك قوى لمعنويته الذاتية وهذه الروح الجسور التى ميزت شخصيته وكفاحه من البداية ولعل من الانصاف المفيد أن نحاول هنا تحليل شخصية الرجل لنجلو أبرز الحقائق عنه وهو انه عاش كما قلنا قبلا . . يرتفع بهامته فوق الكثير من المعوقات والمسالب الخانقة المحيطة بعصره . . وكل ذلك بفضل ذاتيته ومكوناته الشخصية وحدها .

نشأ سلامة حجازى فى بيئة متدينة صالحة أكسبته على مدى العمر سجية تتسم بالنقاء الخلقى والبساطة فلم تغير الظروف من طبعه السمح فى الحدب على أهله ورعايته للعاملين معه . كما لم تؤثر عليه الحياة الفنية التى عاشها ليبتعد بنفسه عن التقوى والصلاح والانحراف فكان دائما مثالا حيا للاستقامة وظاهرة منفردة شاذة بالقياس إلى معاصرية . وقد اثر عليه منبته الشعبى الأصيل فاكسبه إلى جانب ما نسميه عادة عند أولاد البلد . . . « الشهامة والمرؤة والنخوة » . . طلاقة منقطعة النظير فى الغض عن قمية وأهمية المال . وهو ما كان يعرضه دائما لازمات مالية قاصمة . . أحيانا ما كانت تعوق نشاطه الفنى وتؤثر على طموحه .

وقد أكسبته طفولته العانية طاقة كفاحية صخمة ومقدرة ذاتية فذة على مواجهة الخطوب والأحداث برباطة جاش بل وبصدر رحب ربما كان مصدره الأساسى شدة تدينه وأيمانه العميق . وكان لمواهبه العديدة التى نماها هو نفسه بنفسه وبالممارسة العملية الخالصة أكبر الفضل فى قدرته على الاحتفاظ بتوازنه وثقته بكيانه . على أن الشىء الذى يميز شخصية سلامة حجازى فوق هذا كله . . انه كان صاحب ارادة حديدية تواتيه قوية عارمة فى لحظات اليأس . . بقدر ما كان صاحب عقلية متطورة غير جامدة . . قد تحتفى بمعنويات التقاليد ولكنها لا ترهب مظاهر التطور . . وعلى هذا الضوء يمكننا أن نتابع حياته الفنية التى قومتها هذه الصفات .

عاد الشيخ سلامة إلى الاسكندرية بعد عام واحد من وقوع الاحتلال وكان أيامها فى الثلاثين من عمره . . عاد حزينا كسير القلب . . ولكنه عاد ناضجا واسع الخبرة عريض الامال راكز الارادة . . ولم يلبث بعد شهور أن استرد ثباته والف فرقة موسيقية تضم إلى جانب « التخت » المعتاد بما أضيف إليها من الات عزف مستجدة . . مجموعات من المنشدين والمرددين الذين عرفوا فيما بعد « البطانة » وكان طبيعيا بعد شهور قليلة من نشاطه فى الاسكندرية وجولاته السابقة فى الدلتا أن

ذاعت شهرته فى القاهرة سيما فى هذه الفترة بالذات . . وهى الفترة التى تميزت باستقرار الأوضاع السياسية وخمود الروح الوطنية وسيادة مجتمع التطريب والتسلية والترفيه . . والفضل فى ذلك لباشاوات الاقطاع وسلالات الاتراك وتشجيع الاحتلال . . فقد كان الهدف على بداية القرن الجديد خلق جو من الحياة الراضية الناعمة التى تحتاج إليها الطبقات الثرية كمظهر لتثبت وجودها وسيطرتها تماما كما كان العهد ببرجوازية القرن التاسع عشر فى أوربا . . وبدأ أسم سلامة حجازى يلمع جنبا إلى جنب مع أسماء المغنين من أفذاذ الطرب . . عبده الحامولى ومحمد عثمان وإبراهيم القبانى وغيرهم على أن الشىء الذى ميز سلامة حجازى بين هذه الجماعات المرفهة انه كان قد بدأ ينساب من الالحان التقليدية المعروفة ليقوم بتلحين اغانيه الجديدة بنفسه وبالتالى يرددها بصوته المتفوق العذب الذى يجمع فى طياته كافة طبقات الغناء . . فاذا اضفنا إلى ذلك صدق الانفعال باللحن الذى هو صاحبه . . إلى جانب سلامة النطق ووضوح اللفظ لما راعنا ان يزداد عليه الطلب فى القاهرة فيصبح قاسما مشتركا فى معظم الحفلات الكبرى التى يقيمها الوجهاء والاعيان فى العاصمة .

وعلى طول الفترة السابقة التى امضاها الشيخ سلامة منذ طفولته فبدأها قارئا ثم مؤذنا ومنشدا ثم من المغنين الذائعين على التخت كانت تتطور فى البلاد حركة مسرحية واسعة . . بدأها يعقوب صنوع بمسرحه الشعبى الفكاهى فى القاهرة على عهد بناء الخديو اسماعيل لدار الأوبرا وافتتاح قنال السويس . . ثم تقطعت الأسباب بهذا النشاط المسرحى يوم بدأ يدخل ميدان النقد الاجتماعى الساخر الواضح ويلمس البناء السياسى والاوضاع السياسية بوخزاته . . وسكنت حركة المسرح لسنوات بعد اسماعيل حتى جاء النديم على عهد توفيق وبداية الحركة العرابية فحاول أن يستغل المسرح كمنبر سياسى مفتقد يغنيه عن ازجاله وخطبه الجهيرة . . ثم تهيأت الفرصة للمسرح من جديد من انتعاش الثغر بوفود العديد من الجاليات الأجنبية التى زحفت تحتمى وراء الراية البريطانية لاستغلال ثروات البلاد وادى اضطهاد الولاه العثمانين للحركة المسرحية الجديدة الناشئة فى بلاد الشام على يد مارون النقاش وتلاميذه . . إلى ان يفد على الاسكندرية عدد غير قليل منهم . وبدأ سليم النقاش واديب اسحاق بوضع البذور الأولى لما عرف بعد ذلك بالمسرح السكندرى .

وانتزعت الاسكندرية السبق فى مجال المسرح بل وفى مجال الصحافة فكانت هى العاصمة الفعلية لمستحدثات النشاط الفكرى والفنى للبلاد . وتوالى ظهور الفرق

المسرحية على مراحل متعاقبة ولكها كان يديرها ويملكها الفنانون الشوام من بناة المسرح الأول ومنهم بعد سليم النقاش . يوسف الخياط وسليمان القرداحى وأبو خليل القبانى واسكندر فرح . . وقد شغلت هذه الفرق المسرحية الحياة الفنية للبلاد فى اوج سيطرة الاحتلال وفى ظل حماية العائلات الاقطاعية الكبرى التى احتضنتها وكان الطابع الغالب عليها جميعا هو تقديم العروض الغنائية التى تعتمد على الفكاهة والتطريب .

ولذلك لم يكن عجيبا أن تحاول دائما اكتساب كبار المطربين من اساطين الغناء إلى حفلاتها التمثيلية . . . وقد بدأ ذلك بعبده الحامولى الذي تعود أن يغنى فى حفلات فرقة اسكندر فرح . . وكذلك كان من الطبيعى أن تسعى الفرق التمثيلية كمحاولة اكتساب الفنان الجديد الشاب . . وهنا يخطو الشيخ سلامة خطوته الفنية الكبرى إلى مجال المسرح الغنائى فيصبح نجمه الأول ورائده بلا منازع .

وقصة اعتلاء سلامة حجازى إلى خشبات المسرح بعد اعتلائه لشرفات المآذن . . ترتبط كل الارتباط بما حددناه من صفات تحلت بها شخصيته فانه على قدر تدينه كان رجلا مجددا جسورا يعشق فنه إلى حد الجنون والفترة التالية من حياته تكشف عن هذا العشق الذى غرق فيه بمجرد اقتحامه ميدان المسرح وهو عشق بلغ حد الاستشهاد لقد بدأها أولا برفض كافة العروض . . ثم فجأة نراه يوقع عقدا بالغناء فى حفلات فرقة يوسف الخياط . . وكان ذلك عام ١٨٨٤ فلماذا أقدم على ذلك ؟ الواقع انه لم يكن من سبيل أمام الشيخ سلامة للمحافظة على مكانته بين كبار المطربيين من منافسيه إلا ان يسلك نفس طريقهم لكن الأكثر من ذلك أن الشيخ كان قد اكتشف فى نفسه فجأة ولعا زائدا بالتمثيل وهو ولع استمر يلازمه حتى نهاية عمره ودفعه إلى ترك الاسكندرية والارتحال إلى القاهرة ليوقف على هذا الفن الجديد جهده وصحته ومواهبه الميهأة له . ذلك أن الشيخ لم يكن مجرد منشد أو مطرب وانما تركزت مواهبه من البداية فى القدرة على التلحين . . وتجمعت مع مقدرته الصوتية الفريدة وهوايته المستحدثة للتمثيل لتطوق سنوات عمره الباقية برسالة أكثر شمولا واعم فائدة من الغناء المنفرد وسط أفراد التخت .

كان سلامة حجازى صيدا ثمينا للفرق المسرحية القائمة وسرعان ما تكالبت جميعها على التعاقد معه لبطولات مسرحياتها . . فبعد العمل مع الخياط تعاقد على الأشتراك فى فرقة القرداحى ليقضى فيها أربعة أعوام كاملة . . . كانت كافية لتكشف له موسما بعد آخر عن روعة وجمال ورحابة هذا الفن الجديد الذى وقع اسيرا فى

غرامه . ومن بعدها لازمته الرغبة الدائمة والاصرار المتصل لأن يتفوق بطاقاته كممثل بل وببراعته كمخرج ليكمل حلقة مواهبه في التلحين والغناء وسرعان ما غير الشيخ زيه وارتدى الزى الأفرنجي . . وكان ذلك حبا في فن التمثيل والغناء . كانت خطوة كبيرة ولكنها لا تستبعد بدورها على جسارة الشيخ وقد مكنته من أن يزداد ايغالا في عشق المسرح حتى انتهى به الحال إلى عدة محاولات قام بها وحده لتكوين فرقة تمثيلية غنائية وهو مالم يستطع تحقيقه إلا متأخرا وبعد فترة طويلة قضاها يعمل في فرقة اسكندر فرح على مسرحها بالعتبة الخضراء في ارض شريف . وهو مسرح تبرع ببنائه فوق أرضه خصيصا للفرقة على شريف باشا رئيس مجلس شورى القوانين وكان من الهواة المغرمين بفن التمثيل والغناء على ما درج عليه رجالات العصر واعيانه الكبار .

لكن لعل أبرز ما يلفت النظر في هذه المرحلة أن سلامة حجازى لم يكتف بالوقوف عند تلحين الأغنيات التمثيلية والأناشيد المسرحية . وانما بدأ يبتكر ويبدع للأفانين الجديدة المناسبة لهذا الفن الذى وقع أسيرا في هواه فيدعم المسرحيات التى.كان يشترك فيها بالحان لمقطوعات من المارشات والسلامات في بداية وختام كل مسرحية . ثم اتبع ذلك بتقديم منولوجات انتقادية كان يغنيها بين الفصول وكان هذا تطويرا غير مسبوق في عالم الغناء المسرحى حينذاك . . كما كان من مظاهر ثبات مكانته انه كان يطبع المسرحيات بقصائده الشهيرة . . .

« إذا كنت في الجيش ادعى صاحب العلم » و « أجواليت ما هذا السكوت » فيستولى على زمام وشغف جمهوره حتى قبل مشاهدة العرض التمثيلى .

امضى الشيخ سلامة قرابة خمسة عشر عاما متصلة يعمل مع فرقة اسكندر فرح استطاع خلالها ان يرتفع بمستوى المسرحية الغنائية . . فالى جانب البراعة في اللحن والغناء بدأ المسرح على يد سلامة حجازى يهتم بالاخراج المبتكر . . وكان هو نفسه شديد الوله بالغ الحرص على ان تظهر مسرحياته في أفخم وأروع الاساليب والديكورات والملابس إلى درجة التضحية أحيانا بكل أرباح الفرقة للصرف على معدات اخراج كل مسرحية جديدة ثم خطا بالمسرح خطوة أخرى حين راح يستعين برجالات الأدب والشعراء المعروفين لمده بمؤلفاتهم ومعرباتهم فكان له الفضل في اجتذاب الكثيرين منهم للكتابة المسرحية . . . كاسماعيل عاصم ونجيب الحداد وطانيوس عبده والياس فياض وفرح انطون . . وكانت النتيجة ان كسب مسرحه عشرات المسرحيات الجديدة غير المذكورة في مستواها وقيمتها . . ومنها انيس

الجليس وصدق الوفاء وغانية الأندلس وابن الشعب وشهداء الغرام وهملت والبخلاء وصلاح الدين الأيوبى .

وفى أوائل عام ١٩٠٥ نشب خلاف حاد بينه وبين أسكندر فرح حول كثير من المسائل كان أهمها أن شخصية الشيخ اخذت تطغى على كل أعمال الفرقة الفنية والإدارية وكان الشيخ بالفعل قد أصبح يسيطر على كل شىء إلى حد قيامه بتوزيع الادوار وأخراج المسرحيات . . ولذلك سرعان ما أنفضت الشركة وانفصل سلامة حجازى ليستقل بفرقته الخاصة . . . وبعد أسابيع فتح مسرحه الجديد بصالة (سانتى) فى الجهة القبلية من حديقة الازبكية فاعاد تقديم مسرحية صلاح الدين ثم تلاها (باليتمتين) وشهداء الغرام أو روميو وجوليت) وكلاهما من أمجاده البارزة . . وبالنسبة لما لاقاه مسرحه من نجاح قام بجولات فى كافة انحاء البلاد لينتقل بعد عام إلى مسرح أكبر اتساعا فى (صالة فردى) بشارع الباب البحرى وأطلق على فرقته الجديدة (دار التمثيل العربى) وهى التى احتلها أولاد عكاشة فيما بعد . . وهنا أيضا نراه يستعين بطائفة حديثة من الكتاب لمده بمؤلفاتهم . . منهم عباس علام ومحمد تيمور ومحمد السباعى وإبراهيم رمزى . . وكان يمنحهم أجورا سخية وحق الاداء العلنى فينال المؤلف فوق أجره وهو ١٥٠ جنيها ذهبيا حق الاداء العلنى لدخل أكثر من ليلة كاملة نظير تمثيل مسرحيته . . وفى هذه الفترة قدم الكثير من الروائع منها السيد (لراسين) واجا ممنون والمقامر والظلوم وهملت . .

ونتيجة لهذا أوغل سلامة حجازى بمسرحه لطرق موضوعات كثيرة متحررة كما تطرق بحماس لاخراج بعض المسرحيات التى تصور مشاهد الجنة والنار وعذاب الجحيم . . وكان يحرص على أن يعطى لاخراجه الصورة الواقعية الكاملة فوق خشبة المسرح . . كمناظر طلوع الشمس وهبوب الرياح ونزول المطر وشبوب النيران . . وهنا استغل نفر من المشايخ المتزمتين تلك الواقعية لاتهامه بمحاولة خلق المقدسات الطبيعية التى لا تخضع إلا لارادة الخالق وحده . . . اتهام مثير رجموه بالالحاد وحاولوا إثارة الرأى العام ضده فيما يقدمه من مشاهد وثنية فى مسرحيتى (تليماك) (وعظة الملوك) وكانت الصدمة قاسية على رجل متدين مثله . . ولكنه صمد لها بثبات عقيدته ومؤازرة الكتاب والمحررين الصحفيين . . وخمدت الفتنة ليخرج منها الشيخ بمسرحه أشد قوة وأوفر نجاحا . . وليتابع نهجه فى محاولة وضع تقاليد جديدة لهذه العباد التى انغمر فيها عبادة الفن المسرحى . . وكان أن حرم على الباعة الوقوف داخل المسرح وحرم على المشاهدين الحركة أو تناول أى شىء

أثناء التمثيل وقصر ليالى العرض على ثلاث ليال فى الأسبوع ليعطى الممثلين المهلة الكافية لاداء أدوارهم وهم أكثر راحة واستعدادا وتهيؤا لاشباع الجمهور وكان شيئا جديدا لم يعرفه المسرح من قبل وساعده على ذلك وفرة أرباحه التى لم يكن يضن بها على أحد حوله .

وظل مسرح الشيخ سلامة فى صعود وصمود ليكتسب شهرته خارج حدود مصر والشام . . وليرحل إلى بيروت ودمشق وغيرها من العواصم كل صيف . . حتى كان صيف ١٩٠٩ وهو فى دمشق فاصيب الفالج وعاد مع الشتاء ليقبع فى داره ببركة الفيل حزينا يائسا وليلازم الفراش عامين كاملين فاذا به يأتى على كل ما ادخره من مكاسب طائلة وليس بين يديه ثمن القوت الضرورى . كانت ضربية قاصمة كشفت للشيخ ولأول مرة جحود كل من حوله إلا القلة الوفية من أفراد فرقته وصغار الممثلين الذين رفضوا حل الفرقة وقاموا حوله يعاونونه وهو يجاهد المرض بارادة من حديد ليعود للغناء والتمثيل . وكان الشيخ يفضل أن يموت جائعا عن ان يطلب معونة أو مساعدة من أحد وبالفعل رفض الكثير مما قدم إليه رغم حاجته الماسة إليه .

ولهذا نراه يهب من فراش المرض عنوة واقتدارا عام ١٩١١ ليحاول استئناف نشاطه ونشاط فرقته المعطلة . . وظهر على المسرح بالفعل وهو يتساند على عصاه لينشد ابدع الحانه بين فصول المسرحيات . . وكان يبكى وهو يغنى والجمهور كله يشاركه البكاء . . وفى نهاية الليلة التالية لم يقو على الثبات فأصيب بنكسة نحصه بعدها الأطباء بالسفر إلى الشام للاستشفاء فرحل بفرقته إلى هناك معتمدا على شهرته ومكانته والفرقة التى تحمل اسم (جوقة الشيخ سلامة حجازى) .

عاد الشيخ بعد ذلك من الشام وقد استرد بعض صحته . . ولكنه عاد بارادة حديدية لا تلين . . وشرع مباشرة فى محاولة احياء مجد (الجوقة) يشاركه فى ذلك عبد الله عكاشة يقول الدكتور يوسف نجم أن الفرقة الأخيرة ظلت عامين كاملين تحاول استعادة أمجاد صاحبها فلا تجد لنفسها مسرحا ثابتا تستقر فيه بعروضها وكان الشيخ يكتفى بتمثيل الأدوار التى تطاوعه عليها صحته . . ثم ضعف نشاطه فارتحل لتجديد الهواء فى رحلة إلى تونس والمغرب وعاد مع ختام ١٩١٤ ليتفق مع جورج أبيض على توحيد جهودهما فى فرقة واحدة باسم (أبيض وحجازى) لكن الشركة الجديدة سرعان ما تنافرت وعاد كل منهما ليستقل بجوقته .

والواقع أن العهد كان قد تغير كثيرا بالمسرح عن ذى قبل . . فعلى بداية أقبال الحرب العالمية الأولى كانت الطبقة الوسطى قد بدأت تأخذ مكانها كطبقة جديدة

نامية ومتطورة من باطن الوضع الاقطاعى السابق . . ولم يعد من السهل أن تركن الطبقة الجديدة الوليدة إلى القيم والمفاهيم بل واساليب الاداء التمثيلى واللغوى وروح الالحان والأغانى السابقة . . فاذا اضفنا إلى ذلك قيام الحرب وفرض الحماية ومحاولة الاحتلال تشجيع الوان جديدة من الوان التسلية . . لما راعنا أن تسود روح الكوميديا الصارخة والأغانى الساخرة الخليعة جنبا إلى جنب مع ما يختمر من تطلعات وطنية واتجاهات أكثر تحررا من التقليديات السائدة .

لقد كانت تلك هى الفترة التى مهدت لظهور عزيز عيد والريحانى وعبد الرحمن رشدى ومحمد تيمور . . ثم سيد درويش ويوسف وهبى وفاطمة رشدى والكسار وروز اليوسف وزكى طليمات فيما بعد . . من أجل ذلك كان مسرح جورج أبيض التراجيدى يعانى نفس ما يعانيه مسرح سلامة حجازى الغنائى من أفول حتمى .

ومن أجل هذا فشلت جهود الرجل على طول الفترة التى عاشها بعد ذلك . . . حتى وفاته عام ١٩١٧ بان يسترد مكانته المتفردة فى عالم الغناء التمثيلى . . وكانت مأساة وفاته فى حد ذاتها خاتمة أليمة . . فقد دهمه الموت وهو يجاهد عامين لاستعادة مجد فرقته . . وقضى نحبه فى داخل حجرة باحد البنسيونات وحيدا بلا أهل وبلا أعوان أو تلاميذ الا بعض من صادف وجودهم من أصدقائه . . ومات الرجل معدما فقيرا فلم يحظ بالتكريم الواجب لواضع اللبنات الأولى للمسرح الغنائى وصاحب أكبر رصيد من الالحان الدرامية قبل سيد درويش .



محمد تيمور

١٨٩٢ - ١٩٢١

المادة التى تحت يدى عن المرحوم محمد تيمور ادت بى أثر قراءات متصلة ومتقطعة أن ابدأ الكتابة عنه بطرح سؤال لابد أن يمر بخاطر كل م اراد التعرف على شخصيته . . فماذا كان يمكن ان يقدمه هذا الشاب إذا قدر له أن يعيش أكثر من التسعة والعشرين ربيعا التى عاشها ؟ ؟ لقد سطع كما سطع معاصره سيد درويش كنجم خاطف فى حياتنا الادبية والفنية ثم سرعان ما أختفى وهى فى أشد الحاجة إلى وجوده .

فاذا اردنا الاحاطة بشخصية بطلنا فلا يجب أن نركز على العوامل الظاهرة التى ساعدت على تكوينه . . ومن ذلك أنه نشأ فى بيت ادب وعلم . .

عشق أهله الفن في تفان يداني تجرد الرهبان . . فكان ان امدوا تاريخنا الادبي والفني باربعة من افذاده . . على راسهم الوالد العلامة أحمد تيمور . . ثم عائشة التيمورية ومحمود تيمور . . والفتى الخاطف البريق الذى قدم لكم صورة عن حياته وشخصيته ونضاله . . ثم أننا لا يجب أن نركن طويلا إلى الطبيعة الغالبة على شخصية بطلنا ومزاجه الادبي وميوله الفنية التي ركبت من البداية في تكوينه الذاتي فامدته بالموهبة الساطعة . . لانها موهبة اتيح لها أن تتبلور وتنمو نموا خاطفا وسريعا في اصلح بيئة قابلة لنمائها وقادرة على تفريخها . . فهناك إلى جانب النشاة والبيئة والعوامل الذاتية والموهبة الفردية . هناك ما يمكن ان نسميه الفلك الواسع الذى يدور فيه النجم . . وهو ما تحدده ظروف العصر ودواعيه ومؤثراته . . فاذا راعينا الفترة القصيرة من العمر التي عاشها محمد تيمور وعلى ضوء عصره وبالتحديد الجيل الذى ظهر فيه من أجيال هذا العصر ، لامكننا أن ندرك ونقدر الابعاد الحقيقية للدور الذى لعبه .

ولد محمد تيمور عام ١٨٨٢ أى على ختام القرن التاسع عشر . . ومات عام ١٩٢١ قبل أن ينتهى الربيع الأول من القرن العشرين . . حقبة قصيرة حقا في عمر أى انسان وكان يمكن ألا تعد شيئا مذكورا في عمر أمة وفي تاريخ وطن . . لولا انها كانت بالفعل من أغنى الحقب في تاريخنا السياسى الوطنى . . وفي تطورنا الحضارى . . وفي نهوضنا الاجتماعي وفي تقدمنا الثقافي . . فقد صادف ان توسطت تلك الحقبة التي عاشها الفتى . توسطت بين ثورتينا الكبيرتين . . الثورة العرابية . . وثورة ١٩١٩ . . ومرقت بأرقة بينهما الوثبة الوطنية الملتهبة التي أشعلها كالبرق العاصف شهيد فتى مثله . . هو مصطفى كامل . . وبذلك يكون قد قطع صباه على وقع ارتطامه رد الفعل الكبرى لشعب مصر في مواجهة الاحتلال كصدى للثورة العرابية . . وقطع شبابه في ظل الثورة الصارخة لحركة مصطفى كامل . . ثم ختمت حياته القصيرة الخاطفة على وقع الأحداث التي لازمت ثورة ١٩ وتلتها . .

هذا هو الاطار السياسى الذى ظهر فيه تيمور . . وهو اطار شاسع داخلته تطورات ضخمة في البناء الاجتماعي والتكوين الفكرى والثقافي . . تركت أكبر الأثار على كفاحه ونضاله . . ولعل ابرز هذه الأثار الشعور الجارف بما ولدته المرحلة من محاولات سياسية ضخمة لخلق كيان وطني مستقل . . وقد تركز هذا الشعور في وجدان الفتى من صباه وبما له من امتدادات حضارية . . وبرز في النهاية على صورة تتفق ومتجهه الادبي والاجتماعي فيما كان يسميه دائما الشخصية المصرية . . وهو لا يعنى بذلك مجرد الفرد الوطني المؤمن بمصريته والعارف لقيمتها وحقيقتها . . وانما يروم أبعد من هذا . . الكيان الذاتي للأفراد أيضا . . وهذا يدل على انه قد وضع يده من البداية

على ما يمكن أن يسميه مفتاح السر فى تطور عصره . . لان أبرز ما تميزت به المرحلة الانتقالية التى عاش فى جوف سنواتها . . محاولة البحث عن الذات فى مضمونها الوطنى العام . . وفى مضمونها الفردى الذاتى الخاص أيضا . . وهذا بالفعل هو التيار الفكرى الراكز وراء قيام ثورة ١٩١٩ ثم ما صاحبها وسبقها من روح رومانتيكية غامرة . . تميزت بها هبة مصطفى كامل الوطنية . . مثلما كانت وراء التطورات الملازمة لثورة ١٩١٩ .

● محمد تيمــور

● بريشة الفنان رؤوف عبده

غير أن محمد تيمور بوعيه النفاذ وروحه الفنية الواثبة ومكوناته الثقافية ذاتها لم يكن صاحب نظرة مغرقة فى الرومانتيكية بقدر ما كان صاحب نظرة اجتماعية . . تماما مثلما كان سيد درويش صاحب نظرة شعبية ظاهرة . . ولهذا اتجه الفتى من البداية إلى ما يمكن ان نسميه المنطلق الاجتماعى للتعبير الادبى والفنى ، نلمس ذلك فى شعره وقصصه . . ثم نراه مجسدا واضحا فى مسرحياته . . .

نعود بعد ذلك إلى نشأة فتانا . . ومنها نستطيع ان نتحسس غير قليل من الخطوط الأساسية التى تبلورت حولها مكوناته . . ولا حاجة بنا إلى حديث مستفيض عن العائلة التيمورية ومسلكها بين العائلات الاورستقراطية الأخرى . . فقد سلك بها عميدها العلامة أحمد تيمور مسلكا شاذا لم يكن له شبيه الا فى حالات نادرة . عاشت العائلة بفتيانها فى بيت الجد الأكبر بدرب سعادة فى أعماق القاهرة القديمة . . وشب أبناء تيمور فى أحضان بيئة ثقافية داخل البيت وفى اطار بيئة شعبية خالصة من خارجه . . وكان لذلك أثره على بنيانهم الفنى . . حسيا وفكريا . . لقد خرجوا من صلب الاقطاع ولكن ثقافتهم نأت بهم بعيدا عن جموده وتسلطه . . ولانهم جاوروا الطوائف الشعبية واندمجوا بين أفرادها فقد انصهرت الروح الفنية التى كانت تلفهم جميعا فى بوتقة الاصالة . .

وتشربت لباب الانسانية الكامنة من أقوم ينابيعها . . فلما انتقلت العائلة من درب سعادة إلى عين شمس . . كان من حسن الحظ أن تلتقى بجموع شعبية أخرى

غير جموع المدينة . . هم جموع الفلاحين فى القرى . . وبهذا أشعت الارضية الشعبية ونفذت إلى السطح من اهتمامهم وشغفهم . . وسرعان ما أرتبطوا بها . . يسطع ذلك من البداية فى شعر الصبى وقصصه . . ثم يظهر بعدها فى معالجاته للمسرح . . وطبيعى أن يشع نفس الضوء الثاقب فيما قدمه شقيقه استاذنا محمود تيمور . . فقد كان له فضل الريادة المتصلة للقصة القصيرة بمنابتها الشعبية وكلفها الواقعى بحياة الجموع العانية من المواطنين .

ولنتصور السنين الباكرة من حياة النابغة التيمورى الفتى . . كانت سنوات ختام القرن التاسع عشر . . السنوات التى استظلت بالركود المصاحب للهزيمة العرابية وسيطرة الاحتلال . . سنوات كرومر العاتية . لكن آل تيمور كانوا يعيشون فى رحاب بيتهم العتيد المنيف بعيدا عن كل هذه الفواجع . . كانوا فى شغل عن السياسة واحداثها بالادب وفنونه . . واللغة وبدائعها . والشعر وبحوره . . وماتت الأم والفتى طفل ولم يتزوج الوالد بعدها . . وانما عاش على كتبه ودراساته ورعاية أولاده . . ولم يكن عجيبا الا يلحقهم مع أبناء البيوتات فى المدارس الخاصة ولا أن يبعث بهم إلى الكتاتيب مع أبناء العوام بالطبع ولهذا استجلب لهم من يعلمهم من المشايخ فى البيت العتيد . . وان ينصب فى تعليمهم له على اشباعهم بحب اللغة العربية التى عشقها وبالذات فى تراثها العريض من الشعر . . وهكذا درج الصبى تيمور على حفظ الشعر إلى حد محاولة كتابته . . فلما اتم الدراسة الابتدائية ودخل المدرسة الخديوية الثانوية . . انضم إلى فريق الكرة ليتميز على أفراده بما كان ينظمه من قصائد وأشعار يقلد بها الفحول الذين تربى على معلقاتهم من أساطين الشعراء . . وكانت البادرة الأولى لهوايته الادبية على الصورة التى اتاحتها له ظروف البيئة أن أولع بالكتابة الصحفية إلى جانب نظم الشعر . . وظهرت باكورة ذلك فى تفوقه على اقرانه فى كتابة الموضوعات الانشائية المدرسية . . الأمر الذى دفع به إلى الخروج للمجال العام وتحرير المقالات الصحفية . . ومنها العديد الذى نشر فى جريدة المؤيد عن معنى الوطنية . . وقد كانت الوطنية ترتبط عنده دائما باصلاح حال البيئة وترقية أهلها عن طريق الثقافة والمعرفة . . وركز رسالته فى ذلك بنقد الاوضاع الاجتماعية ومظاهر التخلف التى كان يجاهد للكشف عنها بالكتابة الادبية ، وهنا تلزمنا وقفة لتحديد المسارب التى تفتحت عليها مواهبه . . وهى الشىء الذى ميزه وأعطى لموهبته الغضة فضل السبق الباكر فى مجال شحيح نادر من مجالات تفتحنا الادبى وهو مجال التأليف المسرحى . . لقد مال الفتى للشعر فنظم القصائد على نهج القدامى وهو بعد فى عز صباه . . ثم هام بالكتابة الصحفية فأصدر مجلة كان يطبعها على يده « بالبالوظة » ويوزعها على أهله وأقرانه وهو لم يتخط السنوات

الأولى من شبابه . . لكنه ما كاد يخطو إلى أول أطوار نضجه حتى عشق المسرح . . وطبيعى أن يكون من أول مظاهر عشقه لهذا الفن . . التمثيل نفسه كاداء . . وفى هذا السبيل لم يعفه صباه من محاولات أولية . . فكون فرقة فى البيت من أشقائه واقرانه لتقليد الروايات التمثيلية الشائعة . . ثم إذا به يهوى التمثيل فى حد ذاته فيربط بينه وبين التقليد واهتزاز الشعر الذى كان يكتبه . . والخطب المدرسية التى كان يلقيها . . ووجد لكل ذلك متنفسا فى الأندية والمحافل التى اعانته مكانة عائلته الاجتماعية فى التردد عليها . . غير أن هواية الفتى للتمثيل لم تقف به عند حد الاداء والتقليد . . بل تخطته إلى الشغف الكامل بهذا الفن ومحاولة معرفة أصوله واسراره . . ومن ثم نبتت عنده البذرة القوية التى جعلته على رأس كتاب عصره فى مجال النقد والتأليف المسرحى ولكى ندرك قيمة هذه الرواسب التى تبلورت حولها مواهب محمد تيمور لتجعل منه فى سنوات قليلة كاتبا ثم ناقدا مسرحيا متميزا . . يلزمنا أولا أن نلم بطبيعة الاطار الادبى والفنى الذى كان يحيط به فى هذه الفترة . . لقد اتسمت بداية القرن بالكثير من التعبيرات رغم الركود السياسى التام المسيطر والذى اعقب وقوع الاحتلال . . وادى هذا الركود إلى انصراف الطبقات لمجالات أخرى غير المجال السياسى . . ففى الجانب الاقتصادى توطدت دعائم الاقطاع الذى كان يستظل بحماية الاحتلال . . وراحت طبقة الاقطاعيين تتابع ما أسبغه عليها عهد الخديو اسماعيل من مظاهر التعلق بتقليد أوربا ومحاكاة الغرب وكانت العودة إلى جو الحفلات للعائلات الكبرى واحتضان سادتها للمطربين والمغنين كعبده الحامولى والمظ . . ثم سلامة حجازى وبدأت البرجوازية الجديدة تزحف فى نماء مطرد لتجد لها فى المسرح خير معبر عما تفتقد من عدة ثقافية . . فانتعش المسرح السكندرى الذى كان يعج بالفنانين المهاجرين الشوام . . كالقبانى والقرداحى واسكندر فرح وغيرهم . . ثم صاحب ذلك انتعاشة الاسكندرية ذاتها كعاصمة فعلية للتجارة تتدفق عليها الجاليات الأجنبية الوافدة فى ذيل الاحتلال لنهب ثروات البلاد من القطن وتحويلها مستقبلا إلى مزرعة لمصانع مانشستر وليفربول . وكان من نتيجة ذلك الازدهار الملحوظ الذى عبر عنه صدور معظم الجرائد وانحصار أغلب النشاط الحضارى (الميتروبوليتانى) فى الاسكندرية . . وشهد مطلع القرن معاودة القاهرة لاحتلال مكانتها واخذ راية الاولوية من الثغر ثانية . . خاصة بعد بروز الحركة الوطنية الجديدة وفى بداية انبثاقها على يد مصطفى كامل . . وكسبت القاهرة من الاسكندرية كل محافلها الفنية السابقة مضافا إليها المدارس العليا

وأنديتها . . وانتقلت البلابل المغردة من الشاطىء إلى الداخل . . فشد سلامة حجازى الرحال إلى مسرحه القاهرى . . وتحول الادباء عن كتابة الشعر الخاص إلى ترجمة بدائع الشعر الأوربى من الدراما عند شكسبير على يد خليل مطران وغيره . وقام عثمان جلال من تلامذة مدرسة التنوير والتقدم التى خلفها رفاعة الطهطاوى بتعريب أبرز أعمال موليير . . ثم توج ذلك كله بعودة جورج أبيض من بعثته التمثيلية إلى فرنسا .

كانت دائرة الاهتمام بالمسرح ووجوده تتسع ، ومحمد تيمور يجتاز أول مدارك شبابه لا عجب إذا رأيناه يكلف بهذا الفن فيهجر الشعر إلى المسرح . . ثم لا عجب ان تصادف سفرته إلى أوربا لاستكمال تعليمه هذا التهيؤ الباكر لتشرب الفن الجديد . . ورحل الفتى الصغير بارشاد والده ليتعلم الطب فى برلين . . لكن ميوله الادبية غلبته على امره . . فانتقل إلى باريس ليدرس الحقوق ويحصل على الشهادة المرجوة فى القانون . .

لكن بأى روح سافر الفتى ؟ وما هى المكونات التى كانت مترسبة فى كيانه وهو مقبل على حضارة جديدة مغايرة وبيئة أخرى مخالفة ؟ ان هذه المواجهة كانت ولا تزال تحدد دور المثقف المصرى الذى تتاح له فرص الالتقاء ببيئات والارتطام بثقافات أكثر تعقيدا وتقدما : ومن الطريف ان نلاحظ فى هذا المجال أن تيمور الصغير سافر وهو يكاد أن يكون جاهز التكوين من ناحية تشربه لروح البيئة المصرية وتعلقه بحياة ناسها وتطلعه إلى الخلاص بهم من الجمود الموروث . . وقد كان لذلك أثره الكبير من البداية . . وكما فعل سابقه رفاعة الطهطاوى وكما كان لاحقه توفيق الحكيم فقد قامت حياة فتانا فى فرنسا على أساس من الجدية الخالصة . . صحيح انه بهر بما شاهد ولمس ولكن انبهاره كان ايجابيا لم يقف به عند حد التسبيح بما فى الحضارة الأوربية من مظاهر التقدم انما أيقظت الحياة الثقافية فى باريس ما كان كامنا فى نفسه من رغبات وآمال واتجاهات . . حالت حياة بيئته الثقافية عن ان تطلقها من عقالها . . أبرز ما كان ذلك فى نظرته إلى الأدب والفن وهى شغل حياته الشاغل . . فقد لمس بوعى نفاذ جوهر القصور فى أدب عصره وهو انه أدب تقليدى اتباعى جامد . . أدب زخارف ومحسنات لفظية يفتقر إلى الابداع المتجدد الذى تتيحه الألوان الادبية المبتكرة كالقصة والرواية المسرحية . . وربما كان هذا هو سبب عجزه عن تصوير البيئة المصرية على حقيقتها وابراز الشخصية المصرية على أصلها . . وكان هذا بالفعل هو مصدر عبقرية تيمور فيما انتج من أعمال قليلة لم يتح له العمر أن يتمها خاصة فى مجال المسرح . . فقد نفذت بصيرة الفتى من الوهلة

الأولى إلى هذه الحقيقة الجوهرية التى قام عليها تطورنا الأدبى بعدها ، على انه ربما كان أكثر ما كسبه تيمور من سفرته هذه . . ازدياد شغفه بالمسرح وكما يقول أستاذنا محمود تيمور . . ازداد شغفه للمسرح وميله إليه بعد أن رأى مكانة ذلك الفن فى فرنسا ومقام القائمين به ممثلين كانوا أو مؤلفين « ولهذا قضى الثلاث السنوات التى

عاشها فى باريس فلم ينتج الا بعض الأشعار التى يترنم فيها بحبه لمصر وشوقه إلى أهلها وحنينه إلى معاودة العيش فيها ، وغير هذا فقد أنصرف بكليته إلى المطالعة الأدبية ومشاهدة التمثيل . . وكان أمتع قصة فى حياته ما أسماه بالحادثة الغرامية التى وقعت له فى باريس وسجلها بعد ذلك فى « مذكرات باريس » وهى قصة حب عادية مما يقع دائما بين أى فتى وفتاة لم يتجاوزا العشرين ربيعا . . كتبها على شكل قصة بعنوان « هو وهى » كانت القصة لم تتم . . على الورق أو فى الواقع . . ولكنها تركت أثر كبيرا على نفسه ومن الجانب الوحيد الذى كان لابد أن يتأثر به مثله . . وهو جانب المدلول الفنى والفكرى لمكانة المرأة فى المجتمع الأوربى . . يقول « وازنت بين نسائنا ونسائهم . . استغفر الله بين رجالنا ونسائهم فرأيت الفرق كبيرا . . نساء أوربا يناقشن الرجل فى الأدب والسياسة والفلسفة ، ورجال مصر يناقشون فى أنواع الاوتومبيلات وجمال الملابس . . وإذا القت بهم الصدفة أمام موضوع جدى مزجوه (بالطرائف) المصرية المستملحة التى تطير الموضوع فى جوف الفضاء ، وبهذا الفهم النفاذ عاد تيمور إلى مصر بعد سنوات ثلاث فى فرنسا . . وكان ذلك فى الصيف السابق مباشرة لقيام الحرب العالمية الأولى عام ١٩١٤ كانت ضربة غير متوقعة أن يحرم الفتى من متابعة دراسته أو على الأحرى هوايته الأدبية والفنية وفى أصلح البيئات . . واجتاحه الياس المرير بعد أن طالت الحرب . يقول الأستاذ عباس خضر فى كتابه عنه . « داخله الحزن على ضياع مستقبله وظلت هذه الفكرة مسيطرة عليه حتى آخر حياته . . لكنه لم يكن يعلم انه يبنى لنفسه مستقبلا زاهرا بتاليفه ، ذلك أن حصوله على شهادة الحقوق من فرنسا لم تكن بالفعل لتكفل له ما حققه من مجد أدبى فى الفترة القليلة من العمر التى عاشها بعد ذلك . . لقد فكر فى أول الأمر أن يشتغل بالزراعة وفلاحة ضياع العائلة ولكنه سرعان ما عدل عن اتمام التعليم فى مدرسة الزراعة العليا . . واتاحت له مكانة العائلة وثراؤها فرصة التفرغ التام لاشباع هوايته . . وفى خلال سبع سنوات . . وهى السنوات الزاهرة حقا فى حياته استطاع الفتى تيمور أن يقدم الكثير ويساهم بالكثير فى التطور بمعظم الألوان الادبية والفنية السائدة فى عصره .

كان الفتى قد تخطى العشرين ولا يزال يتأجج فى صدره حب الشعر . . فنظم الكثير من القصائد لينشرها فى مجلة « السفور » ثم أتم شغل فراغه بالانضمام إلى جمعية أنصار التمثيل التى اسسها مجموعة من المثقفين هواة المسرح ومنهم المحامى اسماعيل وهبى والفنان محمد عبد القدوس وعبد الرحمن رشدى وغيرهم ، وكانت الجمعية تستعد أيامها لاخراج مسرحية « الممثل دافيد جارك » فشارك فى اخراجها ولم يمثل فيها حتى لا يغضب والده . . فلما عاودته هواية التمثيل القديمة . . راح يشبعها فيما هو أخف . . فلجأ إلى تأليف المنولوجات والقائها على خشبة المسرح فى حفلات السمر بالأندية الرياضية والاجتماعية . . ومنها النادى الأهلى ونادى الموسيقى ونادى موظفى الحكومة . . ثم واتته الجرأة للخروج على تقاليد العائلة حين اعتلى خشبة المسرح ممثلا . . فقام بدور البطولة المسرحية « عزة بنت الخليفة » من تأليف ابراهيم رمزى . . وقدمتها الجمعية . . ونظرا للنجاح الذى صادفه . . تلاها بتمثيل دور جديد فى مسرحية « العرائيس » لبير وولف ، وهى من تعريب رئيس الجمعية اسماعيل وهبى ، من بعدها كان يفكر فى خدمة المسرح عن طريق امتهان التمثيل واشتد ضغط والده بالممانعة . . فلما اعيد تمثيل « عزة بنت الخليفة » على مسرح الأوبرا وكان هو بطلها بلا منازع . . فوجئ الفتى بعد الحفل الذى حضره السلطان حسين كامل باختيار السلطان له امينا فى القصر السلطانى . . وكان معنى ذلك بكل بساطة أن يقلع عن التمثيل ، لكن هذه المكانة الرسمية الجديدة لم تقيده طويلا . . فسرعان ما تغير السلطان حسين بالسلطان فؤاد . . واستقال تيمور من القصر ليتابع هوايته الأدبية . . وفى تلك الفترة نراه يعاود نشر انتاجه فى مجلة السفور على شكل مجموعة متصلة من القصص القصيرة تحت عنوان واحد « ما تراه العيون » وهذه المجموعة كما يدل عليه عنوانها . . أول بوادر الواقعية فى الأدب القصصى وهى تعطى لمحمد تيمور فضل الريادة فى هذا اللون . . إذا تعتبر اللبنات الأولى للقصة القصيرة بمفهومها الحديث ومضمونها الواقعى الانسانى . . رغم ان المنفلوطى والمويلحى لهما جهود سابقة فى ذلك . . لأن قصص تيمور كانت انضج بكثير وتقوم على السخرية من تفاهة الحياة التى يعيشها أبناء الذوات ومفاسدهم إلى الكشف عن القيم الانسانية فى حياة الفقراء والفلاحين فى تعاطف ممزوج بالاشفاق . وقد تأثر فيها برومانتيكية موباسان فى أسلوب الكتابة . . ولكنه كان يستقى موضوعها دائما من البيئة المصرية الواقعية الخالصة . . ولم يتقيد وربما لأول مرة . . بالمحسنات اللفظية والعبارات الرنانة . . وانما كان ينطلق فى كتابته إلى أبعد الاستعمالات اللغوية الممكنة . .

ومن ذلك أدخال العبارات العامية بل والعبارات الأجنبية مادامت تخدم سياق السرد ومذاق الحوار وواقعيته ، على أن الكتابة الأدبية لم تكن بكافية لترضى طموحه أو تبعد به عن معشوقه الأصلى وهو المسرح . . ولذلك نراه يعود إلى القاء المنولوجات . . ثم يحاول ثانية الأشتراك فى تمثيل المسرحيات . . حتى إذا تزوج من أحدى قريباته . . جاءت تقاليد العائلة لتبعده ثانية عن التمثيل . .

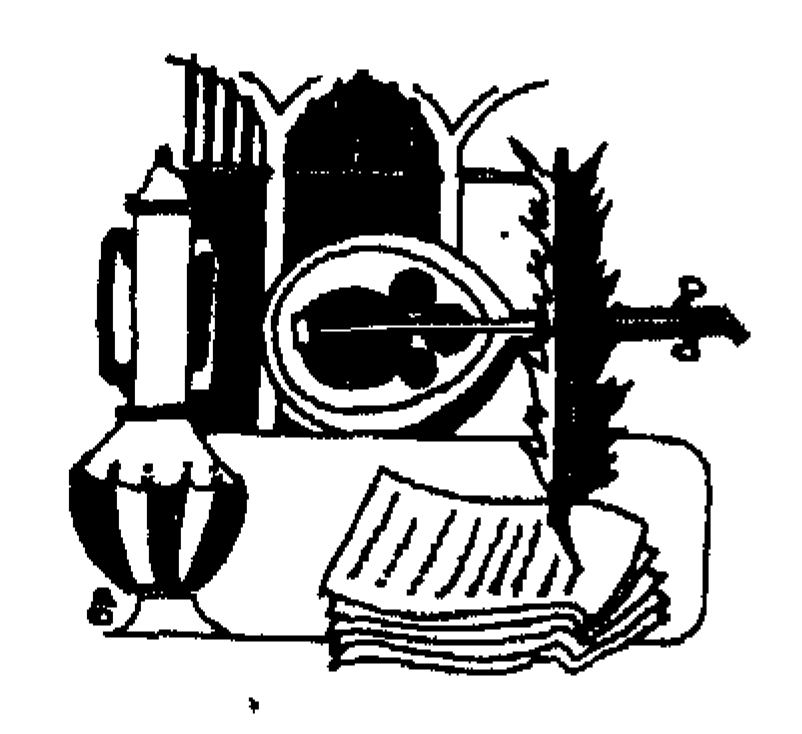
بعدها تبدأ مرحلة جديدة فى حياة تيمور هى مرحلة التأليف المسرحي وتعتبر من ازهر فترات حياته بل وحياة مسرحنا المصرى . . فقد كانت بمثابة بؤرة التجمع لكل ما سبقها من نشاط ونقطة انطلاق لكل ما جاء بعدها من ازدهار ونهوض مسرحى . . انها المرحلة التى شهدت سلامة حجازى وجورج أبيض فى اوج مجدهما . . المرحلة التى بدأ يكتب فيها توفيق الحكيم أولى مسرحياته لفرقة عكاشة وبدأ يظهر فيها الريحانى والكسار وعزيز عيد ويوسف وهبى وروز اليوسف وفاطمة رشدى وزكى طليمات وكافة الرواد الأول لمسرحنا العتيد . . وهى أيضا التى انبتت سيد درويش . . ولا عجب أن تكون مرحلة بروز محمد تيمور كرائد فعلى للتأليف المسرحى الخالص . . وقد كانت مهمة تيمور فى هذا المجال قاسية وصعبة لأن دوره المحتم كان يستوجب إلى جانب التأليف أن يتكفل بمهمة النقد . . الشى الذى فعله تيمور بأصرار وعقيدة وتجربة رائعة . . كانت أول بواكيره . . « العصفورة فى القفص » وقد أهداها لفرقة عبد الرحمن رشدى . . وكتبها باللغة الفصحى* . ثم عاد فحولها إلى اللغة العامية لانها كانت فى رأيه . . « اللغة الوحيدة الصالحة للتعبير المسرحى المطلوب » والمجال لا يتسع للحديث عن هذه المسرحية . . ولكن وقع تأثيره ودلالتها فالمسرحية لم تلق النجاح الذى كان ينشده وذلك بسبب سيطرة الفرق الهزلية على النشاط المسرحى . . تماما كما هو حادث الآن . . وقد أدى ذلك بتيمور إلى الجنوح للنقد . . فراح يهاجم الفرق التمثيلية وأفسادها للجمهور وابتعادها به عن الكوميديا الراقية . . وخص بهجومه أساسا شخصية « كشكش بيك » التى كان يقدمها الريحانى . . لانها كانت الرمز المميز لهذا اللون السائد . . وقد جمعت هذه المقالات بعنوان « التمثيل الفنى واللافنى »*وكان صلب فكرته فى هذه المقالات النقدية أن الفرق التمثيلية الهزلية تعتمد على التجاوب المباشر مع جمهور ينشد الضحك بأى ثمن . . وهى لا تتورع فى سبيل ذلك عن اجتذابه بشتى الحيل ومنها اقحام الاجساد العارية والمفاجآت الصارخة بلا مبرر فعلى أو فنى وقيام مسرحياتها على « استعارة

مسرحيات لا تعكس بيئتنا أو واقعنا » وما أشبه الليلة بالبارحة . . فهذا الاتجاه كفيل بأن يخمد الحركة المسرحية إذا لم يتدارك أصحاب الفرق هذا الموقف فيحاولوا كما قال تيمور « تغيير هذه الألوان شيئا فشيئا حتى يرتفعوا بذوق الجمهور ويقدموا إليه فنا حقيقا » على أن تيمور لم يصب جام غضبه على أصحاب الفرق وحدهم . . وانما راح يقارع المؤلفين المسرحيين أنفسهم . . فابتدع طريقة جديدة فى نقدهم وذلك فى عدة مقالات سماها « محكمة المؤلفين الروائيين » . . كتبها على شكل قصص . . تخيل فيها نفسه وهو الراوى يلتقى فى شارع عماد الدين بممثلين راحلين من القدامى . . جاءوا من الاخرة لمحاكمة المؤلفين المسرحيين . . فتعقد المحكمة فى دار الأوبرا السلطانية . . ويختار للفصل فى القضية خمسة من كبار الكتاب العالميين هم شكسبير وموليير وكورنيل وجوته وراسين » أما وكيل النيابة فهو ادمون روستان . . وأما المذنبون منهم فهم فرح انطون ولطفى جمعة وابراهيم رمزى ومحمد تيمور نفسه وعباس غلام وأمين صدقى وبديع خيرى ونجيب الريحانى واسماعيل وهبى وخليل مطران . . وتبدأ المحاكمة بفرح انطون فيوجه إليه شكسبير رئيس الجلسة عدة اتهامات . . ثم يعلن الحكم بعد المداولة فاذا هو يقضى بتحريم « الاقتباس » على فرح انطون لمدة عشر سنوات . . أى المدة التى تكفى لنسيان الجمهور المسرحى لهذا النوع العقيم من التمثيل . . وعلى مثل هذا النمط تجرى محاكمة الباقين . . بما يحمل رأى تيمور فى المسرح وفكرته عنه . . ومن ذلك حملته على كتابة المؤلفين لمسرحياتهم بسرعة « سلق بيض » وتصدى النقاد للهجوم على الأعمال الفنية بالاضافة والحذف فى النص مما لا يشجع المؤلف المخلص على التعامل معهم . . وكلها مثالب لا تزال تفرخ فى حياتنا المسرحية حتى اللحظة افتك الأمراض والعلل . .

حدث ذلك كله فى عام ١٩١٨ . . وكانت روح الفتى تتأجج بحب المسرح ، فعاود المحاولة بمسرحية « عبد السلام أفندى » وهى مسرحية هدف بها إلى تقديم لون الفكاهة الراقية التى ينشدها للمسرح . . وتختلف عن مسرحيته الجادة السابقة (العصفور فى القفص) . . قدمها عزيز عيد فى فرقة منيرة المهدية ولكنها لم تنجح لأن منيرة لم تكن تغنى فيها . . واندفع تيمور يائسا إلى هجرة المسرح وشغل نفسه مرة أخرى بالكتابة القصصية . . فأخرج عدة قصص بعنوان (خواطر) مع بضع مقالات فى النقد الاجتماعى . . ثم اشترك مع شقيقه محمود تيمور فى تحرير جريدة « السفور » . . لكن الحنين إلى المسرح سرعان ما عاوده من جديد فكان عليه أن يشق طريقه بأسلوب آخر . . وهنا نراه يقدم على الاشتراك مع الريحانى ويقدم لفرقته

« العشرة الطيبة » وهى مسرحية مقتبسة عن مسرحية فرنسية باسم « ذو اللحيه الزرقاء » ضاربا عرض الحائط بآرائه السابقة عن المسرح الهزلى المثقف واربابه « يقول هو نفسه مبررا هذه الخطوة من جانبه وهو يتحدث عن أصحاب الفرق الهزلية « لقد عرفوا وكونوا من ورائه ثروة عظيمة وليس فى طوقى أن أقف فى وجوهم ولكنى أريد أن اهتدى معهم إلى وسيلة نحول بها ميل الجمهور من الفوضى التمثيلية الحاضرة إلى شبه الفن ثم من شبه الفَن إلى الفن الصحيح . .

ولم تنجح العشرة الطيبة النجاح الذى يجعل من تيمور مؤلفا هزليا كالآخرين ولهذا تراجع عن محاولة الارتباط بالمسرح الهزلى على أى صورة . . وبدأ يكتب بأصرار جديد . . المسرح الذى يرضى ذوقه الفنى ويتفق مع ارائه ومبادئه بغض النظر عن النجاح أو الفشل نتيجة « الجهل التام من جانب الجمهور » ونراه يشرع فى تأليف مسرحية « الهاربة » وقد انتهى منها و آل عكاشة على وشك أنشاء فرقة ترقية التمثيل بتعضيد من طلعت حرب الذى شيد للفرقة خصيصا مسرح حديقة الأزبكية الحالى . . وقدم المسرحية للفرقة الجديدة والآمال تراوده فى امكان النهوض بالمسرح « الجاد الراقى » لكنه على ما يقول الأستاذ « محمود تيمور . . » لم يكد يرمى بالقلم من يده حتى رماه المرض على سرير الموت . . كان يتابع بروفات المسرحية وانفاسه تلهث بالامل فى الشفاء والأمل فى النجاح ، ولكن الموت عاجله فكانت الخاتمة الفاجعة لانبغ شباب العصر إذ مات قبل أن يبلغ الثلاثين من عمره . تماما مثلما مات صنوه سيد درويش . . وحق لنا أن نعاود السؤال : فماذا كان يمكن أن يقدمه هذا الشاب لو قدر له أن يعيش أكثر من هذا العمر القصير الذى عاشه ؟ ؟



المنفلوطى

١٨٧٧ - ١٩٢٤

هذه ثالث مرة أقدم فيها على الكتابة عن المنفلوطى وقبلها كنت ارانى بعد عدة قراءات فى كتبه وآثاره ارتد مقهورا أمام المعلومات الضئيلة التى تحت يدى عنه . . لكن يصدف اخيرا أن أجد بين مالدى من كتابات عتيقة . . نسخة من كتاب ممزق بلا غلاف ولا أعرف صاحبه ، يحوى ما يكفينى للخوض فى حياة الرجل وشخصيته وبالصورة التى يمكن أن تقنعنى بالحرص على من أختار أرتياد سيرتهم .

المنفلوطى علم غير متكرر فى حياتنا الأدبية لعب دورا غير هين فى التمهيد الباكر للنهضة الأدبية التى أنبتت رواد أدبنا الحديث . . طه حسين

والعقاد والمازنى والحكيم وتيمور . والواقع أننا لكى نفهم المنفلوطى ونقدر قيمته ، يلزمنا بداية أن نلم بالارضية الثقافية التى نما فيها قلمه وترعرع على سطحهاعقله ووجدانه . فقد ولد المنفلوطى قبل خمس سنوات مباشرة من وقوع الاحتلال الانجليزى . . ومات بعد خمس سنوات كاملة من قيام ثورة سنة ١٩١٩ . . فكأنه بذلك قد نشأ وعاش فى أكثر الفترات تحولا فى ماضينا القريب . . فترة الانتقال الضخمة من الجمود والركود الذى ران على الادب والفكر ممتدا من أغوار العصور الوسطى . . ولم يقدر له أن يتطور الا بعد أن جاد التقدم على مصر . . بمدرسة رفاعة الطهطاوى وتلاميذه والافغانى واتباعه ثم الجماعات التى أخذت عن الشيخ محمد عبده . . وقد كان المنفلوطى واحدا من هؤلاء . . ولكنه امتاز عن الباقين بالموهبة الادبية الباكرة . . وطواعية الاسلوب وجدته وحداثته .

ونحن لو اضفنا إلى طواعية الاسلوب ماكسبه من مغانم فكرية متحررة أخذها عن هذه المدراس الثلاث . . لكان من السهل علينا أن ندرك لماذا وقف هذا الرجل على ختام القرن الماضى وفوق أعتاب القرن العشرين . . ليخرج الكتابة الادبيةمن بوتقة اللفظية إلى منطلقات التعبير الحسى والعاطفى الذى لا يحفل بالكلمة واللفظ قبلما يحفل بما تحمله من أخلية واحاسيس ومشاعر . . وتلك فى الحق كانت موهبة المنفلوطى . . فكماأن سامى البارودى أستطاع أن يقف على رأس المدرسةالحديثة فى التطور بالشعر . . كذلك مكنت الموهبة الفياضة الدافقة والسلاسه التعبيرية الطلقة . . مكنت رجلنا من أن يقف على رأس التطور الواعد بالنثر وفى احدث قوالبه وأكثرها تجددا . . وهو القالب الروائى القصصى . .

ولد السيد مصطفى لطفى المنفلوطى بالمدينة التى تحمل لقبه واسمها مدينة منفلوط من عائلة متوسطة الحال . . اذ كان والده قاضيا فى منفلوط . . وكما هى العادة حفظ القرآن فى كتاب الشيخ جلال الدين السيوطى بأسيوط . . ثم ارتحل إلى الأزهر وهو فى الثالثة عشرة من عمره . وحضر دروسه بالازهر مع الشيخ محمد عبده وزامل سعد زغلول وهو أزهرى وأجتاز فترة شبابه فى القاهرة وأمضى عشر سنوات وسط محافلها الأدبية العديدة . . تعرف خلالها على الكثيرين من الكتاب والأدباء ورجالات الصحف والجرائد . . ذلك أن تلك الحقبة من حياة البلاد . . وهى الحقبة الواقعة بين نفى عرابى وصحبه . . وظهور مصطفى كامل وحزبه تميزت على عهد كرومر بانتقال النشاط السياسى بكل ثقله إلى مجال الكتاب الصحفية . . فقد كان من أبرز خطط الاحتلال للسيطرة على الرأى العام ومحاولة كبح جماع الروح الوطنية .

آن يدعم مكانته ويروج لسياسته ومشاريعه ويستولى على اهتمام المواطنين . . بالارتكان على الصحافة .وبالفعل أفلحت سياسة كرومر فى خلق الكثير من الصحف وشراء العديد من الاقلام المأجورة وخاصة الاقلام المجتذبة من خارج البلاد . . والذين كان عبد الله النديم يسميهم : الكتاب الشوام . . وقامت سياسة الاستعمار على اطلاق حرية الصحافة فى الحدود التى لاتمس مصالح السيطرة البريطانية بل وتعمل على أضعاف الروح والكرامة الوطنية المشرئبة .

وتاثر المنفلوطى بهذا الجو . . فكان طبيعيا حين تتفتح مواهبه أن تجد لها منطلقا فى المجال الصحفى . . وهكذا نراه وهو طالب أزهرى فى الواحد والعشرين من عمره . . يبدأ بقرض الشعر على مالوف وطبيعة العصر . . ثم يسعى إلى الكتابة فى الصحف . . وقد شجعه على ذلك فى البداية . . أنه كان قوى الارتباط بالبيئة التى فيها نشأ بمنفلوط . . فاذا حلت الأجازة وعاد إلى مسقط رأسه فى الصعيد راح يكتب فى الصحف الموجودة هناك . . فقد تميز الريف المصرى فى تلك الفترة . . ببداية آفول الاقطاع التركى . . وظهور الملاك الجدد من المصريين الذين اورثهم التطور إلى جانب الارض الشاسعة والالقاب والمراكز ومصاهرة العائلات التركية وسلالاتها . . الحرص على المقومات التقليدية للتراث العربى المكتوب . . فكنت تجد فى كل بيت تلقى أبناؤه العلم فى الأزهر أو المعاهد الدينية الاخرى الكثير من مجلدات الشعر وكتب الفقه والتفسير وغيرها من عمد التراث الأسلامى . . هذا فضلا من انتشار ندوات الشعر والجلسات الأدبية وفى المراكز بالذات الصحف المحلية الخاصة بكل أقليم . . مركزا أو مديرية . .

أيامها كان عمدة منفلوط يصدر مجلة باسم (العمدة) تعود المنفلوطى الشاعر الشاب أن ينشر فيها قصائده اثناء الأجازة. . ويتابع مراسلتها من القاهرة وهو يتلقى العلم بالازهر . . وفى عام ١٨٤٦ نشر « الشاعر الماجد والاديب الكامل السيد مصطفى لطفى المنفلوطى » قصيدة فى جريدة العمدة بمنفلوط . . يهنىء سمو الخديو عباس حلمى بسلامة العودة من أوربا . . ويقول فيها .

ملك يسير السعد حول ركابه
فكأنه من جملة الحراسى

اكاد لولا عزمه يوم الوغى
ادعوه بالبسام لا العباسى

ولكن ما يكاد ينصرم العام حتى يرتد الفتى إلى القاهرة . . حيث نراه فى غمرة نشاطه كشاعر . . وفى ظل الجو السياسى المكفهر الذى يحيط بالبلاد . . وبمناسبة

عودة نفس الخديو عباس من أوربا . يقع فى ورطة تكون سببا فى ذيوع اسمه وعلو قدره وبروزه كشاعر واديب يشار اليه بالبنان على حد مصطلحات العصر . فقد تحدث أن وزعت على جمهور المستقبلين للخديو عباس حلمى عند عودته من استانبول فى نوفمبر من العام الثانى مباشرة . . عام ١٨٦٧ . . القصيدة المشهورة التى خطها مؤلفا مقلدا المتنبى فى رقة قصيدته الخالدة عن كافور يطعن بها الخديو بجرأة غير معهودة فيقول :

قـدوم ولكن لا أقـول سـعيـد
وملـك وأن طـال المـدى
رحلت ووجه الناس بالبشر باسم
إلى أن يقول الشاعرأيضا :
وعـدت وحـزن فى القلب شـديـد
رمتنـا بكم (مقدونيـا) فـاصـابنـا
مصـوب سـهـم بـالبـلاء شـديـد
فلمـا تـوليتـم طـغيتـم وهـكـذا
اذا أصبـح التـركـى وهـو عميـد
كـأنى بقصر الملـك أصبـح بـائـدا
مـن الظلـم والظلـم المبـين يبيـد

.وقامت الدنيا وقعدت كما يقولون خاصة أن القصيدة كانت قد نشرت فى مجلة (أنيس الجليس) الصادرة فى الأسكندرية . ثم اعيد نشرها فى مجلة (الصاعقة) القاهرية وطاف الباعة بها شوارع العاصمة ينادون (أقرى القصيدة . . أقرى القصيدة) ذلك أن القصيدة كانت بمثابة بركان أو قنبلة صامتة أنطلقت فى سكون مدلهم . . ونشرت فى وقت عصيب هو وقت بداية أحتدام الصراع بين الخديو والاحتلال . . وهو الصراع الذى دفع بالخديو لان ينحاز لفترة إلى جانب الحركة الوطنية . . وفى بداية الامر اتهم السيد توفيق البكرى نقيب الاشراف . . وهو من أعوان الانجليز السافرين بانه كاتبها . . ولكن الشيخ على يوسف صاحب المؤيد وهو بدوره من الموالين للاحتلال أستطاع أن يبعد التهمة عن البكرى حين قبض عليه بمظنة الاشتباه . . أعترف بصراحة بانه صاحب القصيدة . . واودع السجن بالحوض المرصود بالسيدة زينب لعدة شهورحتى أستطاع الشيخ على يوسف نفسه بمعونة الشيخ الامام محمد عبده . . أن يتوسط فى الافراج عنه .

ايا كان الحال فلا أهمية للدخول في الحياة التفصيلية للرجل . . ولكن الذى يعنينا بالفعل أن ننقب عن حياته الثقافية ومكوناته الادبية التى جعلته بعد ذلك بسنوات قليلة يتسلم الزمام كأبرز وانجح أدباء عصره . . لم يعمر المنفلوطى طويلا . . فقد مات في الثامنة والاربعين من عمره وتزوج مرتين . وحين عاد إلى منفلوط تاركا القاهرة بعد أن سجن بسبب هجائه للخديو في القضية التى عرفت باسم (قضية السفهاء) عاد موطدا صلاته بالحياة الصحفية في القاهرة . . وارتبط من البداية بالشيخ على يوسف صاحب المؤيد والرجل الذى سانده باخلاص في محنته . . وفى تلك الفترة غلبت المنفلوطى موهبته الادبية فاستغنى بها عن الشعر وعاش في منفلوط . . يعقد الندوات الأدبية في داره كل ليلة . . ويتابع الحياة الأدبية في العاصمة التى كان يتردد عليها من حين لحين . . يقتنى الكتب ويستمع إلى كبار المطربين يوسف المنيلاوى وسلامه حجازى وغيرهما .

ولكن كان أبرز وجوه نشاطه أنه كان يراسل المؤيد وينشر فيها يوم الأثنين من كل أسبوع مقالا منتظما . . وقد تابع ذلك طوال اقامته في منفلوط ، وهذه المقالات هى التى جمعها فيما بعد في كتابه الشهير « النظرات » فشغلت بحيزها ثلاثة اجزاء كاملة . . ويمدنا المنفلوطى بموقفه هذا باروع صورة عمن تعودنا أن نسميهم (ادباء الاقاليم) شانه في ذلك شان خلفه الأديب الاقليمى الكبير الاخر . . صديقه ومعاصره ايضا مصطفى صادق الرافعى . ووجه الارتباط الذى يجمع بينهما كان في انهما يكتبان للعاصمة من خارجها . . مما أضفى على كتابتيهما رنة ادبية موغلة في الذاتية سهلت على المنفلوطى أن يجافى ما يعتمل داخل العاصمة من احداث سياسية ووقائع ضخمة . . لا اقلها . . حركة الحزب الوطنى ومصطفى كامل وفريد السياسية . . ومجالات الشيخ محمد عبده وتلاميذه . . ثم ذلك النشاط العريض الذى كانت تفيض به القاهرة . . مسرح سلامة حجازى وجورج أبيض ومنيره المهدية . . ثم شعر شوقى وحافظ ومطران . . وكتابات لطفى السيد وقاسم أمين . . والفورة المتحضرة التى دفعت إلى إنشاء الجامعة الاهلية تمهيدا لخلق الجامعة المصرية .

لم تخل (النظرات) كمقالات متفرقة من صدى هذا الجو السياسى والادبى والفكرى الذى يغمر العاصمة . . ولكنها كانت في أغلب فصولها نفثات ذاتيه لاديب صقلته معرفته بالتراث العربى ليكون صاحب أسلوب سلمى جذاب قادر على سرعة التعبير وبراعة التصوير . . فاذا أضفنا إلى ذلك ما سماه لطفى السيد (التقاط وجمع افكار التمدن) لخرجنابنتيجة ساطعة هى أن المنفلوطى . . جاء بموهبته ليصوغ

اسلوبا جديدا . . وليخرج بهذا الاسلوب عما درجت عليه اللغة العربية قبلا من أساليب قائمة على الصياغة اللفظية وحدها . . أكثر من ذلك . . وهذا ما سيتجلى واضحا فى كتاباته اللاحقة . . أن هذا الاسلوب بحكم الموهبة الكامنة لصاحبه وربما بفضل سبحاته وتأملاته ومؤرفاته وأهتماماته . . دفع بالمنفلوطى إلى أن يقترب كثيرا من الرومانتيكية الغالبة على الادب الأروبى طوال القرن التاسع عشر . . فتراها وقد تركت بصماتها واضحة على كتاباته حين يوغل فى حمل رسالته الأدبية إلى أن يقصر جهده على الاستعانة بترجمات أصدقائه ، ومعارفه للروايات الأروبية الرائعة ويقوم هو بإعادة صياغتها ونقلها باسلوبه الخاص إلى اللغة العربية .

ونعود لمتابعة حياة المنفلوطى وسنجده على ختام عام ١٩٠٨ ينتقل بعائلته إلى القاهرة وهذه خطوة طبيعية كان لابد منها حتمتها ظروفه الخاصة بقدر ما دعاه اليها حرصه على مكانته الأدبية . . ذلك أن مقالاته فى المؤيد كانت قد أخذت تكتسب شهرة أدبية وتكسبه صيتا راجحا . . وكان شديد القلق دائما على دوام نشرها . . فأحيانا ما كانت ظروف الجريدة لا تسمح بنشر مقالة الأسبوعى فيبعث بالبرقيات العديدة لاصدقائه متلهفا على اسباب تأخير النشر . . والحق أن المنفلوطى حينذاك كان قد نذر نفسه نهائيا للكتابة الأدبية اذ لم تكن له حرفة غيرها ، وهكذا أندفع الرجل بعائلته إلى القاهرة بعد أن ضمن الحصول على ثلاثين جنيها شهريا بانتظام ثمنا لمقالة الأسبوعى إلى جانب دخله من الأرض التى آلت اليه ملكيتها من زوجته الاولى . . وهذا يعنى أن المنفلوطى لم يعان من الضائقة المالية المعتادة عند الادباء . . على الأقل لم يحس بهذا العناء . . وقد ساعدته صلاته بالاوساط الأدبية والمحافل السياسية بحكم اشتغاله بالكتابة فى الصحف ومشاركته فى الكثير من المجادلات العامة . . أن يتعرف على كثير من أصحاب الوجوه اللامعةوالمبرزين خاصة هؤلاء الذين كانوا يروقهم أسلوبه الدفاق فى الكتابة . . ومنهم سعد زغلول الذى كان على صلة به أيام الأزهر . . وادت هذه المعرفة إلى أن يصبح سعد داعيا للمنفلوطى أو ثالث ثلاثة اهدى لهم كتابة الأول (النظرات) وكان ذلك الاهداء على النسق الواضح التالى :

إلى روح المرحوم والدى لانه السبب فى وجودى .

إلى صاحب المؤيد الذى أستصدر العفو عنى .

إلى سعد زغلول باشا الذى وظفنى .

وقد كان سعد زغلول هو الذى اعانه بعد إغلاق المؤيد فالحقه بوظيفة سكرتيره

الخاص ابان توليه نظارت المعارف العمومية . . ومن بعدها زادت العلاقة بينهما وظل المنفلوطى على ولائه لسعد فاهداه روايته (فى سبيل التاج) معتمدا فى ذلك إلى جانب الصلة اللاصقة والقديمة . . على أن سعد زغلول كان يميل إلى الأدباء ويعجب بالادباء والكتاب على صورة صادقة تجلت بعد ذلك فى احتضانه للعقاد .

قنع المنفلوطى بوظيفته فى نظارة المعارف . . وعاش حياة هادئة قريرة لا يشغله غير الولع بالكتابة . . بدأها بان أصدر النظرات عام ١٩٠٩ فى ثلاثة اجزاء تضم مجموعة مقالاته التى نشرهافى المؤيد على مدى السنوات المنصرمة فتميزت بين الكتابات الاخرى أسلوبا وهذا قطاب من بعض كتاباته توضح ما تميزت به بالنسبة للكتابات الجامدة الجافة التى لحقت بالكثيرين من أصحاب الأقلام بين معاصريه .

« الحرية شمس يجب أن تشرق فى كل نفس فمن عاش محروما منها عاش فى ظلمة حالكة يتصل اولها بظلمة الرحم وأخرها بظلمة القبر . . أن الانسان الذى يمد يده لطلب الحرية ليس بمتسول أو مستجد وانما هو يطلب حقا من حقوقه التى سلبت اياها المطامع البشرية . . فان ظفربها فلا منة لمخلوق عليه » .

ويكتب عن السلام فيقول :

« لا سعادة فى الحياة الا اذا نشر السلام اجنحته البيضاء على هذا المجتمع البشرى . . ولن ينتشر السلام الا اذا هدات اطماع النفوس واستقرت فيها ملكة العدل والأنصاف فعرف كل ذى حق حقه وقنع كل بما فى يده فلا يحسد فقير غنيا ولا عاجز قادرا ولا جاهل عالما واشعرت القلوب الرحمة والحنان على البائسين . »

هذا هو لون الكتابة التى يرع فيها المنفلوطى . . وهى تكشف عن مزايا كثيرة فى الأسلوب وفى الروح وفى بساطة الفكرة ودقة إختيار اللفظ وموسيقية ايقاع السرد مما يقربها كثيرا من لون الكتابة العصرية المتقدمة كثيرا عن الكتابة فى أيامه .

من أجل ذلك لم يلبث المنفلوطى بعد هذه الأعوام أن أصبح أوسع كتاب عصره شهرة وابعدهم صيتا . . وقد شجعه نجاح كتابه الأول نهائيا على أن يتابع السير فى هذا الدرب ، فنراه على بداية عام ١٩١٢ يصدر كتابا اخر هو « مختارات المنفلوطى » يضمه الكثير من الاشعار والموضوعات التى تروقه وتتفق مع ذوقه من شوامخ التراث العربى ، وأيامها كان الرجل قد انتقل من وزارة المعارف إلى وزارة الحقانيةواستقرت به المكانةفى الوظيفة لتحفزه إلى المزيد من الكتابات . . اذ نراه بعدها بشهور قليلة يصدر (ماجدولين) الذى ترجم له قصتها عن الفرنسية محمد فؤاد كمال وأخذها المنفلوطى فاعاد صياغتها بأسلوبه الخاص وأضاف اليها الكثير من انطباعاته

وتأملاته ومزاجه وهى كلها تعبر عن انسان عادى مرهف الحس قادر على التعبير الطلق عن نفسه مماقربها إلى النفوس والأذهان لدى القارىء العادى .

وبعد ذلك بعامين تلت روايته (ماجدولين) مجموعة (العبرات) وهى عدة قصص تصور البؤس والشقاء والتعاسة فى الحب . . ولم يخل معظمها من عرضه لخواطره واحاسيسه . . وعلى النهج الذى فسرناه قبلا . والقصص مأخوذ أغلبها من الفرنسية من مترجمات الاخرين . . اعد المنفلوطى صياغتها بقلمه . . والحق أن المنفلوطى لم يكن فى ذلك متفردا عن غيره . . فقد كانت هذه هى فترة التعريب . . وهى مرحلة من مراحل تطورنا الأدبى . . تربط بين المرحلة التى سبقتها ، وكان يقودها رفاعة رافع الطهطاوى وتلاميذه . . وهى مرحلة الاغتراف من الثقافة الأروبية وترجمتها ترجمة مباشرة . . تلتها بعد ذلك المرحلة التى بدأها اخلص تلاميذ الطهطاوى المرحوم عثمان جلال أمام المعربين . . وجاء المنفلوطى ليأخذ ترجمته عن عثمان جلال لقصة الفضيلة . . ويعيد صياغتها من جديد كسابقتها بقلمه وذلك فى أخريات حياته عام ١٩٢٣ :

ولاشك أن مرحلة التعريب هذه كانت مرحلة تمهيدية ضخمة سبقت بداية الخلق الأدبى العصرى الخاص فى الوان الأدب المختلفة التى جدد بها طه حسين فى يومياته ورواياته وقصصه ، والعقاد فى تراجمة ودراساته وكتبه . . وتوفيق الحكيم فى مسرحه الشامخ الوطيد وتيمور فى قصصه القصيرة . . جددوا بها أو على الأصح أقاموا عليهاالاساس الأول لمنطلقنا الأدبى المعاصر كله . . ولعل أبرز من يمثل التأثر بهذه المرحلة التعريبية . . ابراهيم المازنى فى رواياته المصرية أغلبها . . وهذا ما يثبت أنهم أفادوا جميعا فى الرواية والقصة والشعر والتراجم والمسرح بما درج عليه من سبقوهم وعلى رأسهم المنفلوطى ومحمد السباعى وفرح أنطوان وغيرهم من الذين تدرجوا من الترجمة المباشرة إلى التعريب الكلى عن الاداب الأجنبية . . وكان ذلك يعنى أخذ القصة أو الرواية بحذافيرها . . ثم تضمينها اراء وأفكار وتأملات المعرب نفسه متداخلة مع النص المترجم فى محاولة دائبه للربط بين النص الأوربى والقارىء العربى بابيات من الشعر أو الحكم الماثورة أو التعبيرات المحلية الذائعة . . عامية كانت أم عربية . وهكذا كانت تقدم الروايات الذائعة لكبار الكتاب العالميين :

هيجو وزولا وتولستوى وديكنز وحتى تشيكوف نفسه . . لكن لعل أكثر الميادين تأثرا بحركة التعريب هذه . . كان ميدان المسرح الذى ظل يعتمد لفترات بعيدة على

تعريب الأعمال المسرحية الأروبية مثلما فعل محمد تيمور وكل من عاصروه بلا استثناء ومن ثم تطور التعريب إلى الاقتباس على يد اساطينه البارزين فيما بعد وأبرزهم أمين صدقى وبديع خيرى والريحانى . . وهذا الاقتباس المستمد من التعريب هو الذى يغذى الحركة المسرحية فيما قدمه يوسف وهبى وعزيز عيد وفاطمة رشدى فاهيكم عن الكسار والريحانى .

ومن هنا تظهر أهمية الدور التعريبى الذى لعبه المنفلوطى بالنسبة للقارىء وهو الدور الذى توقف بطبيعته أو على الاصح جار عليه التطور مع بداية الحرب العالمية الأولى وفرض الحماية على البلاد . تم انتقال النشاط الأدبى إلى المجال التعريبى ممثلا فى المسرح والغناء والفكاهة . . مما لم يكن لصاحبنا المعمم ادنى صلة به ولهذا لا نكاد نلمس للمنفلوطى فى تلك الحقبة ادنى نشاط . . وظل كذلك حتى عام ١٩٢٠ حينما قدم رواية (فى سبيل التاج) التى ترجمها له الاستاذ حسنى الشريف . . وهى رواية كانت تجارى المناسبة الوطنية لقيام ثورة ١٩١٩ . . وتصور قصة كفاح شعب من شعوب البلقان من أجل الحصول على حريته واستقلاله . . وقد اهداها المنفلوطى إلى راعيه ومحتضن موهبته وهو فى زعامته الوطنية . . « إلى الزعيم العظيم سعد باشا زغلول أقدم البطل البلقانى إلى البطل المصرى لتأنس روح كل منهما بروح صاحبه » .

توفى المنفلوطى عام ١٩٢٤ وهو موظف فى مجلس الشيوخ يعمل فى خدمة راعيه سعد زغلول باشا بالبرلمان الجديد . . وتشاء الصدف القاسية التعسة تعاسة المنفلوطى نفسه . . أن يموت وتشيع جنازته فى يوم انشغال الناس بحادث الاعتداء على سعد زغلول وضربه بالرصاص فى محمطة مصر . . فلا يخرج وراء نعشه الا أهل بيته ويدفن الرجل فى صمت يتفق مع فلسفته الهادئة السمحة . . ثم لا يجد من يرثيه غير شوقى الذى سجل فجيعة موته بهذه الابيات :

أخترت يوم الهول يوم وداع
ونعاك فى عصف الرياح الناعى
هتف النعاة ضحى فأوصد دونهم
صوت الرئيس منافذ الاسماع
من مات فى فزع القيامة لم يجد
قدما تشيع أو حفاوة ساع

ولعل ابلغ ما يمكن أن نختم به هذه الصورة عن الرجل . . ما قاله العقاد عنه « لقد كان المنفلوطى أحد اولئك الأدباء القلائل الذين ادخلوا المعنى والقصد فى الانشاء العربى بعد أن ذهب منه كل معنى وخلا به الكاتبون عن كل قصد » .

بيرم التونسى

١٨٩٣ - ١٩٦١

أقوى وأثبت الحقائق فى تاريخنا المعاصر . . وأكثرها تأثيرا على نضال شعبنا هى الحقيقة التى تقول . . أن الشعب المصرى عاش على مدى تاريخه الحديث باسره يسعى إلى ضمان أن يكون هو وحده صاحب الحق فى إختيار حكامه . . وحكم نفسه بنفسه . فمن هذه الحقيقة أستمد المواطن المصرى العادى قوام حريته وأستند عليها فى تبرير كيانه وتحقيق وجوده وشرعية نضاله .

وهذه الحقيقة هى التى أعانت محمد على لكى يتولى حكم مصر بارادة أهلها . . وهى نفسها التى دفعت عرابى إلى الوقوف فى وجه الخديو توفيق ومقارعته باسم الشعب ونيابه عنه لكى يكون

صاحب الحق فى تقرير مصيره . . فلما قامت ثورة سنة ١٩١٩ كان حتما لزاما عليها من البداية أن تستند إلى هذه الحقيقة التى استوفتها كاملة من اليوم الأول لبْروزها . . ثورة يوليه سنة ١٩٥٢ بزعامة أبن مصر الحقيقى البار وزعيمها الاصيل فى هذه القضية الجوهرية بالذات . . البطل المحرر جمال عبد الناصر . . وذلك فى موقفها الاساسى من النظام الملكى وحكم عائلة محمد على . . فقد اطاحت بهما من الدقيقة الأولى وبجرة قلم .

فاذا ذكرنا بداية لبيرم أكثر أبناء الشعب تنبها إلى هذه الحقيقة وأكثرهم شجاعة وجرأة فى الجهر بها . . فانفرد بمعارضة تولية الملك فؤاد على حكم مصر . . وكانت النتيجة أن نفى من البلاد . . وارتحل ليعيش فى باريس ثم تونس قبل أن تقدر له العودة إلى أرض وطنه بعد سنوات عديدة من التشريد .

الأوله مصـــر : وقالوا تونسى ونفونى

جزاة الخير واحســـانى

والثانية تونس : وفيهـــا الأهل جحدونى

وحتى الغير ما صافانى

ولكن على أى أساس وليس على أى صورة جاء هذا الموقف المنفرد من جانب بيرم . . والرجل كان زجالا شعبيا ولم يكن يحترف السياسة أو يشتغل بها . . لقد اتهم بيرم فى هذه النقطة بالذات وطعن من هذا الجانب عدة مرات . . فانكر عليه بعضهم أنه كان يصدر عن عقدة ذاتية ترفض الملكية كنظام بقدر ماكان يصدر عن وعى شعبى مصرى عميق أصيل يرى فى الحكم الملكى أولى العقبات التى تقف فى وجه حريته وتقدمه ومستقبله ، وليس بخاف أن بيرم ولد فى الاسكندرية بحى السياله من أب مصرى وأم مصرية . . ولكنه كان ينحدر من سلالة تونسية ويحمل لقب التونسى . . وقد أعان ذلك اعداءه على محاولة الطعن فى موقفه الوطنى المصرى الخاص الصميم . . بانه أنما كان يحتمى بما توارثه عن أجداده من حماية تضفيها فرنسا المحتلة لتونس على الرعايا التونسيين . . (كان حماية فرنساوى) وكان يعارض الملكية كنوع من الوقوف فى وجه التسلط البريطانى لحساب النفوذ الفرنسى .

لو صح هذا حقيقة لكان فى ذلك ما يضيف إلى سلامة موقف بيرم فى هذه القضية اذ أنه يعنى أن بيرم بغض النظر عن فرية العمل لحساب فرنسا . .كان يدرك بوعيه النفاذ مدى الارتباط القائم بين الأحتلال الأنجليزى للبلاد وأسلوب الحكم الملكى

الذى يسانده . . وتلك حقيقة جوهرية غابت عن الكثيرين فى أيامه . . لكن الحق أن هذه الاتهامات الواهية واشباهها لا يمكن أن تستقيم لحظه مع مكونات بيرم وشخصيته وتاريخه ونضاله . . ولعل من أبرز هذه المكونات أن بيرم كان وقد عاش إلى نهاية عمره . . من أكثر أبناء مصر أستلهاما للروح الشعبية المصرية فى أعمق أغوارها وادق أبعادها . . وتراث بيرم الغامر فى كل مجال من المجالات التى خاضها بفنه . . انما هو الصدى الاصيل الضخم بل يكون الصدى الحقيقى للحياة المصرية فى شتى أبعادها السياسة والاقتصادية والأجتماعية والفنية . فمن أين أستمد هذه المقومات ؟

ولد بيرم عام ١٨٩٣ وكان أبوه تاجرا صغيرا . . تعلم كالمعتاد فى الكتاب ، ولكنه هرب ليضطر والده إلى الحاقه بالعمل معه فى حانوت العطارة الصغير . . وبعد فترة اعاده والده إلى الدراسة الدينية فى جامع إبى العباس المرسى . . لكنه سرعان ما تمرد على هذا اللون من الدراسة وترك الجامع بعد وفاة والده ليعمل فى حانوت يملكه زوج أمه الجديد وكان متخصصا فى صناعة برادع الخيل . . وما أن بلغ سن الصبا حتى كانت أمه قد توفيت تاركه له بعض المال ففتح بقالة وتزوج من أبنة عطار كان صديقا لوالده .

أول مكونات بيرم أذن تشهد بها نشأته الشعبية الخالصة وتشربه للحياة الشعبية والروح الشعبية من منابعها الأولى . . وتأتى بعد ذلك دراسته الدينية التى مكنته من القدرة اللغوية وصقلتها موهبته واحساسه بمذاق الكلمة فلم تباعد بينه وبين الأصالة اللغوية العربية فى كل زجله . . وذلك ماحفظ لأزجاله كيانها بين الازجال جميعا . . وتفرد بيرم فى شعره العامى . .

ولقد كان لنشأته فى الاسكندرية أكبر الاثر على تكوينه الثقافى . . فمن المعروف أن الاسكندرية بعد وقوع الاحتلال مباشرة . . كانت تعتبر العاصمة الفعلية للبلاد وذلك نتيجة لتجمع الأجانب بها وافدين فى ظل النفوذ الاستعمارى الجديد لاستغلال خيرات البلاد . . ومن مجتمعها المتلاطم بمختلف التيارات أستمد بيرم مقومات فكره ووعيه . . فكانت نظرته العصرية المتفتحه على حتمية التقدم بحياة الشعب . . وكانت نظرته السياسية التى أرتبطت بماصاحب الوجود الصناعى فى المدينة من أتجاهات متحررة بلغ حد التعرف على البذور الأولى للوعى بالاشتراكية مما أنبت فى نفسه كراهية للاقطاع والسيطرة الرأسمالية فى مرحلةمبكرة جدا .

ولعل من أبرزما يكشف عن ذلك موقفه يوم حرض الانجليز جماعة من العلماء على رأسهم الشيخ التفتازانى لمحاربة الحركة التعاونية التى نهض بها المرحوم عمر لطفى رائد التعاون لخدمة الفلاحين والعمال والجموع الشعبية العانية بزعم أنها تهدف إلى قيام بلشفية فى البلاد . . وهو أتهام كان دائم التكرار على طوال الحكم الاقطاعى الرجعى لكل منأد بأقل قدر من الحقوق والحريات لجماهير الشعب .

جماعة شافوا الغلابة ميتين م الجوع
حنوا عليهم وقاموا وضبوا مشروع
جاى أنت بتقول دا رين البلشفيك ممنوع

وأيش دخل البلشفيك فى نجدة الانسان
لا فى الجوامع رأيت مثلك ولا فى الدير
عالم ومسلم وبتعارض فى فعل الخير
مادام فضيلتك بتأكل كستليته وطير
يبقى الدريس والدره والفجل للخرفان
لأ والتلامة تستشهد لنا بالدين
أنه أمر تبقى نص المسلمين جعانين
أن كنت فاهم شريعة العدل عند لنين
أنظر شريعة نبينا نازلة فى القرآن
كان النبى والصحابة يجلسوا على الارض
مافيش لهم حد لا بالطول ولا بالعرض
مجمعين والفقير عند الغنى له فرض
والكل فى الكل فى ظل الحرم أخوان
سيدنا عثمان ماكانش عنده رتبة بيه
حتى الخليفة عمر كان بيشتغل بايديه
ولا أمامنا على كان عنده ألف جنيه
ولا أبو بكر عنده ستلاف فدان

وهذه القصيدة الناضجة الباكرة تعبر عن الجوهر الحقيقى الثابت لفكر بيرم ووعيه الذى لم يتأثر بأى مؤثر حتى نهاية عمره . . وكان من ميزات نشأته الشعبية أيضا ووجوده فى الثغر أصلا . . أن تفتح ذهنه على حقائق أجتماعية مبلورة لم

تحجبها عن وعيه النفاذ . . مظاهر الصراع السياسى القائم فى القاهرة أيام ذاك والذى كان ينبض بالانتقاضة المقبلة عام ١٩١٩ . . أيامها كان بيرم قد أقدم فى جرأة على أحتراف الزجل كمهنة للارتزاق ، فيستعيض بها عن العطارة بعد أن خلق لنفسه مكانة مرموقة بين أدباء الثغر وشعرائه . . فطفق يكتب عن كل مجالات الحياة العامة . . وحاول أن ينشىء لنفسه جريدة باسم (المسلة) يتعين منها ويعبر عن نفسه فيها . . ولكنها صودرت بعد بضعة أعداد لما تحويه من جرأة بالغة فى التعرض لاحداث الحياة وكشف حقائقها الواقعة . . ثم أصدر نشرة باسم (الخاوزوق) لم يطبع منها الا عدد واحد .

● وقد بدت جرأة بيرم بشكل بالغ القوة فى ازجاله لمن كان يتصدى لهم من المسيطرين والمتسلطين فى كل مجال من مجالات السلطة . .

الرب فى ألشـــام علقوه على عـود
ويامـا أرباب هنا شبعت ركوع وسجود
ورب فى حينا اسـمه الشاويش مسعود
والعمدة فى كفرهم غيرة مافيش موجود
واحنا لنــا رب واحـد قدهم وقدود

● وكان من أبرز اتجاهاته شحذ الروح الوطنية فى أبناء بلده :

يـامصـرى ليـه تـرخى دراعـك — والكـون سـاعـك
ونيـل جميـل حلـو بتـاعـك — يشـفى اللهـاليـب
مـاتحـط نفسـك فى العـالى — وتنبـاع غـالى
وتـاف لى علـى اللى فى بـالى — من غـير مـا تعيـب

● ثم الوقوف فى وجه تغلغل الأجانب وسيطرتهم على أقتصاد البلاد :

يـعنـى الأجـانـب تنـهبنـا — وتـدخـل بـابنـا
بـالزور ونـاويـه عـلى خـرابنـا — وتـعيش فى نـعيـم
غـايـه السـبب أن الاروام — مـاشـيين قـدام

وبن العرب من ستين عام عاش في التلطيم
يامصر شعبك دمه خفيف والعقل سخيف
مايحب شيء غير التوظيف ولا التخديم

وكان على الدوام بكل احساسه وفكره ووجدانه مع الجموع الشعبية العانية في كافة مسالك الحياة . . تنبض ازجاله بعنائها وشقائها تعاستها . . وفي ادائه بلاغة وشجاعه نادرة تكشف عن مستغليهم ومستعبديهم :

أربع عساكر جبابره يفتحوا برلين
ساحبين بتاعة حلاوة جاية من شربين
شايلة على كتفها عيل عينه وارمين
والصاج على مخها يرقص شمال ويمين
أيه الحكاية يابيه ؟ جال خالفت الجوانين
أشمعنى مليون حرامى في البلد سارحين
يمزعوا في الجيوب ويفتحوا الدكاكين

وبهذه الاصالة كانت تنطلق كل أزجال بيرم . . لا غرو أن وقفت السلطة في وجهه من البداية فحرمت عليه أحتراف الزجل وهو على هذا المنهج الثائر الصارخ لكن مواهب بيرم كانت أضخم وأقوى من أن تقف به عند حدود القوة القاهرة المانعه .

لذلك سرعان ما أتجه بمواهبه الشعبية إلى جانب آخر . . فلما تعرف بالفنان الشعبى الخلاق سيد درويش . . وجد في ميوله ومواهبه واتجاهاته اتفاقا كاملا معه . . ولذلك أرتبطت منابت العبقريتين الكبيرتين في الكثير من الأعمال الباقية لسيد درويش . ووقف الرجلان معا يغذيان ثورة ١٩١٩ بكل مقومات هبوبها لثورة شعبية مرتجاة . . إلى أن جاء عام ١٩٢٠ فلم يستطع بيرم كما أسلفنا الا أن ينطلق بزجله الشهير الذى يطعن فيه البيت المالك في شخص السلطان فؤاد وهم ينصبونه ملكا فيعرض بقصة زواجه من الملكة نازلى .

مرمر زمانى يازمانى مرمر
الوزة من قبل الفرح مدبوحه

والعطفة من قبل النظام مفتوحه
ولما جت تتجوز المفضوحه
قلت اسكتوا خلوا البنات تتستر

وهاجت الدنيا أيامها ايما هياج خاصة بعد أن تناقل الشعب هذا الزجل فى الطرقات وبعد أن أوغل بيرم فراح يشهر ببقية أفراد الأسرة ومنهم محمود فخرى باشا زوج ابنة السلطان فؤاد من الأميرة شويكار .'. وكانت النتيجة أن صدر الأمر بنفيه من البلاد . . وكما قلنا من قبل لم يكن بيرم مجرد هجوم اخلاقى . . وإنما كان تعبيرا نظريا وحقيقيا من أقوم الامانى الوطنية . . وهى حتمية انهاء حكم العائلة المالكة لفتح السبيل أمام قيام ثورة حرة مستقلة عن أى وصاية يفرضها الاستعمار المحتل على البلاد وفى صورة الحكم الملكى . وخرج بيرم منفيا يردد فى حسرة ابعاده القهرى عن وطنه ومهده .

على السين يامصر مشيت أياك تسلينى
ياما لقيت ورأئت جمال ينسينى
واتفكر الهرمين تجرى الدموع تانى

وعاش بيرم فى فرنسا عيشة حرمان وجوع وتشرد . . وامتهن الكثير من الحرف الحقيرة فى سبيل الحصول على ما يسد رمقه . . وكان الكل يتحاشاه خوفا وزُعم أنه جهر بدعوة سابقة لاوانها . . خاصة بعد أن ربطت ثورة سنة ١٩١٩ مصيرها بقيام الحكم الدستورى فى ظل النظام الملكى . . أصبح بيرم منبوذا فى منفاه بل بلغ الامر إلى حد معاداته واتهامه بالخيانة الوطنية . . ومن فرط اخلاص بيرم لوطنه وثقته فى أن معاداته للملكية ونظامها كان شيئا طبيعيا . . حاول العودة إلى مصر خلال عام ١٩٢٢ واستطاع أن يصل متسللا . . لكنه قبض عليه واعيد إلى فرنسا فظل هناك حتى عام ١٩٣٢ . . وابان تلك الفترة تكالبت عليه جميع الظروف والمغريات فكان الشىء الوحيد الذى قنع به فى موقفه المنفرد . . أن يحاول الرجوع إلى مصر باى ثمن وبلغ به اليأس والقنوط أن أتهم نفسه بالخطأ .

أنا اتلهيت وخدل زندى
مانش نبى الله غاندى
أن كانت الغلطات من دى
يكون فى عون اللى عملها

لكن فترة باريس كانت فى حياة بيرم من الفترات الفنية . . لانه على قدر ما جاع وتعرى وتشرد خلالها . . على قدر ما آفاد من احتكاكه المباشر بالحياة الغربية العصرية وأهلها . . الشيء الذى دعم وطور من ازجاله ورؤياه فيما بعد . . وفى عام ١٩٣٢ صدر قانون فرنسى نتيجة للازمة الأقتصادية العالمية باخراج كافة الأجانب منها . . فارتحل بيرم إلى تونس . . ولكنه لم يطق آن يعيش هناك . . اذ لم يكن له فيها آهل لانه مصرى النشأة والمولد . . مصرى الاحساس والمشاعر . . مصرى الانتماء فى كل خلجة من خلجات نفسه ووجدانه . . واضطر آن يرتحل إلى سوريا عام ١٩٣٦ ولكن الاحتلال الفرنسى الذى زعموا آنه كان من قبل فى حمايته رفض دخوله اليها . فركب الباخرة على غير وجهة وكانت متجهة إلى قناة السويس فلما وصلت بور سعيد . . لم يستطع بيرم آن يقاوم فنزل إلى آرض مصر متخفيا ليصل إلى القاهرة . . حيث آهله وولده .

غلبت أقطع تذاكر — وشبعت يارب غربه
بين الشطوط والبواخر — ومن بلادنا لاوروبة
فى بور سعيد السفينة — رست تفرغ وتملا
هتف بى هاتف وقال لى — آنزل ومن غير عزومه
انزل دى ساعة تجلى — فيها الشياطين فى نومه
أنزل دا ربك تملى — فوقك وفوق الحكومة
وآقول لكم بالصراحة — اللى فى زماننا قليلة
عشرين سنه فى السياحة — وأشوف مناظر جميلة
ماشفت ياقلبى راحة — فى دى السنين الطويلة
الا اماشفت البراقع — واللبدة والجلابية

هكذا كان بيرم يعيش بكل وجدانه وعواطفه . . شعبيا خالصا ومصريا صميما . . أختفى بيرم بعد نزوله فى بور سعيد إلى أرض بلاده لعدة شهور عند بعض الأصدقاء وكان لابد لكى يرفع عنه النفى المؤبد أن يقدم الثمن على صورة بضعة أزجال يعلن فيها التوبة ويسبح فيها بالاسرة العلوية وبالملك الذى طعنه فى شرعية ولادته وليس فى شرعية ملكه فقط . . كان ثمنا رخيصا أقتضاه عدة سطور بليدة جامدة لا تكاد تعبر عن احساس حقيقى من جانبه بما اورده فيها من عبارات الثناء المستطاب المعتاد . .

وكان هذا من ابرز ما أخذه عليه خصومه فى حياته ، بل وللاسف بعد وفاته . . وقد فات هؤلاء أن هذا الملق من جانب بيرم أنما كان يتفق تماما مع طبيعته وشخصيته ، ذلك أن بيرم كان يحمل بين جنبيه مع الانفة والكبرياء والاصرار والاعتداد بالنفس قدرة فائقة على احتقار الصغائر . . وان يكتب عدة أزجال ليستطيع العودة إلى أهله ووطنه بعد حياة كلها عناء وشقاء . . وكان نوعا من الصغائر التى ينظر اليها بالاحتقار . . حدثنى بنفسه عن هذه الواقعة ذات صباح بقهوة الحرية بميدان الازهار وكان ومزاجه معتدلا على غير العادة . . فقال بمنطق عجيب وعميق وهو يبصق على الارض . .مشيرا الى بصقته والاوساخ التى تعج بها أرض الميدان . . ماذا فعلت هذه البصقة فى الميدان . . هل زادت من أتساخه ؟ أبدا . . كذلك كانت أزجالى التى كتبتها فى غير توسل . . بصقة تضاعف من قذارة ووفرة المدائح . .

وأنا شخصيا لى تفسير مخالف قوامه موقف بيرم المتفرد من العائله المالكة الحاكمة وهو موقف جوهرى كان يربض كامنا فى أعماق الضمير الشعبى ويسيطر على الوجدان العام للبلاد بحيث خلق تيارا ضخما من الاحساس المؤرق لضمير ثورة ١٩١٩ ورجالاتها بعد أن جانبت الدعوة الجوهرية التى نفى من أجلها بيرم وهى دعوة الخلاص من النظام الملكى كاصل واساس . . ولم تكن بضعة مدائح يقدمها بيرم لتغفر له ولو بعد عدة سنين أن تتسامح الملكية الحاكمة فى وجوده لو لم تكن هناك قوة مشعة لروح شعبية غامرة تسند وتجند وتلتف بارادتها حول هذا العفو . . وتلك هى الطبيعة الحقيقية لقوة شعبنا فى المقاومة فهو دائما يعلن عن ارادته بالصمت والصمود أكثر مما يعلن عنها بالافعال الثورية الحادة الجارفة . .

وطوال الفترة التى عاشها بيرم منذ عودته حتى وفاته فى عام ١٩٦١ . . عاد ليغمر حياتنابازجاله فى كل مجال من مجالات نشاطنا الفنى والفكرى . . فى السينما والمسرح والاذاعه والاغانى . . وطرق كعادته شتى الموضوعات فى اصاله وتجدد وحيوية . .

لكنه ابدا لم يخرج عن الجوهر الذى استخدمته اصالته . . وهو التعبير الصادق الخالص عن حياة الجموع الشعبية التى جعلته من البداية الروح الناطق المعبر عنها .

وهذه نتف من أزجاله عن الطبقات الشعبية عامة :

يامنبوذين الهند كفوا دموعكم
دى مصر فيها المنبذين ملايين

وهذه أزجاله عن العمال :

ليه بيتى خربان وأنا نجار دواليبكم
ليه فرشى عريان وأنا منجد مراتبكم

وهذه أزجاله عن الفلاحين :

ناس تملك الطين وناس غيرهم عيشتهم طين
مع أن ربــك خلقنــا كلنــا من طين
لا الشرع يحكم بدى القسمة ولا القوانين
اللى لنفسك تحبه . . اطلبه للنـــــاس
مش تحب نفسك لوحدك وتحرم الملايين

وليس أوضح ولا أعمق ولا أقوى مما كتبه بيرم فى هذه المجالات وببراعة فنية لم يدانه فيها من قبل ولم يلحقه اليها بعد أى شاعر أو زجال آخر . . والحق أن بيرم عاش بعبقريته متفردا حتى نهاية عمره . . ولكنه عاش يعتز بها إلى درجة كبيرة . . حتى صوره بعضهم فى اعتداده بانه كان يضمر الحقد لبقية الفنانين الذين يكسبون من أعمال أقل قيمة من أنتاجه الكثير من الاموال . . وتلك فرية مبعثها فهم خاطىء وغير ناضج لطبيعة الحياة التى عاشها بيرم . . فالرجل على عكس كافة كتاب عصره . . كان يقتات من قلمه . . والثابت الذى لا ينكره أحد أن ما من كاتب أو أديب يستطيع أن يعيش أو ينتج فى حياتنا الا اذا استند على مسند من دخل ثابت تدره عليه وظيفة دائمة . . واصراربيرم على أن ينال ما يستحقه له بالقياس الى ما يناله غيره عن أعمال فنية لا تدانى مؤلفاته قيمة . . أمر طبيعى لرجل عاش طوال عمره من اليد إلى الفم مباشرة . . ابدا لم يكن طمعا فى مال . . والذين عاشروا بيرم على نهاية عمره فى زهده وتصوفه البالغ يعلمون كيف كان ينظر إلى المادة فى احتقار مرير . . لقيته يوما يجتاز رصيف الترام مع ولديه الصغيرين فى طريقه إلى محلات شيكوريل ليشترى لهما كسوة العيد . . وكان يحمل فى يده حوالى مائة جنيه استلمها

توا من خزانة الاذاعه عن ثلاث حلقات من مسلسلته الاذاعية الشعبية الرائعة (الظاهر بيبرس) . . فقال . . وهو يأسف ساخرا (نبيع مشعرنا وافكارنا على السوق وناخد مقابلهاورق نشترى به جزم وصور) . . ثم أردف (والحمدلله على الفقر والجدعنه) .

تبقى نقطة أخيرة هامة فى تراث بيرم . .فهو تراث أبقى واقيم وانفع من الاف الكتب التى يعاد طبعها . . وذلك لما يحويه من الحقائق الانسانية والأجتماعية الباقية وفى مختلف الاغراض وشتى القضايا . . وكلها حقائق تجعله يفوق كل تصور واع لحياتنا الأجتماعية . . واليكم بعض قطاف منها . . فهذه قصيدة بعنوان (دوسيهات الدواوين) لا أحسب أنه كتب أو يمكن أن يكتب مثلها عن المشكلة الازلية القائمة . .

● مشكلة الروتين .

فى دى الدوسيهات اشغالك واشغالى
بقى لها خمسين سنه فى وضعها الحالى
فيها معاش ارملة قالت يا أبو عيالى
وعرضحال شاب بائس من العمل خالى
حاططها صاحبك وبيقول لك وأنا مالى
دا حسنى بيه المدير العام باعتهالى
ولسه عايزا لها أمضة مستشار عالى
ولا حتنزل على الارشيف طوالى . .
ادى النظام اللى خارب كل بيت مالى
ومركب الفقر أمثالك أمثالى

● وهاكم مقطع من كل زجل طويل من سرعة تأثرنا بالموضة الوافدة من الخارج :

أول ما تظهر تسريحه وحـركة قبيحـة
تمشى بها الست سميحه فى دراع سى أمين

والحق أن بيرم طرق كافة الموضوعات وفار بازجاله الرائعة فى مختلف مناحى حياتنا ، فكان يفسر ويحلل ويشرح فى براعة فنية منقطعة النظير . . وفى نقد عميق نفاذ لاذع كسب فيه لازجاله القوة والفاعلية التى أقوى حقائقها ليعيد خلقها من جديد كى تصبح سلاحا فى يد مواطنيه لخدمة تقدمهم الأجتماعى ونهوضهم القومى

وتحررهم الفكرى . . والمرء لا يستطيع أن يمنع نفسه لو سمح المجال ببقية من قطاف روائعه ومأأكثرها . . وماضيعها فيما تقع عليه ايدينابين الحين والحين من خوالد بيرم الخافية المهدرة فى عديد الصحف القديمة والكتب والمجلات البالية . . واليكم عينة من قصائده التحليلة التى يصور بها جوانب من طباعنا العامة .

● الكلمات المهايفه :

من هفوه أو كلمة هايفه ننحمق ونقوم
نسب وننذب ويدور العراك بالشوم
وكل محموق وله فرقة تقوم بهجوم
من قبل ما نعرف الظالم من المظلوم
تبقى الشرارة حريقة والسحابة حسوم
لا شركة تنجح ولا عيلة صفاها يدوم
منين نشوف العدل ولا السفينة تعوم
ما دمنا فوق قلبها قاعدين لبعض خصوم
تضحك علينا الحدادى فى السما البوم

● الزحام :

شوف الجاموس لما يشرب من شطوط النيل
الواحدة جنب أختها واقفين فى صف جميل
شوف الغنم فى المراعى واقفة ف ظل ظليل
لا الكبش يطغى ولا ينطح بقرنه فصيل
شوف الطيور لما بتروح فى كل اصيل
سراب ومنتظمة راجعة للحمى بدليل
وانظر وشوف البنى آدم بتوع دى الجيل
كل الأمور عندهم بالزغد والتشضيل
قالوا اللى ما يكونش فى الأول دا يبقى عويل
ومن كدة بالقليل فى كل زحمة قتيل
والله البهايم ولا أولاد قبيل وهابيل

— وهذه ليست سوى قطرات من بحر بيرم الزاخر . . تعد واضخم وانقى وأصدق تراث عبر عن روح شعبنا فى عمق ونفاذ ووعى متفتح واخلاص دائب وصراحة كاملة وجرأة بالغة وشجاعة نادرة . .

● محتويات الكتاب ●

سكرتير تحرير تنفيذى

● محمد عفت

وبعض الرسوم الداخلية

رقم الايداع بدار الكتب والوثائق القومية ٨٣/٤٧٨٥

الترقيم الدولى ١ ـ ٠٤٧ ـ ١٢٤ ـ ٩٧٧ ISBN

نعمان عاشور

- من مواليد ميت غمر بمحافظة الدقهلية .
- خريج كلية الآداب قسم اللغة الانجليزية .
- اشتغل بعدة وظائف حكومية فى وزارتى الشئون الاجتماعية والثقافة .
- ترك الوظيفة ليتفرغ للكتابة .
- امتهن الصحافة فعمل محررا ادبيا فى جريدة الجمهورية ثم رأس تحرير مجلة « كروان » وهى مجلة للأطفال .
- وهو حاليا كاتب صحفى من كتاب دار أخبار اليوم .
- بدأ حياته الأدبية بكتابة القصة القصيرة وله فيها ثلاث مجموعات هى « حواديت عم فرج » و « فوانيس » و « سباق مع الصاروخ » .
- قام لعدة سنوات بتدريس فن الكتابة للمسرح بالمعهد العالى للفنون المسرحية حيث تدرس اعماله المسرحية .
- يهوى كتابة التراجم والسير ، وله فيها عدة مؤلفات منها . . كتابه « فتيان الحرية » و « صور من البطولة والأبطال » - وكتاب « شعب مصر » وهو مشاهد درامية لتاريخ الجبرتى . وكتابه الحالى « عشاق مصر » .
- كتب للاذاعة منذ سنة ١٩٤٧ العديد من التمثيليات والبرامج الثقافية ، كما كتب للتليفزيون الكثير من الأعمال فى بداية إنشائه .
- اتجه إلى كتابة المسرح على بداية الخمسينات ، وكان أسبق أبناء جيله فى كتابة المسرحية ، وحصل على الجائزة الأولى للمجلس الأعلى للفنون عن مسرحيته « عفاريت الجبانة » .
- كان عضوا دائما فى لجنتى القصة والمسرح فى المجلس الأعلى لرعاية الآداب والفنون لمدة عشرين سنة .
- يعتبر من أوائل كتاب مسرح الستينات ، وله فى هذا المجال حوالى عشرين مسرحية . . منها « المغماطيسى » و « الناس اللى تحت » و « الناس اللى فوق » و « سيما أونطة » و « وابور الطحين » و « الجبل الطالع » و « عيلة الدوغرى » و « بلاد برة » و « بشير التقدم » و « برج المدابغ » و « لعبة الزمن » وقد قدمت جميعها على خشبات المسرح .
- حصل على جائزة الدولة التشجيعية فى المسرح عام ١٩٦٩ .
- تخطى مسرحياته بتقدير الدارسين وكتبت عنها الكثير من الرسائل فى جامعات « عين شمس » و « معهد الفنون » و « جامعة كولومبيا » و « أكاديمية الدراما بموسكو » وجامعة « السربون » وغيرها . .
- له الكثير من البحوث الفنية والدراسات الأدبية فى العديد من المجالات الثقافية فى مصر والعالم العربى .
- يجمع النقاد على أنه رائد المسرح العربى الواقعى المعاصر .



رئيس مجلس الإدارة :

موسى صبرى

رئيس التحرير :

أمين محمد عدلى

نائب رئيس التحرير :

عبد العزيز عبد العليم

مدير التحرير :

حسين فريد

العدد ٢٢١ — محرم ١٤٠٤ — نوفمبر ١٩٨٣ — تشرين الثانى

الإدارة : أخبار اليوم ٦ شارع الصحافة ت ٧٥٨٨٨٨ عشرة خطوط تلكس دولى ٩٢٢١٥ - محلى ٩٢٢٨٢

الاشتراكات

جمهورية مصر العربية :
قيمة الاشتراك السنوى ٦ جنيه مصرى

دول اتحاد البريد العربى والافريقى } ٧,٥٠٠ جنيه مصرى — ١٣ دولاراً أمريكياً أو ما يعادلها

باقى دول العالم (أوربا والأمريكتين وآسيا واستراليا) } ١٥ جنيه مصرى — ١٨ دولاراً أمريكياً أو ما يعادلها

- ويمكن قبول نصف القيمة عن ستة شهور
- ترسل القيمة الى الاشتراكات ٢٣ ش الصحافة القاهرة ت ٧٤٨٨٤٤ (٥ خطوط)

أسعار كتاب اليوم فى الخارج

البلد	السعر	البلد	السعر	البلد	السعر	البلد	السعر
المغرب	١٢٥٠ فرنك					إيطاليا	٢٠٠٠ ليرة
لبنان	٦٠٠ ق.ل					باكستان	٣٥ روبيه
الأردن	٦٠٠ فلس					سويسرا	٤ فرنك
العراق	٦٠٠ فلس					اليونان	١٤٠ دراخمة
الكويت	٧٠٠ فلس					النمسا	٤٠ شلن
السعودية	٧ ريالات					الدنمارك	١٥ كرونات
						السويد	١٥ كرون
						الهند	٣٥٠ سنتا
السودان	١٠٠٠ مليم			السنغال	٦٠٠ فرنك	كندا/أمريكا	٣٠٠ سنت
تونس	١٢٥٠ مليما	الخليج	٨٠٠ فلس	هولندا	٥ فلورين	البرازيل	٤٠٠ كروزيرو
الجزائر	١٢٥٠ سنتيما	غزة	٢٥٠ ليرة	انجلترا	١٠٠ بنى	نيويورك/واشنطن	٣٥٠ سنتا
سوريا	٥٠٠ ق.س	اليمن	٨٠ بنى	فرنسا	١٠ فرنك	لوس انجلوس	٤٠٠ سنت
الحبشة	٦٠٠ سنت	الصومال/نيجيريا	٨٠ بنى	ألمانيا	٥ مارك	استراليا	٤٠٠ سنت